

بلاد الشمس الساطعة

لويز كولي

ترجمة : د. عز الدين الخطابي

لويز كولي

بلاد الشمس الساطعة

رحلة إلى الشرق

ترجمة

د. عز الدين الخطابي

مراجعة

د. فريد الزاهي

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

Colet, Louise, 1810 - 1876
[Les pays lumineux, voyage en orient]

بلاد الشمس الساطعة : رحلة إلى الشرق/ لويز كولي؛ ترجمة عز الدين الخطابي؛ مراجعة فريد الزاهي. – ط 1 – أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
ص. ؛ سم.
ت د م ك 978-9948-01-689-2
ترجمة كتاب: Les pays lumineux, voyage en orient
1 – Colet, Louise, 1810 - 1876. 2– مصر – وصف ورحلات. أ – خطابي، عز الدين. ب– زاهي، فريد. ج– العنوان.

DT54 .C6512 2010



أبـوظـبـي للـثـقـافـة و الـتـراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

هذا الكتاب ترجمة لـ:
Louise Colet
Les pays lumineux
Voyage en Orient
E. Dentu éditeur, Paris 1879

أبوظبي – الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 300 6215 2 971+

publication@adach.ae
www.adach.ae

بلاد الشمس الساطعة

رحلة إلى الشرق

تقديم

اجتذب تدشين قناة السويس مخيّلة الناس نحو مصر، حيث سارع إلى زيارتها علماء وكتّاب وفنانون من كل بقاع العالم، هم الأجدرُ بفهم العبقرية المثابرة وتشجيعها.

فقد تحقق العمل العظيم المتمثل في الجمع بين بحرين والذي كان يعدّ تحقيقه أمراً مستحيلاً؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى الإرادة الصلبة لرجل واحد؛ وهو إنسان عظيم، سيظل اسمه منقوشاً إلى الأبد في تاريخ الحضارة.

إن مصر التي تثير مآثرها الضخمة ونهرها الخصب وسماؤها الصافية دوماً إعجاب العالم؛ تستعد للاحتفال بكل أبهة الشرق بالفرنسي الذائع الصيت، الذي منحها رائعة جديدة.

وقد استدعيت إلى هذا العرض الكبير؛ بفضل الصداقة الأدبية (littéraire) التي تجمعني بالسيد (لوي (ألوري)) (Louis Alloury) محرر «بجريدة النقاش» وأحد مسيري شركة (برزخ السويس) (L'isthme de Suez). وأنا أشدِّد على استخدام لفظة «الصداقة الأدبية» التي أعرب لي عنها هذا الناقد الشهير والمفكر الجريء في مجالي الفلسفة والسياسة منذ بداياتي الأدبية. ولقد مر الآن أكثر من ربع قرن على نشره لقصائدي الأولى؛ وخلال هذه السنوات العديدة الموْسومة بالتجاهل والإهمال المجانيين، ظل هذا الصديق المثقف يولي لأعمالي دعمه الطيب ورعايته. فهل توجد صداقة أمتن من هذا التعاطف المثالي، الذي لا تؤثر فيه النوازل التي تنوء بحملها المشاعر؟

هكذا، شددت الرحال إلى مصر مباشرة بعد قبول السيد (دو لسيبس) (De lesseps) بمودته اللطيفة؛ طلب السيد (ألوري). وعلى مدى ستة أشهر، انتشيت بجمال الطبيعة في أروع الأمكنة بالعالم؛ بمصر العليا والسفلى و(صقلية) و(الكلابري) و(أثينا) و(القسطنطينية). وتأملت بهذه الضفاف المختلفة في أجمل مآثر الفن المصري والعربي والبيزنطي؛ واطلعت على التاريخ القديم والحديث لهذه البلدان والشعوب، المختلفة ودرست دياناتها وعاداتها ومشاعرها وأهواءها. كما تجولت في أماكن ظلت مجهولة، من قبل الرحالة المتسرع، في اليونان

وإيطاليا الجنوبية؛ وتعرفت إلى هذه الأماكن بفضل أناس طيبين، سياسيين وأدباء، رحبوا بي داخل حميمية مساكنهم. وفي مصر وتركيا، تمَّ الترحيب بي على نحو غير متوقع داخل الحريم، هذا الفضاء المعزول والمنيع، حيث وجدت- باندهاش وتأثر- أكثر النفوس سمواً وأرق القلوب وأكثرها محبة في العالم.

هكذا- وبنوع من المماثلة- تتوارى بقمم جبال الألب بحيرات مسيجة، عميقة وصافية، كأنها جواهر لا تُعدُّ ولا تُحصى، يتمركز إشعاعها داخل أماكن موحشة لا يبلغها أحد.

فلننْطلق الآن- أيها القرّاء- وعليكم أن تتبعوني كرفاق طيبين. ولتعمل حكاياتي على إزالة الهموم التي يحملها كل واحد منا؛ فبسردها أسعى أنا الآخر إلى نسيان همومي.

الفصل الأول

الانطلاق من (باريس)، توديع الأقارب والأصدقاء، (أنطوني دي شان) (Anthony Des champs)، ركوب السفينة البخارية (لوموريس) (Le Moeris) من (مرسيليا)، الركاب الفرنسيون والألمان، كآبة وتشنج البعض؛ انقشاع الأجواء بعد دوار البحر، رفيقتي بالمقصورة، مرورنا بمحاذاة (كورسيكا) وجزيرة (كابري)، مشاهدة (ميسين) وشواطئ (الكلابري) ليلاً، ترقب ميناء الإسكندرية، الانبهار بالسماء الإفريقية، صعود السيد (دولسيبس) على متن السفينة، الرجل الذي تغلب على الفكرة، الملك الحقيقي لمصر يرحب بنا في ولاياته؛ مقام بالإسكندرية.

مساء الخميس سابع (أكتوبر) من سنة 1869، كانت الحركة غير عادية بمحطة القطار بمدينة (ليون) (Lyon)، قبيل انطلاق القطار السريع إلى (مرسيليا). وكان هناك فنانون وأدباء وعلماء وبعض علية القوم؛ مجتمعين وكأنهم بمنتدى مؤقت أو بمسرح كبير ليلة العرض الأول.

ومن كل الجهات، كانت تنبعث الكلمات الحادة أو اللامبالية أو المتأثرة. فقد كان المرء يحس بتيار الروح الباريسية، هذه الروح الحاذقة والرقيقة التي يمكن إخضاعها للرقابة، لكن لا أحد ينكر فرادتها في العالم؛ بفعل خاصية البناء السريع للتصورات لديها وتعبيرها الواضح وفهمها غير المتوقع. فالإنكليز والألمان والإيطاليون يستغرقون يوماً كاملاً للتعبير عن عدد من الأفكار والمشاعر التي نقوم بصياغتها في ساعة واحدة. وسواء كانت ملهمة أم مغامرة ومتهورة؛ فإن كلماتنا تسري وتنساب وكأن الموت يلاحقنا، ويهددنا بصمته الذي لا يرحم.

عندما وصلت مساء إلى محطة القطار- مرفوقة بأفراد عائلتي الذين قدموا من (نورمانديا) (Normandie) لتوديعي- كان كل المتحدثين بصخبٍ أو بتألقٍ- ضمن النخبة المذكورة- يهرعون داخل المقصورات وهم على استعداد للسفر. وسا يرتهم في خطواتهم بعد أن قبلت ابنتي العزيزة والوحيدة. وبينما نحن متعانقان- أنا من داخل العربة، وهي من خارجها- إذا بي ألحظ السيد (أوجين بيلتان) (Eugène Pelletin)، فناديته متسائلة:

- ماذا؟ هل ستكون من ضمن المسافرين؟

وكنت مسرورةً بفكرة مرافقة هذا الأديب العظيم والنبيل الذي ظل إحدى أفضل الذكريات في حياتي الأدبية. لكن الكاتب الكبير أجابني قائلاً:

- كلا، فالمسافر هو ابني، وأنا أوصيك به خيراً.

وتدخلت ابنتي بابتسامتها الطفولية التي لا تقاوم قائلة:

- عليك أن توصي ابنك بأمي خيراً أيضاً؛ فهي مريضة.

فردَّ أوجين بيلتان:

- بكل سرور، لكن علي أن أعرف العربة التي صعد إليها.

وركض باتجاه مقدمة القطار، ثم توقّف بضع ثوانٍ للتحدث مع مسافر يطل من نافذة إحدى المقصورات، ثم عاد، وخاطبني قائلاً:

- كل شيء على ما يرام، ستكونان معاً بـ(مرسيليا)، على ظهر السفينة.

سلمتُ عليه بحرارة، وقبّلت ابنتي للمرة الأخيرة قبل أن يتحرك القطار، وشعرت بذلك الانقباض الذي ينتابني كلما قررت الرحيل. وفي اللحظة التي كان فيها البخار يطلق في الهواء صفيره الحاد، وقبل أن ينقل إلى العربات قوته الجامحة؛ رجع قلبي المتردّد إلى الوراء، إذ تذكرت كل من تركتهم من أحبة ومحبوبين؛ ففي لحظة التردد تلك، تراءت أمام عيني كل المصائب الممكنة الوقوع.

هل سألتقي من غادرتهم عند رجوعي؟ واجهني جوابٌ مؤسفٌ هو: «ربما». هكذا اختفى الانجذاب والانبهار بالبلدان التي أجهلها. وكان أعز ضيوفي وأعز أقاربي الموجودين بالمنزل قد خاطبوني قائلين:

- تخيَّلي أنك لن تلتقينا وتسمعينا مرّة أخرى، عندما تعودين.

وكنت أتمنى- خلال هذه الرؤية المأتمية- لو كان بإمكاني إيقاف البخار الذي يجرفني؛ لكنه تحول إلى تيار أثر فيّ بقوته الهائلة، فقفزت روحي ومعها جسدي، وانتعشا بفعل هذه القوة التي تدفعهما إلى الأمام. وبعد ساعة من التحليق الخيالي في الفضاء؛ أحسست بنوع من الحيوية والعزم يحلان محل وهن وخجله الانطلاق.

كنت قد قضيتُ يوم 6 (أكتوبر) برمته تقريباً، عشية مغادرتي لـ(باريس)، رفقة (أنطوني دي شان)، وهو صديق في الثلاثين من عمره، بل هو أعز وأكثرهم الناس إخلاصاً لي في عالم الأدب؛ وهو شاعر صريح وأبِيٌّ، لا يصدر عنه أي عمل حقير يمكن أن ينال من سمو قريحته. وقد كان غير مبالٍ بالامتيازات والتشريفات المزعومة التي كان يطمع فيها كل الكتاب، بما في ذلك أعظمهم. كان يعدّ الأوسمة الفرنسية والأجنبية لعباً تافهةً تثير شفقة العباقرة، ويقابل التهافت الدائم على الكراسي- من قِبل المتنافسين على مقعد بالأكاديمية الفرنسية- بالقول:

إن هذه الجمعية العالمة لا يمكنها سوى تكريس الضحالة؛ لأن المواهب الحقيقية تنجز مجدها بنفسها.

ولم يؤثر المرض العصبي- الذي أصابه في شبابه والذي لم يشفَ منه أبداً- في شموخ هذا العقل المتحرر. فقد كان يتفنن في احتقار كل مظاهر الشعوذة، ويحقد على كل ما هو زائف. وكان الخداع والكذب بغرض تحقيق المجد أو الظهور بمظهر الفضيلة، يعدان في نظره من أحط الأعمال الدنيئة. وبفضل اطلاعه المتواصل على عبقرية (دانتي) (Dante)؛ تمكن من استعمال ألفاظ مقتضبة وعبارات وجيزة لتوجيه سياط نقده على كل ما هو وضيع. فلم يكن ينبهر بالشهرة، كما أن المظاهر لم تكن تخفي عنه عمق الكائنات والأشياء. ولا أحد أفضل منه، بإمكانه الحكم على الشخصيات التي أدّت دورها في المهزلة الطويلة للإمبراطورية؛ فقد كان يضبط بسرعة الأشخاص الوقِحين والأنذال الذين استنزفوا ثروات (فرنسا)، والذين ضحّوا بشرف الوطن ومجده مقابل تلبية رغباتهم وإرْواء غرورهم.

وسيأتي يوم أروي فيه كل الحكايات التي جمعها- المتعلقة برجال هذا الزمن- مع الحرص على عدم المساس بالجرأة والقسوة النزيهة اللتين اعتمدهما لإبراز رذائل هؤلاء العصبيين! لقد كنت أحبه بسبب هذه الصراحة وذلك الشموخ، وأيضاً كاعتراف له بالجميل. وعلى مدى الثلاثين سنة التي شهدت نمو صداقتنا الخالصة؛ ظل وفياً لي على نحو قل نظيره في عالم الأدب. فكنت أجد فيه المدافع الشجاع عني كلما تعرضت للخيانة في علاقاتي الثقافية؛ حين كنت أتعامل بصدق وبشفافية، في ميدان غالباً ما تخضع فيه العلاقة بين الرجل والمرأة إلى لعبة التباهي والتودد. ففي عالم فاسد، نحتاج إلى الشجاعة لإقرار حق المهزومين في الحب أو الصداقة أو المجد. وهل هناك من يفضل هزيمتهم المؤلمة على الانتصار المكتسب من جراء الانتهاك السري لما هو خير وجميل؟

ولأنه كان شاهداً يومياً تقريباً على حياتي التي كان يرعاها بيقظة؛ فقد لاحظ أين تكمن الخيانة ضمن الانقطاع المؤسف للعلاقات حيث يصبح الصديق وأمين سرِّ الأمس؛ هو العدو ومفْتري الغد.

كان يحكم بنزاهته الصارمة على حسابات المصالح وغرور الناس ذوي القلوب الجافة

الذين يتباهون بخداعهم لقلب حنون. وكيفما كانت ثروتهم ووضعيتهم في العالم؛ فإنه لم يكن منبهراً بهم؛ حيث ظل حكماً نزيهاً ومهيباً على أعمالهم الخفية، مبتعداً عن نجاحاتهم السريعة والصاخبة الناجمة عن علاقات انتهازية.

لم تعمل إقامتي الطويلة بـ(إيطاليا) خلال السنين الأخيرة؛ سوى على تمتين روابط هذه الصداقة الوفية. فقد كانت رسائله تعوِّض زياراته المتكررة لي بـ(باريس). وكان متحمساً جدّاً لنهضة (إيطاليا) الجديدة وصديقاً لأحد أشهر المنفيين الإيطاليين إلى (فرنسا)؛ ذلك أنه عاش في فترة شبابه المبكر وتحديداً سنة -1822 أي في قلب مرحلة الإصلاح- بـ(روما) الهادئة والبابوية التي لن نراها ثانية أبداً.

كانت التقاليد الرومانية في تلك الفترة؛ هي تلك التي وصفها (ستاندال) حديثاً. وكان (أنطوني) قد أقام رفقة صديقه (ألكسي دو طوكفيل) (Alexis de Tocqueville) عند أرملة (بورجوازية) محترمة، لديها بنتان شابتان جميلتان. وكانت هاتان البنتان عشيقتين لـ(كردينال) ولنبيل. فأما التي كانت مرتبطة بـ(الكردينال)؛ فإنها رغم افتخارها بالاهتمام الذي يحظى به (أمير الكنيسة)، كانت تشتكي للشاعر الشاب من بخل الكاهن الثريّ. وعندما لم تتمكن خلال احتفالات (الكرنفال) من الحصول من سعادته على فستان الحفل الذي كانت ترغب فيه منذ مدة؛ لجأت إلى الشاب الأجنبي ذات صباح، وأخذت منه مئة (إسكودي). ويجب الاستماع إلى هذا المفكر الكبير والمتحرر؛ وهو يحكي عن المشهد (الإيروتيكي) المضحك الذي عاشه منذ حوالي أربعين سنة! فقد طلبت الفتاة السمراء الشَّبقة هذا المبلغ من شاعرنا الشاب عندما أحضرت له كوب (الشوكولاته). وكان الرجل مستلقياً فوق سريره وآثار التعب مازالت بادية عليه، بعد جولة عبر مآثر (روما) في اليوم السابق. وعلى الفور عبَّر للرومانية الجميلة عن تعاطفه معها، فكسب وُدَّها؛ عندما قام من فراشه بسرعة، وتوجه إلى المصرف وسحب مئة (الإسكودي) التي تحتاج إليها الفتاة الشابة من حسابه الخاص، فصاحت هذه الأخيرة وهي تقبله: «يا عزيزي، لا أحد ألطف من الشباب في الحب».

وظهر (الكردينال) في عمق اللوحة بأنفه الكبير الملطخ بالتبغ المبلل والدموع المتعفنة تسيل فوق سترته البنفسجية. بعد مرحلة (روما)، عاش الشابان الفرنسيان (أنطوني ديشان)

و(ألكسي دوطوكفيل) فترة الافتتان والنفور في (نابولي). فالأول الذي كان مترجماً أصيلاً لـ(دانتي) والثاني الذي كان مؤرخاً وفيلسوفاً مهتماً بالجمهورية الأمريكية العظيمة، شاهداً على طول شارع طليطلة على دعارة الجنسين المعروضة في عريها الرهيب. وكان قوادو (نابولي) الأكثر فساداً ووقاحة من أشباههم بقسطنطينية والقاهرة؛ يخاطبون الأجانب المندهشين قائلين باللغة الإيطالية: «سيدي، هل تريد فتاة جميلة أو تريد كاهناً؟».

وطبعاً، فإن هذا الأمر كان يحدث في عز الطغيان (البربوني) (Borbonienne) والبابوي، في الفترة التي كان فيها (غريغوار) السادس عشر يسجن الوطنيين الرومانيين بقلعة (سانت آنج) (Saint Ange)؛ وكان فيها الملك العجوز (نازون) (Nasone)[1]، أرمل (كارولين) السافلة الذي تمَّ تنصيبه على عرش (نابولي) من قِبل الجيش النمساوي يصْدر على (ليبراليي نابولي) أحكامه بالإعدام والنفي والأعمال الشاقة؛ وهو الذي سبق أن وعدهم سنة قبل ذلك بإقرار الدستور.

هكذا، وبعد ثمانية عشر قرناً من هيمنة الكاثوليكية وتحت هذه السماء الصافية، ظلت الرذائل والجرائم والخلاعة وإراقة الدم منتشرة كما كان الأمر في عهد (نيرون) (Neron) و(كاليجولا) (Caligula)!

وقد ظل شعور القرف والتمرد حاضراً بقوة لدى الشاعر الشاب؛ وعندما ثارت (إيطاليا) ثلاثين سنة بعد ذلك، وحملت السلاح للانتقام من الإهانات التي تعرضت لها قروناً طويلة على يد المدافعين عن شرعية السلطة والمتطرفين الفرنسيين الذين اتَّهموا- زوراً- الثوار الإيطاليين بالإلحاد و(الديماغوجيا)- ومازالت هذه المسرحية قائمة إلى يومنا هذا- قام (أنطوني ديشان) بدعم الثوار ورد على منتقديهم قائلاً: «بصدد الإلحاد، الذي يعني نفي الإله العادل وبالتالي نفي الخير؛ فإننا لن نجد إلحاداً أكثر فظاعة من ذلك الذي ساد (روما) منذ عدة قرون. أما عن (الديماغوجيا) في معناها الأكثر همجية ونذالة؛ فإننا لن نجد (قنصلاً) رومانياً في القديم ولا ثورياً حديثاً، قادرين على إثارة الغضب، مثلما أثاره الملك (نازون)، هذا (البربوني) حفيد (لويس) الرابع عشر، الحاكم باسم الحق الإلهي والذي تحالف مع (اللازرونيين)، وسلم إلى هؤلاء الرعاع المتعصبين؛ النبالة و(البرجوازية) المتنورتين بمملكته، مثلما سلم القياصرة

(1) هو اللقب الذي أطلقته جماعة (اللازرونيين) (Lazzaroni) على (فردينان) الأول.

الأوغاد المصارعين الشجعان إلى وحوش الملاعب.[1]

لقد تمكنت الحميمية اللطيفة التي امتدت طوال هذه الصداقة والتي دعمها تبادل المشاعر الإنسانية النبيلة؛ من مقاومة الغياب وانشغالات الأسفار. لكن جلساتنا عرفت توقفاً اضطرارياً منذ شهرين؛ بسبب الوهن البدني الذي أصاب شاعري وأخي العزيز.

ومع ذلك، ظل فكره يقظاً وحادّاً، بل ازداد نباهة بخصوص «الكشف عن الحقيقة التي يسعى كل إنسان إلى تعتيمها»[2].

كان جسده يترنح وكأنه خاضع لتأثير صدمة داخلية لا تتوقف. ورغم أنني كنت مريضة؛ فإنني كنت أزوره مرات عديدة بـ(باسي) (Passy). وقد ضاعف طبيبه من قلقي عندما أخبرني بأنه قد يموت في الأيام القليلة المقبلة. وعندما علم بقرب رحيلي إلى مصر؛ بذل مجهوداً جباراً، وزارني مرتين في الأسبوع نفسه. وليلة سفري قضى بمنزلي زهاء خمس ساعات. كان شاحب اللون، وتنتاب وجهه النحيل عدة تشنجات، وتهتز كل عروقه، وترتعش يده الهزيلة وهي تقبض صحن الحساء أو كأس نبيذ (البوردو) (Bordeaux) الذي كنت أناوله إياه على فترات. وكنت أغمض عيني حتى لا أرى جسده البئيس، الشبيه بهيكل عظمي؛ ولكي أستمع على نحو أفضل إلى هذا الفكر المرح الذي ظل متحركاً دون توقف حتى أواخر أيامه. ظل إحساس ينتابني بأنني لن ألتقيه ثانية عند عودتي من السفر. وعندما وقف وقبلني بالباب؛ انسابت الدموع على خدي، وقلت له وأنا أتصنع الشفقة على نفسي وأشد على يديه

(1) في كتابي «إيطاليا الإيطاليين»، الجزء الثالث، تكلمت عن ذكريات أبي الذي عاش بـ(نابولي) رفقة أبيه تاجر الفراء ومزود البلاط؛ وعن (كارولين نابولي) وعن الملك (نازون).

عندما دخلت الجيوش الفرنسية (نابولي)؛ هرب الزوجان الملكيان الوغدان؛ تفادياً لغضب النبلاء و(البرجوازيين). ولما أعاد الإنكليز (نازون) إلى عرشه؛ مارس انتقاماً شنيعاً على علية القوم بـ(نابولي)، وامتد انتقامه؛ ليشمل الفرنسيين المقيمين بالمملكة والذين تحمسوا لانتصارات أول جمهورية؛ وقد تم تقييدهم وراء الموكب الملكي الذي أعاد آل (بوربون) إلى الحكم.

ومن بين التعساء الذين تعرضوا لاحتقار (اللازرونيين) وقمعهم، وتم إشباعهم شتماً ورمياً بالحجارة؛ كان جدي وأيضاً- ويا للغرابة!- إحدى أخواته العجائز التي كانت تدير مؤسسته التجارية بـ(نابولي). وقد واجه جدي هؤلاء الرعاع وتحداهم، لكن المرأة المسكينة أصيبت بالجنون خلال ذلك المشهد المرعب. وظلت على تلك الحالة إلى أن وافتها المنية بفرنسا حيث أعادها جدي. وما زال أحد أقاربي الشيوخ يتذكر هذيانها وهي تلعن (كارولين) وزوجها الحقير.

(2) (Voltaire, Zadig).

وكأنني أدعوه للبقاء:

– ربما وافتني المنية هناك يا عزيزي (أنطوني). فأجابني صائحاً:

– أنت؟ هل نسيت بأننا نحن– معشر الشعراء– بتماهينا المستمر مع الأشياء الخالدة، نساهم في حيويتها وديمومتها؟ إننا نتوفر على قوتين لمواجهة الموت، وهما: جهدنا المثالي والحب.

ذلك أن من يشعر ببرد المنيَّة سريعاً

هو الذي لا يشتغل أبداً، أو لا يحب بتاتاً.

عقبت عليه قائلة:

– هل هذان البيتان من إبداعك؟ فأنت الوحيد الذي يحسن قول الأشياء العظيمة ببساطة

تمسك بـ(الدربوز)، ونزل الأدراج بصعوبة، وعندما بلغ أسفلها صاح:

– إلى الغد! سألقاك بمحطة (ليون)؛ إذا ما تمكنت من الوقوف على رجلي.

وفي الغد، كنا نأمل– أنا وابنتي– في ملاقاته قبل الرحيل، وخمنت أن هذا الصديق الوفي– الذي لم يفارقني طوال سنوات أفراحنا وأحزاننا– قد يكون على شفا الموت؛ إذا لم يحضر في هذه اللحظة.

وأشير إلى أن (أنطوني) عرف ابنتي وهي طفلة، مثلما عرفها (بيرنجي) (Berenger) و(ألفريد دوفينيي) (Alfred de vigny) و(ألفريد دوموسي) (Alfred de Mussset)؛ وتمنى مثلهم السعادة لهذا الكائن الصغير والمحبوب، بوساطة أبيات شعرية مؤثرة. وكبرت الطفلة، وأصبحت يافعة وشابة ثم أماً؛ وكانت تجد هذا الشاعر اللطيف محباً وطيباً دوماً، يرضخ شموخه لكل رغباتها؛ مثلما يفعل ألطف جدٍّ.

وأنا أعتقد– كما الإغريق– أن هناك تأثيراً لهذه القرابات الثقافية التي توزع أمانيها على مصير بدأ مسيرَه. وإذا كانت طفلتي الوحيدة لم تتعرض إلى الآن لأي مصاب جلل؛ فذلك لأن أروع عباقرة هذا القرن ابتسموا فوق مهدها؛ ولأن أعظمهم جميعاً– وهو (فكتور

هوجو) (Victor Hugo)- باركها بـ(غرنيسي) (Guernesey)؛ فهناك روح طيبة وقوة حامية، تنبعثان من الكائنات السامية التي لها نفوذ على الإنسانية. إنهم القديسون الحقيقيون والحكماء الوسطاء الذين يتعيَّن الإيمان بهم.

وصلتُ إلى (مرسيليا) وأنا منهكة من جرّاء تعب الأيام السابقة وانفعالها. ولزمت الفراش طوال يوم 8 (أكتوبر)، ولم أغادر الفندق إلا في اليوم التالي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، واتجهت إلى ميناء (جولييت Joliette) لركوب السفينة البخارية (لوموريس). وكان ظهر السفينة ممتلئاً بالركاب الذين يصطدمون بالحمّالين المرسيليين المنشغلين بوضع أمتعتنا هنا وهناك؛ وهم يصرخون، ويشتمون بطريقتهم المعتادة. وسارع أكثرنا يقظة إلى اختيار مقصورته منذ صعوده إلى السفينة؛ أما أنا ففضلت- بفعل ميل لا يقاوم- الرضوخ لما يستهويني قبل التفكير في ما يفيدني. فقد كانت حركة الميناء تهمني، وبقيت واقفة أتتبع حركات من سيرافقونني في السفر.

لكنَّ حياتي المفْعمة بالأسفار وبالعزلة جعلتني غريبة عن أغلب هؤلاء الناس. و(تيوفيل (غوتيي)) (Théophile Gautier) الذي زارني مراراً عندما قرر في لحظة ضعف- لأول مرّة- أن يكون عضواً في (الأكاديمية) الفرنسية، بدا وكأنه لم يتعرف إليّ. و(شارل بلان) (Charles Blanc) الذي عيِّن مؤخراً بالمعهد؛ تذكر بأدب أنه رآني في (لندن) رفقة أخيه الشهير الذي ظل صديقاً لي. وقد تبادلنا بعض الكلمات الودية، وتحدث لي عن بعض المدعوين الذين لم أكن أعرفهم؛ ومن بينهم الرسام (فرومنتان) (Fromentin) والرسام (الكاريكاتوري) (دارجو) (Darjou) والكيميائي الشهير (برتولي) (Bartholet) والدكتور (بروكا) (Broca) والصحافي (يونغ) (Yung) من جريدة «النقاش» و(فرني) (Fernet) من جريدة «الزمن» و(لامبير) (Lambert) من جريدة «المعلم الكوني» و(فلوريان فرعون) (Florian Pharaon) من جريدة «فرنسا» و(أوجين طاربي) (Eugène Tarbé) من جريدة «الغالي Le Gaulois». وتعرفت إلى (فرانسوا لونورمان) (François Lenormant) مدير جريدة «المراسل»، وهو شخص ضخم لا يتوقف عن الابتسام، وكان هو المبادر بالسلام علي. واستدرت لأصافح الشاب الرشيق (بيشو) (Pichot) ابن (أميدي (بيشو)) (مدير المجلة البريطانية) ومواطني (البروفنصالي) الطيب، وهو ابن المعمودية لأحد أعز أقربائي، وقد نزل ضيفاً عليه بمدينة

(آرل) (Arles)، وتسلّم منه رسالة تخصني. وكنت قد خاطبته ضاحكة:

- إنني أعول عليك أنت و(كميل بيلتان) لمساعدتي إذا ما حصل لي مكروه.

فأنا أومن بأن تعاطف الآباء يستدعي لطف الأبناء؛ غير أن التقاليد الأدبية تغيَّرت على مدى جيلين، وكان من الصعب على المرء التمييز وسط الحشد الموجود على ظهر السفينة.

لكن مجموعة من النساء الأنيقات استطعن لفت الانتباه، ومن بينهن سيدة أصغرهن سناً وأجملهن وجهاً، وهي عقيلة (شارل دو لسيبس)، التي كانت متجهة إلى مصر رفقة زوجها وأخيه (فكتور)؛ للالتحاق بالأب العظيم البطل المسالم ونجم الحفل الكبير الذي سنحضره جميعاً. وقد أضفت هذه المرأة الحيوية الذكية؛ والمرح والجاذبية على أجواء العبور. ولأنني أعرف زوجها باني قناة السويس، حيث سبق أن التقيته بـ(باريس)؛ فإنه عرفني بها في أثناء انعطاف السفينة جانباً.

يبدو أن منظر الميناء الجديد (جولييت) غير جذاب؛ فإذا ما نظرنا جهة المدينة؛ فإن رؤيتنا تقتصر - في المستوى الأول- على نصْبين ضخمين في طور البناء، وهما (كاتدرائية مرسيليا) ومطعم (لاروسير) الجديد[1] اللذان يفتقران إلى أي طابع فني. وفي الحقيقة، لم يكن أحدهما يتميز من الآخر؛ لذلك حوّلت نظري سريعاً لتأمل الأفق، جهة البحر. كانت الجزيرة القاحلة التي يوجد بها حصن (إيف) (If) بارزة وسط المياه الهادئة. ويبدو للرائي من خلال نور الشفق الوجه المتعضن (لميرابو) (Mirabeau) مهدِّداً وجاثماً فوق هذا السجن القديم. هناك تحول الرجل الطائفي إلى مدافع عن الشعب، والفاجر المتهتك إلى زعيم شعبي عظيم.

وأنا لا أستسيغ قيام (ألكسندر دوما) (Alexandre Dumas)- بخياله البسيط المبتذل في الغالب- بوضع بطله المتخيل في رواية (مونتي كريستو) (Monte Cristo) بدل هذا النزيل الخالد والحقيقي لحصن (إيف). لقد أدى اغتصاب الرواية للتاريخ؛ إلى إثارة اهتمام الحشود بالشخصيات المتخيلة وجهلها لأسماء الرجال العظماء الذين برزوا في تاريخنا. فمنذ صدور هذه الرواية- الشهيرة على أي حال- كان زوار حصن (إيف) من المسافرين- وخصوصاً

(1) تحول المطعم القديم الذي كان يحمل الاسم نفسه في تلك الفترة إلى (فيلا) منحتها سلطات المدينة للأمير الإمبراطوري.

النساء- يطلبون من الحارس أن يفتح لهم زنزانة (مونتي كريستو). وطبعاً كان الحارس يلبي طلبهم دون أن يبدو عليه أي تأثر من طغيان هذه الأسطورة التي تدرّ عليه إكراميات محترمة. وإذا ما حاولتم أن تطلبوا من الرجل نفسه أن يريكم الزنزانة التي سجن بها (ميرابو) حيث تأمّل تحت هدير العواصف في تحرر (فرنسا) والعالم؛ فإنني على يقين بأنكم ستسمعون الإجابة نفسها التي تلقيتُها في (نابولي) من الحارس، عندما كنت أبحث في حصن البيضة عن الحفرة الرطبة المظلمة التي عانى (كمبانيلا) (Campanella) بداخلها مدة أربعين سنة، ألا وهي: «إننا لا نعرف هذا الرجل».

لقد كانت الأصوات المحيطة بي ممتزجة بأصوات الموْج، وكنت أشعر بنفسي وحيدة وسط هذا الحشد؛ وبدأت أتخيل المصير المأساوي لكل أولئك الذين كافحوا من أجل الإنسانية. وفجأة استفقت من تخيلاتي؛ بسماع عبارات ذات نبرة مرسيلية فظة وحادة وغير محتملة من قِبل كل من عاش بـ(باريس). وكانت صادرة عن امرأة شابة، ومما جاء فيها: «نعم يا سيدي، يمكنكم أن تسخروا مني، فقد زرت البارحة مقام سيدتنا (دو لاغارد) (Notre dame de la garde) ليكون سفري ميموناً؛ ثم زرت حصن (إيف) لرؤية زنزانة (مونتي كريستو)».

كان الكلام موجهاً إلى ألماني ضخم بلحية صهباء، وهو صحافي بـ(فيينا). وشرعت في الضحك من هذه المصادفة بين ما سمعته وما كنت أتخيله. استدرت نحو المرأة، فتحول ضحكي إلى ابتسامة متعاطفة. كانت تمسك بيدٍ طفلاً سميناً عمره سنتان، وترضع آخر لا يتجاوز عمره بضعة أشهر. وكان هذا الأخير مدثَّراً بشالٍ من الصوف الكشميري الأحمر؛ ويبدو من خلال تكوينه أنه سيكون قوياً مثل أخيه. وكان منظر الطفلين الضخمين يتناقض مع الجسد الهش لأمهما التي لم يكن طولها يتجاوز طول فتاة في الثانية عشرة من عمرها. وكانت تلبس قميصاً صوفياً بخطوط دقيقة حمراء وزرقاء وسوداء؛ ويظهر من خلاله ثديها الأسمر والأملس الذي يبدو أن رضيعها كان يجد فيه حليباً وافراً، مادامت بعض القطرات تبرز كاللآلئ بجنبات ثغره المورد. ولم تتوقف المرأة عن تحريك ذراعيها النحيفين الأسمرين داخل أكمام واسعة؛ ويلاحظ الرائي بمعصميها الناعمين أسورة من الذهب العربي الخالص، وبكل أصبع من أصابع يديها الرقيقتين خواتم مرصعة وبرجليها- الشبيهتين برجلي إسبانية- جوارب من الحرير الأبيض وخفّان من الجلد المخْملي المطرز بالذهب والمرجان. وكان

فستانها الذي تتحرك أطرافه مع الريح؛ مثبتاً عند العنق بعقد مكون من قطع ذهبية تحيط به ثلاث مرات؛ ومن الأذنين كانت الخرص تصدر صوتاً شبيهاً بالرنين. أما رأسها فكان يبرز وسط هذه الحلي بشكل لا يتناسب وجسدها الهش؛ نظراً لقوته وصلابته. ومن فمها الدقيق والضاحك باستمرار؛ كانت تبرز أسنان طويلة بعض الشيء، لكنها بيضاء كاللؤلؤ. ويشعرك أنفها المعقوف بمنخريها المرتعشتين بأنها من أصول يهودية برتغالية، ممزوجة بدماء عربية. وهذا الأنف الدقيق من أعلى– والذي يفقد الوجهَ جمالَه عند الكبر– يفصل بين عينين سوداوين كبيرتين بأهداب بنية ثقيلة. كان الوميض يشع منهما إلى درجة أن المرء ينجذب نحو شعلتهما القوية على الرغم من كون النظرة تعبّر عن النهم الحيواني أكثر من تعبيرها عن الانفعال أو الذكاء. أما جبينها فكان محاطاً بحاجبين كثيفين وبشعر متموج بشكل رائع تم جمعه بوساطة دبوس إيطالي يسمى «سباضا». وإذا أضفنا إلى طريقة جمع الشعر هاته طول كعب الحذاء؛ فسنكتشف أن طولها زائد بحوالي الثلث.

وفي الحقيقة، هناك جاذبية غريبة منبعثة من هذه المرأة الصغيرة الحجم التي لا تشتمل على جمال حقيقي، ولا على انسجام في الملامح، ولا على رشاقة في الأطراف، لكن لديها عيون وشعر قلَّ نظيرها في العالم.

بيد أن عين الفنان لن تنخدع بهذا الانجذاب العابر المرتبط بالشباب؛ ويمكنها أن تتصور كيف سيتحول هذا الجسد النحيل وهذا الوجه ذو الأنف الكبير إلى عجوز شمطاء في المستقبل. على كل حال، تتميز هذه المرأة الآن بالحيوية والمرح، وتقبّل رضيعها على خديه بكثرة مما جعلني أبتسم لها كأم، متذكرة أحفادي من ابنتي.

وقد همت بمخاطبتي، لكن جرس الإعلام بالعشاء دقّ، فتسارع كل الركاب الموجودين على ظهر السفينة إلى السلم المزدوج المؤدي إلى القاعة الكبرى بالسفينة. وعند سماع الجرس رفعت المرأة الشابة ابنها الأكبر بذراعيها النحيفين والقويين مع ذلك، ووضعته على كتفها، ثم احتضنت رضيعها النائم، على هيئة عذراء (موريلو) (Madone de Murillo). وبينما هي منهمكة في ذلك؛ تحرَّر شعرها من الدبّوس، وتناثر؛ ليبلغ قدميها مثل حجاب أرملة. فانبهر الصحفي الألماني، وأراد حمل أحد الطفلين. لكنها رفضت بمرح، وقالت:

– ما عليك، الرجال لا يعرفون التعامل مع الأطفال. وإذا أردت أن تكون لطيفاً معي، فابحث لي على خادمتي الزنجية (نورما) (Norma)، واطلب منها أن تهيئ لي عشاء جيداً قرب مقصورتي؛ فأنا جائعة مثل لبؤة، أي مثل كل مرضعة.

كانت سفينة (لوموريس) من أكبر سفن (الإمبراطورية)، المكلفة بنقل البضائع والمراسلات. وبمناسبة الاحتفالات المزمع إحياؤها؛ تمت الزيادة في الخدمات بالسفينة وفي نظافتها وأسباب الراحة فيها. وتكلف القبطان (فردريك ريغودي) (F. Rigodet) بتلبية حاجيات المدعوين من كل الأقطار، المتوجهين إلى الإسكندرية. هكذا وُضعت ثلاثة صفوف من الموائد الفاخرة على طول القاعة الكبيرة بهذه السفينة الرائعة. وكان نور الشموع المنعكس على زجاج الجَنَبات يزيد من لمعان أواني البلّور والفضة. واندمجت الروائح الزكية للأزهار وللفواكه الموضوعة بالسلال، مع الرائحة الشهية للأطعمة النادرة. فما كان بإمكان أفضل مطعم بـ(باريس) تقديم عشاء أفخر مما تمّ تقديمه للذوّاقين الموجودين بالسفينة؛ وكان عددنا مئة وخمسين مسافراً، أغلبهم من (فرنسا)، إضافة إلى الألمان والإسبان والبرتغاليين والهولنديين والبلجيكيين والنروجيين إلخ... وكنت أتوسط (شارل دو لسيبس) وقبطان السفينة؛ وبفضل الهواء المسائي المنعش الذي استنشقناه على ظهر السفينة، شعرنا بـ«جوع المرضعة» الذي ذكرني بالأم الشابة؛ فبحثت عنها من دون جدوى. وسألت القبطان عن أحوالها، فأجابني ضاحكاً:

– يا لهما من عينين! ويا لها من امرأة صغيرة وغريبة. إنها يهودية من (مرسيليا)، ومتزوجة بتاجر إسكندراني غني. وقد سافرت مراراً عبر سفينتي، وأؤكد لك أنها جديرة بالاهتمام. ولأنني لم أتمكن للأسف من تخصيص مقصورة لك وحدك؛ فقد عدّت أن رفقتها ستكون ممتعة لك.

– هذه خيانة لي أيها القبطان؛ فالصبيان لن يتوقفا عن البكاء طوال الليل.

– اطمئني! الأم والطفلان سينامون بعد ساعة من الآن وستجدينهم غارقين في نومهم عندما تأوين إلى الفراش.

لم يكن باستطاعتي الاحتجاج؛ فقد كنا نستمتع بأجواء الراحة والنشاط الناجمة عن عشاء

فاخر ونقاشات حامية؛ لذلك استسلمت للمرح السائد بالقاعة. لقد انطلق السفر في أفضل الظروف وأسعدها؛ وكانت الليلة هادئة، والسماء متلألئة بالنجوم، فاقترح الدكتور (بروكا) علينا– بعد تناول القهوة– القيام بجولة على ظهر السفينة لمساعدة المعدة على الهضم. وأشعل الرجال (السيجار) في حين أحاطت النساء أجسادهن بمعاطفهن. وعندما هممتُ بجلب بُرْنُسي من المقصورة التي وضعت بها حقائبي؛ التقيت في الممرّ المرأة اليهودية جالسة فوق زربية وثيرة وشعرها مسترسل وراءها، إما بفعل الإهمال وإما الدّلال. كانت تأكل بشهية بالغة وبجانبها خادمتها الزنجية التي تسقيها، وتضع أمامها الصحون التي يقدمها خادم بالسفينة. وكان الابن الأكبر نائماً قرب أمه ووجهه ملطخ ببقايا كعكة بالقشدة، في حين ظل الطفل الرضيع يمتص بنهم الحليب المنبعث من الثدي الأسمر والرخو. وغنت الأم بتلقائية هذا المقطع؛ وكأنها بمنزلها بالإسكندرية:

اشرب يا ملكي الصغير

جيداً، جيداً، واسكر

فاللحم والخمرة لدي

يصنعان الحليب لك

وعند اقترابي منها، حيَّتني قائلة إنها علمت بأنني سأكون رفيقتها بالمقصورة؛ وبأنها مبتهجة لذلك، وتتمنى أن أكون محبّة للأطفال. فأجبتها:

– أي نعم! شريطة أن يناموا دون مشاكل.

وردت المرأة قائلة:

– لقد نام الطفلان فعلاً، فهما حملان وديعان.

وعندما غادرت المقصورة؛ وجدت الصحفي الألماني بجوارها، وكان يقترح عليها القيام بجولة على ظهر السفينة. لكنها امتنعت قائلة:

– سأستحق العقاب إذا ما عرضت طفلي لضربة برد. وتابعت عندما رأت أنني أختنق في

الممر، وأترنّح وعلامات الشحوب بادية علي:

- بالمقابل، عليك أن تقدم يد المساعدة للسيدة.

واستجاب الألماني الضخم لطلبها، وكان يدمْدم بحركة آلية وهو يجرني إلى السطح:

- يا لهما من عينين! يا لهما من عينين! إنهما لا ينظران إليك، بل يلتهمانك.

فقلت له:

- إنهما عينا نمِرة تعبد صغارها؛ ولا أعتقد أن هناك مكاناً في قلبها لشيء آخر غير الحب الأمومي.

لكنه رد علي قائلاً:

- ربما! وتستحق مني- ربما- هاته القيام بمحاولة. وتركني لمتابعة سرابه بعد أن أجلسني على مقعد؛ وبعد هنيهة عاد بخفي حنين، وخاطبني قائلاً:

- لقد استغرقت في نومها. إنني أحسدك؛ لأنك سترينها وهي نائمة بشعرها المنشور فوق الفراش. وأجبته قائلة:

- أخشى أن يفسد علي صراخ الصغيرين هذه المتعة.

كانت عقارب الساعة تشير إلى الثامنة والنصف ليلاً، وأصبح الهواء بارداً، لذلك تعيَّن المشي بسرعة على ظهر السفينة؛ حتى لا يصاب المرء بالقشعريرة. وكان الرجال يتدفؤون بـ(السيجار) أو (الغليون) الموضوع بفمهم، كما أن بعض النسوة كن يقلدن الرجال بتدخين (سجائر) تركية. وفجأة هبت ريح قوية، وكبر حجم الأمواج تحت السفينة، وظهرت هاته الأمواج في الأفق من الجنوب الغربي كالتلال.

سألت ربان السفينة:

- هل ستهب العاصفة؟

لكنه طمأنني قائلاً:

- لن تكون هناك عاصفة، بل رقصة صغيرة فقط.

ودخلنا خليج (جنْوة)، وهو خليج عاصفي يُسمع فيه هدير الرياح. وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه الصفحات- أي في نهاية (أكتوبر) -1873 أشعر عند مروري بهذا الخليج بقوة الرياح نفسها التي تلمَّستها منذ أربع سنوات عند توجّهي إلى مصر.

وعند الساعة التاسعة والربع أجبرتنا الرياح والبرد على النزول إلى القاعة الكبرى التي كانت مضاءة على نحو جيد، والتي كنا قد تناولنا فيها عشاءنا. واستلقى الأشخاص المتعبون على الأرائك في حين شرع أكثرهم مقاومة في كتابة الرسائل التي ستودع ببريد (ميسين) (Messine). كان مراسلو الصحف يواجهون قلقهم ببسالة؛ فالصحفيان (يونغ) و(فيرني) كانا يكتبان على الطاولة نفسها، أما (أوجين طاربي)- وهو شاب أمرد ممتلئ الخدّين وفي العشرين من عمره- فقد بدأ يغني بمرح على نغمات (البيانو)، دونما اهتمام بالأخبار التي يتعين عليه إرسالها إلى جريدة «الغالي»، وهي المهمة التي أوكلها لرسام (الكاريكاتور) (دارجو)؛ خلال مدة السفر تقريباً. وكان (فلوريان) و(لامبير) يكتبان بسرعة دون توقف. أما الشاب (بيير (بيشو)) فقد دلّني على (كميل بيلتان) الذي كان منزوياً في أكثر الأركان ظلمة وكأنه لوحة حية من لوحات المدرسة (الفلامانية). يبدو جسده النحيل والطويل وكأنه يتحرك داخل (سروال) واسع وسترة غريبة يحيط بها حزام من الصوف البني. وقميصه كان مفتوحاً ومفروكاً، وربطة عنقه موضوعة بشكل فوضوي؛ وفوق رأسه وضع قبعة مثيرة ذات لون أبيض متسخ، وهي مثل صحن السلطة الخزفي، تغطي شعره البني وتسمح بظهور خصلاته الناعمة. وكان جبينه الأملس والصافي- الذي يظهر ذكاء الرجل- منوراً بعينين سوداوين رائعتين مثل عيني أبيه. ويشكل أنفه المستقيم وشفتاه المزمومتان اللتان تمسكان بـ(الغليون) تناقضاً صارخاً مع هذا الوجه ذي الجمال الإغريقي.

كانت السخرية والفطنة تشعان من هذا الجسد المتميز، بحيث يمكننا من خلالهما تصور مقالاته بجريدة «التذكير Le rappel». لقد جعلته هذه المقالات المتسمة بالحيوية والغرابة من أبرز محرري هذه الجريدة. وكنت أشاهده وهو يكتب رسالته الأولى حول السفر إلى مصر بسرعة مذهلة.

لقد وقعت أحداث رهيبة منذ تلك الفترة، بيد أنني لم أتمكن من قراءة الرسائل المنشورة بالجرائد من قِبل رفاقي في السفر. وأنا لا أعرف هل تم جمعها في مجلد أم لا. لكنني متأكدة من أن كتابات (كميل بيلتان) قد وصفت بدقة بارعة كل غرائب هذه الأرض العريقة. وكلما ملأ (كميل) ورقة بيده المتوترة؛ أفرغ كأساً من (الكونياك) في جوفه لإبعاد الغثيان الذي يسببه تمايل السفينة. ومن ورائه كان (ثيوفيل غوتيي)، القاعد فوق ركام من الوسائد، يشجعه بنظرته الهادئة وقد بلغ شحوبه حدّاً مريعاً؛ ويعتقد الناظر إليه كأنه أمام قناع من الشمع؛ بسبب انتفاخ جفنيه وتورم ملامحه. ولم يكن يكتب شيئاً، كما لم ينبس بكلمة، وكانت شفتاه تبدوان وكأنهما غير قادرتين على الإمساك بـ(السيجارة). وفجأة نهض دون أن يشتكي، وتوجّه بمشيته البطيئة، وحركته الوئيدة المميزة له نحو السلالم المؤدية إلى المقصورات؛ وعندما اقترب من بعض أصدقائه قال لهم: «أنا ذاهب للنوم».

عند الساعة العاشرة، كنت مازلت أكتب بحماسة الأوراق الأخيرة لرسالتي الأولى، وكان جميع الصحفيين تقريباً من حولي قد أنهوا عملهم. استلقى الكثيرون فوق الأرائك وهم يدخنون، في حين التحق البعض الآخر بالمقصورات. أما الشبان؛ فإنهم قاوموا النوم والقلق الناجم عن دوار البحر، وشرعوا في الضحك والغناء والقفز. وعزف (أوجين طاربي) على (البيانو) مقطوعة موسيقية هجينة تجمع بين لحن (المارسييز) (Marseillaise) ولحن آخر بعنوان «الذهاب إلى سورية». وفجأة نادى (كميل بيلتان) الذي كان قد انتهى من كتابة رسالته، ومدّ ساقيْه وذراعيه لاسترجاع بعض الحيوية، وخاطبه قائلاً:

– هل سترقص (الفالس) مع (دارجو)؟

وأرفق كلامه بنغمة من نغمات (المارسييز)؛ فأمسك (كميل) الرشيق بالرسام (الكاريكاتور)ي الذي كان رأسه يكاد يصل إلى كتفه، وأجبره على الرقص. لكن تمايل السفينة كان من القوة بحيث دحرجهما معاً فوق الأريكة. فنهض (كميل بيلتان) بوقار، واستأنف التدخين والشرب. أما (دارجو) الذي اندهش من الصخب الذي أثاره سقوطه؛ فقد نهض هو أيضاً وزرَّر سترته بمهابة. وكان الصحفي الألماني و(بيير (بيشو)) جالسين إلى المنضدة التي كنت أكتب عليها. فقلت لهذا الأخير:

– لم لا تأتِ بـ(بيلتان)، فأنا أريد التعرف إليه ومصافحته، وأنت تعلم أنني أعول عليكما معاً– كما وعدني أبواكم– إن حصل لي مكروه.

وفعلاً قدم الشاب (كميل) بسرعة، وقال لي دون أن يرفع قبعته الغريبة:

– لست أدري ما إذا كنا سنتفق في مجال الأدب؛ ومهما يكن الأمر، لك أن تعتمدي علي حتى لو كنت أحتضر.

ثم استلقى ثانية على الأريكة. فدمدم الصحفي الألماني الذي كان يحمل ربطة عنق زرقاء أنيقة، وكان شعره مدهوناً ومرتباً بشكل منتظم رغم الرياح العاصفية، وقال لي:

– إن الأدباء الفرنسيين يفتقرون إلى اللياقة.

وفجأة تعالت الأصوات من داخل القاعة المؤدية إلى المقصورات. فجرى (فلوريان) باتجاهنا وقال لنا بصوت يشوبه الجزع والمرح في الوقت نفسه:

– إنكم مرتاحون هنا، ألم تسمعوا بما حدث؟ لقد حدث كسر بكتف (ثيوفيل غوتيي)، وقلت ملاحظة:

– وهل في هذه الحادثة المؤلمة ما يضحك؟

فأجابني:

– طبعاً إنني أتألم لما وقع. لكن أمراً مضحكاً رافق الحادث، ويستحيل ألا يثير الضحك؛ وعليك أن تحكمي على هذه اللوحة المأساوية و(الكوميدية) في آن.

عندما غادرنا (غوتيي) سقط بالسلالم المؤدية إلى المقصورات بسبب تمايل السفينة، ونهض دون أن يشعر بالألم. وقبل النوم ذهب إلى دورة المياه، لكنه عندما أراد إحكام ذلك الجزء من لباسنا الذي لا تريد الإنكليزيات تسميته؛ لم يتمكن من تحريك ذراعه. وكنت مارةً بالقرب من باب دورة المياه، فسمعته يصرخ:

– إليَّ (بلامبير)، أين أنت يا (لامبير)!

واعتقدت أنه يكرر المزحة التي ذاعت في كل (باريس)، فصحت:

- (غوتيي)، ما الذي دعاك إلى الضحك؟

- لكنني لا أضحك! إنني مجروح، وأنادي على (لامبير). ادخل. وأدركت أن الأمر يتعلق بـ(لامبير) الصحفي بجريدة «المدرب»؛ وأرسلت في طلبه. ثم ساعدت (غوتيي) على زرّ سرواله وعلى الوقوف. وأعتقد أن الدكتور (بروكا) يُخضع الآن شاعرنا الكبير لعملية جراحية.

عند سماعنا لهذا الخبر المؤلم غادرنا القاعة من أجل معرفة حالة المُصاب. وكان الدكتور (بروكا) قد وضع ضمادة على كتف (غوتيي) الذي ازدادت حرارته، وتعقّدت وضعيته بسبب دوار البحر؛ فكان أن اقترح الدكتور أن يغادر الشاعر السفينة عند الوصول إلى (ميسين).

قال (طاربي) الضخم وهو يئن:

- سأنزل أنا أيضاً.

أحسست بالرغبة في التقيّؤ. عندئذٍ هبت العاصفة بقوة، فترنحنا جميعاً. واحتار المكلفون بالمقصورات من كثرة الطلبات؛ وقدموا الأولوية لمن هم في أمس الحاجة إليها، وصاح صوت يتخلله الفواق:

- لقد سئمت من أرض مصر!

فرد عليه (دارجو):

- هيه! وماذا عن الأهرامات؟

فصرخ (طاربي):

- إن أربعين (طستاً) للتقيؤ تنتظرنا.

وكان الأشخاص الذين يعانون دوار البحر أكثر من غيرهم؛ يحاولون النسيان عن طريق الضحك. أما أنا فقد وصلت إلى مقصورتي بصعوبة، بعد أن تمسكت بجنبات الممر. ووجدت الأم اليهودية نائمة مع طفليها، حيث كان الرضيع ممسكاً بثديها؛ والطفل الآخر ممدداً عند رجليها على الفراش نفسه. واستلقيت فوق الفراش الموازي لها وأنا أحاول التخلص من

الألم؛ متخذة وضعية الجثة الهامدة. وفكرت في ابنتي وأحفادي الأعزاء، وشعرت بالحنو وأنا أنظر إلى المرأة النائمة؛ عاقدة العزم على مساعدتها، وأنا أعتقد أنها ستقوم بالمثل. وعندما بدأ النوم يغالبني؛ استيقظ الابن الأكبر وهو يصرخ. فخاطبته أمه قائلة:

– اسكت يا (نيني) (nini)، إنك ستوقظ (كوكو) (coco). لكن (نيني) استمر في الصّراخ وهو يضرب برجليه الصغيرتين حضن أمه:

– إنني أريد لعبتي، وأريد (الحلوى) (nanan).

واستيقظ الصغير، وأصدر أصواتاً شبيهة بصوت الطاووس. خاطبتني اليهودية قائلة:

– إنك سعيدة؛ لأنك مرتاحة في نومك.

وكدت أضحك من هذه المبالغة، لولا أن دُوار البحر جعلني مسمَّرةً بمكاني؛ فقد ازدادت العاصفة قوة، وزاد معها تمايل السفينة.

وكرّر (نيني) المعاند طلبه بصوت حاد، وصعد فوق كتف أمه باحثاً عن خيط اللعبة. وما إن حصل عليها حتى رماها، وصرخ بصوت أعلى:

– أريد الحلوى، أريدها، أريدها.

فأجابته الأم:

– اسكت يا (نيني)، إن صندوق الحلوى غير موجود.

– ابحثي عنه، إنني أريدها، أريدها!

خاطبتني المرأة قائلة:

– إذا لم تساعديني على تهدئته؛ فإن الأمر سيدوم حتى الصباح.

– وما الذي يمكنني فعله؟ إنني عاجزة عن القيام بأي حركة يا سيدتي.

فردت قائلة:

– إذا كانت لديك حلوى، فناوليني إياها؛ لكي يصمت.

فقلت:

- بكل فرح! خذي حقيبة السفر بأسفل الفراش، وستجدين فيها حلوى وكعكات (كستيل مورو) (Castel muro).

وعقبت الأم قائلة:

- إنها أفضل من كعكات (باريس)؛ وإذا ما سمحت لي فإنني سأتناول بعضاً منها؛ لأنني أحس بالجوع من جديد. قلت لها بين حركتي تشنج متبوعتين بالتقيؤ:

- خذيها كلها، فإنني أكره الحلويات.

وتمدَّدت فوق الفراش بلا حراك، في حين كانت هذه الأم المثالية تلتهم بتلقائية- هي وابنها- الحلويات التي أهداها لي أصدقائي بـ(مرسيليا). وعندما شبع (نيني) من الأكل؛ أراد أن يشرب، فقالت الأم:

- إن الماء الصافي يضره، وأعتقد أنني رأيت بحقيبتك زجاجة من الشراب المحلي.

- إنها زجاجة نبيذ مالقة.

- هل تسمحين لي ؟

-بكل سرور!

فتحت الزجاجة، وملأت قدحاً فضياً عن آخره، وأفرغت نصفه هي و(نيني). بعد ذلك قالت:

- والآن، أنا متأكدة من أنه سينام نوماً عميقاً. ووضعت الطفل عند رجليها، وتابعت حديثها:

- جاء دور (كوكو)، فهو لا ينام إلا إذا سمع الأغنية التي يحب.

قالت ذلك وهي تهدْهد الطفل الذي يمتصّ ثديها كعلقة. وبصوت صادح ورنان غنت هذا المقطع البليد المخصوص للرضع، وهو:

أخذ (كوكو) قبقابه

وأخذ بابا منجاره

لن أبحث عن معنى هذه اللازمة البليدة التي ظلت على مدى أسبوع تتحرّش بنومي، وتثير أعصابي، وهي مازالت ترن بصماخ أذني وأنا أكتب هذه الكلمات. وفي الأخير، توقف (كوكو) عن الأنين، وتوقفت أمه عن الغناء، ثم أغلقت عينيها السوداوين الكبيرتين، المصدر الوحيد لإشراق وجهها. لم يعد شعرها الغزير الذي جمعته تحت منديل من القطن يغطي ملامحها غير المتناسقة. اندهشت من قبح هذه الملامح؛ فقد كان الذقن البارز والشفتان المتدليتان والأنف المعقوف والجبين المنحني؛ كان كل ذلك يعبر عن الطمع والأنانية. وخارج الحنان الجسدي والحيواني الذي تكنُّه لابنيها، نحس بأن الرحمة تجاه آلام الإنسانية لم تغزُ قلبها يوماً. فمن المؤكد أنها تضرب أَمَتها، وتستغل همجية القوانين التركية لاستعباد الفلاحين الذين يخدمونها. ولأنها محبَّة للبذخ وللشهوات مثل خلاسية؛ فإنها كانت تفضل الحلي والمآكل الشهية. ومن الممكن أن تكون مبذرة؛ حباً في الظهور، لكن بخلها سرعان ما يظهر عندما يطلب منها بئيس صدقة.

كنت أقرأ غرائز هذه المرأة بوضوح على وجهها الجامد. وربما لن يجد فيها الملاحظ السطحي سوى أمٍّ حنون. لكن الطيبوبة تجاه ذوينا لا تعني الطيبوبة تجاه الجميع. فمصالح الأسرة تتم دوماً تقريباً على حساب المصالح العامة. ولكي يكون الحب الأمومي المخصوص في البداية للأطفال عظيماً ومقدساً؛ عليه أن يمتد، ويشمل العائلة الإنسانية الكبيرة.

لقد لمست مستوى إحساس هذه المرأة المبتذلة خلال معاناتي دوار البحر. فقد كانت تعلق على حالتي قائلة:

– الحمد لله على أنني لم أعانِ أبداً من هذا الدوار الفظيع. فأنا أكون أحسن حالاً بالبحر، بحيث تزداد شهيّتي للأكل.

كانت تحس بالارتياح من عدم إصابتها بالدوار، لذلك فإنها ظلت تنظر إلي بتلك السخرية الهمجية لإنسان متوحش. ومع ذلك فإنها كانت تسعى إلى نيل إعجابي، فخاطبتني قائلة:

– أنا فخورة بمشاركتك هذه المقصورة، فكوني تعرفت إلى كاتبة روائية؛ أمرٌ يشرفني بالإسكندرية.

وحينما لمستُ قسوتها اللاشعورية تجاهي– رغم أنها عبرت لي عن احترامها لي– تساءلت: كيف ستكون هذه القسوة إزاء من تعدّهم أدنى منها؟ إن الانشغال الدائم للأنا لا يحاصر العقل، ويعميه فقط، بل يشل القلب أيضاً؛ إنه منطلق الطغيان البشري كليةً؛ وحينما يمارَس على نطاق واسع دون عقاب؛ فإنه يتحول إلى انتهاك يجسده العديد من الأنظمة الملكية والطائفية الآبدة التي تعززها المعتقدات.

كانت هذه الخواطر تساورني في تلك الليلة التي لم أذق فيها طعم النوم. وكنت أسمع في المقصورات المجاورة ما يشبه زمجرةَ الحيوانات التي يغطيها هدير الأمواج. وفكرت في الشاعر صاحب الأسلوب الأنيق، الذي أصابه ذلك الألم المُخزي. وقلت مع نفسي: إن فكرَهُ انْهار، وإلهامُه استسلم لهذا الجرح الغائر، مثل كل الآلام الجسدية التي تعوق التطور الذهني؛ وبالتالي التقدم الأخلاقي للإنسانية.

وهذا أمر معروف لدى المناوئين للفكر، الذين يقومون– باسم إله ينسبون إليه قسوتهم– بكسر العظام وإحراق الجلود من أجل إطفاء الأنوار الساطعة للعلم داخل ظلمة الأساطير. كل عذاب جسدي يؤدي إلى شَلِّ ملكاتنا وإلى التوقف الاضطراري لاجتهادات فكرنا. وتؤدي هذه التوقفات الحتمية إلى يأس الفنان. فما الفائدة من العذابات المستمرة التي تصيب الإنسانية برمَّتها؟

وكم من المجازر التي لا نعرفها ترتكب في هذه الساعة؟ فيا لنا من كائنات ضعيفة متروكة للعبة الظلام!

كانت أعصابي متوترةً ودماغي يفور من الغضب. وعند منتصف الليل استسلمتُ لنوم عميق ممتلئ بالكوابيس. وما إن بزغ الفجر؛ حتى علا صوت (كوكو) المستبد مثل صياح الديك، وحاولت عدم سماعه بوضع رأسي تحت الأغطية، لكن من دون جدوى. وخاطبتني الأم المتشنجة بنبرة عالية:

– أتمنى ألا يكون هناك ما يزعجك؛ فقد تركناك ترتاحين بهدوء؛ والآن عليك الأخذ

بنصيحتي؛ لأنني أعرف ما يلائم السفر بحراً؛ انهضي، وتناولي فطورك، ثم تجولي على ظهر السفينة.

وخلال حديثنا، مدت ذراعها الأسمر المشعَّر، وضغطتْ على زر الجرس، فدخلت الفتاة المكلفة بالمقصورة؛ عندئذٍ أمرتها الأم الحنون بإيقاظ الأمَة وبتهييء الحمام لابنيها. وشعرت الفتاة بامتعاضي المكتوم، فلاحظت أن المقصورة ضيقة، ولا يمكن أن يوضع بها مغطس مهما صغر حجمه. فقالت الأم:

– في هذه الحالة، سيستحمان في (الطّسْت).

سألتني الفتاة قبل خروجها إن كنت أرغب في شيء ما، فطلبت منها إحضار فنجان (الشوكولاته) الممزوجة بالماء؛ وهو ما فعلته بعد مرور بضع دقائق. لكن اليهودية الشرسة اختارت– بنوع من السادية– اللحظة التي كنت سأرتشف فيها المشروب؛ لتفتح قماط (كوكو) الذي كان ممتلئاً بسائل آخر، بلون مشروبي نفسه، لكن برائحةٍ أجبرتني على التقيؤ.

كان (كوكو) يخبط بيديه ورجليه، ويصرخ داخل (الطست) المملوء بالماء البارد حيث وضعته أمه؛ في حين كان (نيني) الغاضب هو أيضاً؛ يخدش ويعضّ الأمة التي كانت تجبره على الاغتسال كذلك. وفجأة تخلص منها، وقفز نحو سريري الذي توجد به حقيبة الحلوى، ولبَد وهو يرتجف عارياً ومبللاً تحت غطائي. فصرخت الأم:

– أليس هذا الشيطان الصغير ماكراً؟ ألن يكون ذكياً يا سيدتي؟

اضطرني هذا الكلام المزعج إلى الردّ، فقلت:

– اتركيني وشأني يا سيدتي، واهتمي بابنيك!

وجاء رد فعلها متنمِّراً، حيث سحبتْ (نيني) المتشبث برجلي، وقالت:

– يا لهؤلاء النسوة الكاتبات! لقد صدق الناس حينما أكدوا أنهن لا يفقهن شيئاً بخصوص الحب الأمومي.

فانفجرت ضاحكة وإن كنت غير مستعدة لذلك، ونظرت إلى ساعتي دون أن أجيبها؛

لأرى كم من الوقت سيدوم هذا العذاب برفقتها.

ومرّت ساعة قبل أن تنتهي من غسل الطفلين ومن التزيُّن هي أيضاً. وعندما مشطتْ شعرها الطويل، وملّستْ حواجبها براحة يدها، ووضعت عقدها وأقراطها وخواتمها؛ خرجت مرتديةً الشال الصوفي الأحمر، حاملةً طفليها بين ذراعيها. كانت تبدو كممثلة مسرحية، حيث ألقت علي وهي تغلق الباب نظرة (ميلودرامية). وكالعادة، استعدتُ نشاطي بعدما أصبحتُ وحيدة، وزاد الصمت من حيويتي. كانت العاصفة قد هدأت للتوّ وشعاع شمس الخريف الساخنة يضيء أرجاء المقصورة التي هبَّ بداخلها نسيمٌ منعشٌ عبر النافذة المفتوحة. وسارعت بالخروج للاستفسار عن حالة المصابين بدوار البحر، فقد كان (أوجين طاربي) و(كميل بيلتان) من أكثرنا معاناة، وكان كل واحد منا يصعد السلالم بصعوبة إلى ظهر السفينة من أجل استنشاق الهواء النقي. كانت وجوهنا شاحبة وحركاتنا شبيهة بحركات المرضى. وظهر ابن (دولسيبس) مرفوقاً بزوجته الجميلة وعلامات المرح والحيوية بادية عليها مثل البارحة. فالأب العظيم خلصهما من غضب (نبتون) عندما حقق اللقاء بين بحرين. وتحلقت مجموعة من الأشخاص حول (ثيوفيل غوتي) الذي جُلب على مقعد بمساعدة صديقين وقد وضع ذراعه المضمدة فوق صدره وبدت سكينة قوية على وجهه، بفعل شحوب مرمري. كان يتألم دون شكوى، واستسلم ليدي الجراح بطمأنينته المعهودة؛ لأن الألم الذي يبدو من خلال الصياح أو تشنج الملامح يعدّه أمراً مذلاً. وهو يعتز بإخفاء المرض العفوي وتضاؤل القوة باعتبارهما انحطاطاً. وغالباً ما كان يقول لأصدقائه: «سأموت دون تكشيرة ولا هذيان ولا حشْرجة». وفعلاً التزم بما قاله. وقد اندهشنا جميعاً– في ذلك اليوم– من الصرامة المشرقة البادية على وجهه؛ وكان شعره الطويل الممشوط بعناية من لدُن أحد أصدقائه؛ يحيط بجبينه الوضاء. أما نظراتُه الغامقة فكانت تشع أكثر من البارحة، وأصبح وجهه المترهّل والمنتفخ الذي لم تعد ملامحه واضحة؛ مسدوداً بفعل مجهود الإرادة والقلق الناجم عن الألم. بيدَ أن نور الصباح المنعكس فوق رأس الشاعر في تلك اللحظة؛ أعاد إليه شيئاً من جماله الأصلي. وذلك هو حال التماثيل الرخامية الإغريقية المعروضة تحت السماء الرائعة لـ(أتيكا) (Attique)، في بريقها الخالد الذي تخلص من غبار الزمن.

إن هذا الشباب الرائع هو ميزة الشعراء الكبار وأعمالهم العظيمة؛ فوميض الجمال الإنساني

العابر الذي يفنى مع الزمن يظل قائماً في إبداع الكائن العبقري.

استقبل (ثيوفيل غوتيي) الجميع بابتسامةٍ بشوشةٍ وقد أحس باهتمامنا به وخضوعنا لسحره الجذاب. ورغم أنه لم يتعرف إليَّ البارحة؛ حصلتُ منه على نظرة متعاطفة، ومدّ لي اليد السليمة عندما أخبرته أنني كنت سأعرِّفه بنفسي لو كنت قادرة على التحرك والوقوف في تلك الليلة العاصفية الشاقة للجميع. وأجابني بمرح قائلاً:

– إلا بالنسبة إليّ، لأنني أشعر براحة مقدَّسة منذ أن وضع لي (بروكا) هذه الضمادة السحرية، وقدم لي جرعة دواء.

– وماذا عن جرحك؟

– إنني أنساه، من خلال راحة باقي أعضاء الجسد.

– وإذن، فأنت لم تعدْ تفكر في مغادرتنا عند وصولنا إلى (ميسين).

فردَّ علي قائلاً:

– سيكون عدم تحقيق فكرة السفر إلى القاهرة أمراً بليداً، فقد عاهدت نفسي على أن أزور مسجد الحسين، وسأزوره.

كانت هذه العبارات المتبادلة بيننا كافيةً لكسر الجليد. وتحلَّق حول الشاعر صحفيون وفنانون وكتّاب، وكانوا يتحدثون بأصوات مرتفعة ويدخنون بشراهة؛ إلى درجة أن دخان التبْغ غطى رأس (ثيوفيل غوتيي) الذي لم يبدُ عليه التأثر وكأنه إله مصري.

وكنا نتخاطب من دون كلفة، و(نتمازح) (on se blaguait) بحسب التعبير الدارج لأميرة ادعت– خلال السنوات الأخيرة من مرحلة (الإمبراطورية)– بأنها راعيةُ هؤلاء (الرومانسيين) الجُدد المتميزين في الآن نفسه بواقعية فظة. وكانت قد ضمت إلى دائرتها (ثيوفيل غوتيي) وكتاباً آخرين، كانوا لأسباب مختلفة بمنزلة مدّاحي (الإمبراطورية).

إني أعتقد أن الهدف الأسمى للشاعر هو الوجود فوق كل إمبراطوريات العالم. وهذا ما قلته في أثناء السفر لـ(كميل بيلتان) الذي كان إعجابه الشديد بثيوفيل (غوتيي) لا يسمح له

بالتمييز بين موهبته ومزاجه. فـ(كميل) ابن الجمهوري، والذي سيصبح جمهورياً هو أيضاً، استسلم للافتتان الأدبي؛ لذلك دافع عن بعض السلوك الذي كان يتحفَّظ من القيام به هو نفسه.

بيْدَ أن الصحفيين الرسميين الذين أبحروا على ظهر سفينة (لوموريس)؛ كانوا مهتمين أكثر بالشعار المنحاز إلى (الإمبراطورية). لقد كان (ثيوفيل غوتيي) كان في نظرهم بمنزلة الراية المجيدة التي تغطي بضاعتهم البئيسة، والقطعة الأرجوانية اللامعة التي تحجب خضوعهم الوضيع. ولأنهم منتشون بهذا المكسب غير المتوقع؛ فإنهم كانوا يراقبونه، ولا يسمحون لأي مفكّرٍ حرٍّ بالاقتراب منه وجلبه إلى المناطق الخالصة للفن، التي لا يمكن لدناءتهم بلوغها. كانت وظيفة هؤلاء الأدباء التابعين تتلخص في الاعتناء (بثيو) (Théo) وتسليته وخدمته ومدحه، حيث نصّبوا أنفسهم حراساً شخصيين له. وما الفائدة من ذكر أسمائهم هنا؛ ما دام أغلبهم قد اختفوا عند اندحار (الإمبراطورية)؟ هذه الأسماء لن تفيد ذاكرة القارئ في شيء؛ أما بالنسبة لي، فإنها تعيد إلى ذاكرتي وقاحتهم المجانية التي تعرضتُ لها مراراً في الجنبات الضيقة لهذه السفينة حيث كنا نلتقي في كل لحظة.

كنت قد نشرت مؤخراً بجريدة «القرن Le siècle» مقالة ساخرة تحت عنوان «باريس المادة»، انتقدت فيها بعنف رذائل البلاط. وكان أغلب المدعوين لتدشين قناة السويس الذين ينتمون إلى العالم (الإمبراطوري) وإلى الصحافة الرسمية؛ قد اندهشوا عندما وجدوني ضمن تلك المجموعة الصغيرة من الكتاب (الليبراليين) المدعوين إلى تكريم النبوغ. وقد سبق لي أن أشرتُ إلى أنني حظيت بهذا الامتياز بفضل صداقة السيد (ألوري) ولباقة السيد (دولسيبس)، لكنني لم أكن في نظر الصحفيين الرسميين- الذين عدّوا الانتصار العبقري للرجل مناسبة للتملُّق (للإمبراطورية)- سوى شاهدٍ مزعج يتعيَّن تهميشه. ومعلوم أن الفرنسيين يتفنَّنون في مثل هذه الوقاحة المضمَرة التي لا يقدر أحدٌ على مواجهتها، خصوصاً عندما تكون مصالحهم وأنانيتهم مهدَّدة.

وستبرز العلامات الأولى لهذه العدوانية المبطَّنة تجاهي في تلك الصبيحة، عندما كنت أتحدث مع (ثيوفيل غوتيي). على الرغم من أن تمايل السفينة لم يكن بحدَّة البارحة نفسها؛

فإنه كان يستحيل على المرء البقاء واقفاً دون الشعور بقلق رهيب. وللتخلص من دوار البحر؛ قررنا جميعاً قضاء النهار على ظهر السفينة. ولم يظفر الذين التحقوا متأخرين بالكراسي ولا بالمقاعد التي تُطوى. وكنت أنا من بين هؤلاء؛ لكن، ولا واحد من الفرنسيين الجالسين والذين دعوتهم بالرسميين قدم لي كرسيه الذي وضع (الغليون) فوقه أو مدد عليه رجليه؛ مستمتعاً بمجالسة الشاعر الجريح. جلست على الأرضية الخشبية واضعةً مرفقي على حقيبتي الممتلئة بالمواد المنعشة والمقوية. ورنّ جرس الغداء دون أن يستجيب له أحد بالدخول إلى القاعة. ورغم إحساسنا بالجوع فقد كنا نخشى تغيُّر الجو. ولم يكن عدد الخدم كافياً لجلب طعامنا إلى سطح السفينة، لذلك ساعدهم في مهمتهم الرسميون الشباب المتمتّعون بالحيوية. هكذا حملوا معهم الوجبات التي تمَّ توزيعها على أهم الشخصيات. وكان هدفهم من وراء ذلك؛ هو اكتساب ثقة موظفي الدولة (الإمبراطورية) مهما كان الثمن؛ حيث كانوا يقدمون لهم ألذ الأطعمة والأشربة، رغم تعرضهم للسقوط مراراً. كما كانوا يسدون خدماتهم لامرأتين مبتذَلتين سنلتقيهما في رحلتنا بمصر العليا؛ وكانتا تحظيان بالاهتمام المنافق لارتباطهما بالبلاط.

ذكَّرني هذا السلوك بكلمة نارية قيلت في حق أحدهم كان قد بدأ مسيرته في الصحافة (الليبرالية)، قبل أن ينضم إلى المعسكر (الإمبراطوري). وبسبب تقلبه السريع هذا؛ حصل على عضوية مجلس الشيوخ وهو ما يزال شاباً. وعندما قرأ (لامارتين) (Lamartine) الخبر بجريدة (لومونيتور)- وهو الذي كان يرعى هذا الشاب في بداياته الأولى- صاح متعجباً:

- أنا الذي وضعت الريشة (القلم) بين يدي هذا الرجل!

فردَّ عليه صديق له مشهور بالعبارة النارية التالية:

-لا تقل الريشة (plume)، بل قل منْفضة الريشة (plumeau)، وفعلاً فإن (منفضة الريشة) هاته الجاثمة بغرف الانتظار هي التي اعتمد عليها الصحفيون المأجورون لنفض غبار (الإمبراطورية) والتجرؤ على تهديد العقول الأبيَّة.

كنت أستمتع ذلك اليوم بمشاهدة هؤلاء الرسميين التابعين وهم يؤدون خدماتهم في عرض البحر. وبعد أن شبعتُ من هذا المنظر المنحطّ، وانتعشت بجو الصباح الصحي؛ صعدت إلى الجانب العلوي من ظهر السفينة بمساعدة الصحفي الألماني الذي اقترب مني

للاستفسار عن اليهودية الشابة. وعندما رويت له ليلة العذاب التي قضيتها وشيْطنة (كوكو)؛ ضحك بصوت عالٍ، وظل يردّد:

- أمّ (كوكو)! من الآن فصاعداً سيذكِّرني هذا الاسم بتلك المرأة الشابة التي سحرتني عيونها.

وبعد أن أجلسني على مقعد تركني ضاحكاً، والتحق بمجموعة من مواطنيه الذين شاركوه ضحكَه. كنت قد ظننت بأنه شفي من الانجذاب الشهواني الذي أصابه، لكنني تيقنت- عندما ضبطته في المساء وفي الأيام التالية وراء مُعذِّبتي- من هيمنة الميول الحيوانية لدى الرجل نحو كل ما ينفرُ منه العقل. إنه رغم تهكّمه من (أم كوكو) ظل بمنزلة فارسها الخفي، وقد ضبطته خلال تنقُّلي بأحياء الإسكندرية وهو يتجول برفقتها، ويدلِّل طفليها.

ساهم النسيمُ الذي كان يهبُّ ببعض القوة، وندرة الكراسي على السطح؛ في إبعاد الركاب عن هذا المكان، حيث كنتَ لا ترى إلا بعض ركاب السفينة الجريئين الذين يتجولون بخطا سريعة من أجل إثبات أرجلهم والحفاظ على توازنهم. لم أحاول تقليدهم؛ لأنني كنت لا أستطيع الوقوف، لذلك بقيت ساكنة فوق مقعدي وأنا أرْتجف. غير أنني شاهدت في مقدمة السفينة مجموعة من النساء الأنيقات اللواتي يشكل منظرهُن لوحة رائعة تحت أشعة شمس الخريف الدافئة واللامعة. وقد بدا عليهن- من خلال ضحكهن ومرحهن- أنهن لم يشعرن بدوار البحر الرهيب. فقد كن جالسات أو متمدّدات بلطف فوق كراسي لولبية حصلن عليها قبل الإبحار؛ كي تخفف عنهن تأثير حركات الأمواج. وكان أحد المقاعد فارغاً؛ إذ تركته طفلة جميلة في الثانية عشرة من عمرها؛ لتجري فوق ظهر السفينة. ويظن الناظر إلى حركاتها الفطرية وإلى لباسها الرائع وكأنها فتاة (باريس)ية تلعب بحدائق (التويلري) (Jardins des Tuileries). وعندما اقتربتْ مني توقفت، وطلبت مني وقد احمرت وجنتاها أن أجلس على مقعدها الذي تركته، حيث سأكون في وضعية أفضل من وضعيتي فوق هذا المقعد البئيس. وأضافت أن النساء الجالسات أمامي؛ سيكن مسرورات بوجودي بينهن. وبما أنني اعتذرت لها- خوفاً من السقوط إذا ما تحركت من مكاني- فإنها أجابتني بمرح قائلة:

- سأساعدك؛ لأنني أتوفر على رجليْ بحار.

مدت لي كتفها وذراعها اللطيف بحركة رشيقة؛ وبذلك اقتربت من أولئك النساء وأنا على هيئة شبيهة بهيئة (بيلزير) (Belisaire) كما وصفها (جيرار) (Gerard).

استقبلتُ بحفاوة، ثم إن السيدة (شايلان) (Shailan) زوجة مدير (تلغراف) القاهرة التي جلبت معها أخواتها الثلاث إلى مصر، وهن شابات جميلات من (مرسيليا)، أخبرتني بأن الطفلة اللطيفة التي ساعدتني تسمى (زيبة) (Ziba) وبأنها ابنة (نوبر باشا) (Nubar Pacha) الوزير الأول للخديوي.

وجلست بالقرب من أم (زيبة)، في حين واصلت الفتاة جرْيها على ظهر السفينة. هكذا، تعرفت مباشرة السيدة عقيلة نوبر باشا، وهي أرمينية لطيفة وذكية، ستهتم بي هي وزوجها بالقاهرة على نحو لن أنساه أبداً. وفي ذلك اليوم من بداية سفري؛ لم ألق سوى المحبة من هؤلاء النسوة. وقررتُ البقاء على ظهر السفينة حتى الليل، بعد أن انخرطت بحماسة في الحديث تحت أشعة شمس الخريف، التي كانت تلمع فوق رأسي. وطبعاً فإن تلك النساء تركْنَني عند منتصف النهار، من أجل تناول وجبة الغداء والاعتناء بمظهرهن. وبقيت وحيدة فوق ذلك المقعد المريح، حيث كنت أشاهد الجبال العارية لـ(كورسيكا) والتي كان منظرها الرتيب يتراءى للمشاهد من يسار السفينة. وفي الحقيقة، فإن (كورسيكا) تبدو قبيحة إذا ما شوهدت من البحر، فجبالها لا تتوفر على روعة سلسلة جبال (سردينيا) التي ستظهر فيها بعد على يميننا؛ عند اقتراب الغروب.

وبعد جزيرة (كورسيكا) توالت جزر صغيرة أو بالأحرى أرصفة صخرية بجزيرة (ماجدولين) أو (كبريرا) (Caprera)، بحيث تعلن كل هذه الكتل الصخرية المتفرقة بالبحر الأزرق وجود منطقة بركانية معرضة للزلازل. أما الجزيرة الصغيرة التي اكتسبت هيبتها من اسم (غاريبالدي)؛ فهي شاطئ صخري منحدر. وقد تعرفت فيها المنزل الذي أمتلك صورة عنه، والذي يجثم بلونه الأبيض فوق تلّ أخضر، هو بمنزلة واحة صغيرة بالأرض المقفرة التي تشعُّ بداخلها روح عظيمة. وعند مروري بالقرب منه؛ أرسلت تحية من الأعماق لهذا الرجل العظيم.

وعند خروجنا من المضيق؛ أصبح البحر هادئاً والنسيم عليلاً، وظهرت بعض النجوم في

السماء، فنسيت نفسي على ظهر السفينة وأنا أتأمل السواحل المتنوعة لـ(سردينيا)، والهلال الذي يتوِّج في الأفق قمة الجبل، حيث يبدو مثل ملعب (الكوليزي) الروماني القديم، المتآكل من جوانبه.

في تلك اللحظة أضاءت المنارة رأس (سردينيا)، ونشرت أنوارها على مياه البحر. هكذا حلَّ الليل؛ وكنا متحلقين حول المائدة، ومرتاحين للهدوء النسبي الذي شاب اليوم الثاني من السفر. واستمر السهر بالقاعة الكبيرة حتى العاشرة ليلاً. ولأن المسافرين كانوا قد عانوا رجّات البارحة؛ فإنهم استسلموا للنوم. وعدت إلى مقصورتي في الوقت الذي كانت فيه السفينة تمر قرب جزر (ليباري) (Lipari)؛ لتعبر مضيق (ميسين). ارتميت فوق الفراش دون أن أنزع ثيابي، ونمت نوماً عميقاً حتى الثانية صباحاً، رغم صياح (كوكو). أيقظني التوقف المفاجئ للسفينة؛ فأدركت أننا بلغنا (ميسين)، لذلك سارعت بالصعود إلى ظهر السفينة.

وأمام مرفأ المدينة الصقلية القديمة التي تحفها قصور ذات أروقة مفتوحة، تنتصب في الجهة الأخرى من المضيق جبال (الكلابري) (Calabre) السوداء، داخل العمق الرمادي لضوء القمر الممزوج بأضواء النجوم، حيث تختفي بقايا جبل (أبّونان) (Apennin) وراء جبل (أسبّرومونتي) (Aspromonte) الذي اشتهر بفضل الهزيمة المشرِّفة لـ(غاريبالدي). لقد تشقَّق هذا الجبل العظيم نتيجة الزلزال الرهيب الذي ضرب (الكلابري) سنة 1783. ومات من جراء ذلك مئة ألف نسمة، كما دامت الزلازل الارتدادية عدة شهور. هكذا غرقت مدنٌ كاملة تحت المياه، وظهرت بحيرات مكان الجبال التي انهارت، وتغيرت جغرافية المكان خلال هاته الفترات الفظيعة. واعتقد (الدوق دوسيلا) (Duc de Scyla) الذي تمكَّن من وضع ألف وخمسمئة من رعاياه بالقوارب أنه في منأى عن الخطر. لكن البحر هاج ومعه بركان المنطقة، فقُتل الجميع، وانتشرت الجثث على الشاطئ.

إن غضب الطبيعة أكثر همجية من الإنسان، إذ إن ضحايا الحروب أقل من ضحايا الكوارث التي يعدّها الورعون انتقاماً إلهياً.

وبينما أنا أفكر في هذه الكارثة الرهيبة التي طواها النسيان رغم قربها الزمني من عصرنا؛ توقفت السفينة بميناء (ميسين)، الذي كانت قصوره المضاءة بفوانيس الغاز تُصْدِر شعاعاً

ينعكس فوق البحر على هيئة نصف دائرة. وانطلقت قوارب من الشاطئ باتجاه (لوموريس)، وكان أحدها مخصصاً لحمل رسائلنا وبرقياتنا؛ والآخر محملاً بالمؤونة التي تحتاج إليها السفينة، أما باقي القوارب فكانت ممتلئة بتجار المرجان والحلي المصنوعة من الصَّدف والحِمم والقبعات والأحزمة الصوفية الأرجوانية ومنتوجات الصناعات الصقلية الأخرى. وحصلت الجلبة على ظهر السفينة، حيث كان البائعون البؤساء يتشاجرون، ويتبادلون الشتائم بحركات بذيئة وأصوات عالية؛ وكل ذلك من أجل تسويق بضاعتهم، وهي للأسف علامات واضحة على بؤسهم الشديد؛ لأن الواحد منهم بإمكانه العراك واستعمال السلاح الأبيض من أجل البقشيش.

حاول (أوجين طاربي)- الذي تأثر أكثر من غيره بدوار البحر- التوقف بـ(ميسين). لكنني سخرت منه، وقلت له: إنه أقل شجاعة من (ثيوفيل غوتيي) الذي سيطر على ألمه. وأرفقت كلامي بإعطائه منشِّطاً تناوله على الفور، فأحس بالمرح والنشاط. وعند الثالثة صباحاً؛ تابعت سفينة (لوموريس) طريقها. فودَّعت من هذا المضيق الرائع- وتحديداً من شاطئ (ريجيو) (Reggio)- بركان (الإتنا) الذي لم أتمكن من رؤيته، في حين كانت السفينة متجهة نحو المياه الإفريقية.

نعم، لقد ودعنا اليابسة التي لن نُلاقيها إلا في الإسكندرية. ورجعت إلى مقصورتي وأنا مصممة العزم على النّوم؛ إلا أنني وجدت (كوكو) و(نيني) فوق فراشي وهما يطالبان بأعلى صوتهما بالحلوى التي كانت موجودة بحقيبتي والتي سبق أن التهماها عن آخرها. نهرتهما بعنف، فسكتا من الخوف. واندهشت اليهودية من عزمي على مقاومة طغيان طفليها، فاتخذت هيئة أم مظلومة، واحتضنت الطفلين، وخاطبتهما قائلة:

- انظرا أيها الحملان الوديعان إلى هذه المرأة القاسية، إنها كالذئبة.

فانفجرتُ ضاحكةً، واستسلمت لنوم عميق بعد ذلك.

وعندما استيقظت في الصباح؛ كان البحر هادئاً والشمس ساطعة والجوُّ ربيعياً. وكان كل الركاب متحلّقين حول الموائد، يأكلون ويتحدثون ويضحكون؛ فبعد تعودنا على البحر أصبحنا نسخر من الآلام السابقة الناجمة عن الدُّوار. وفي مساء هذا اليوم الجميل (الخميس

14 (أكتوبر)) وهي آخر أمسية سنقضيها على ظهر السفينة؛ كانت القاعة الكبرى تحتضن أجواء مرح صاخب. كان (أوجين طاربي) البشوش يعزف على (البيانو)، ويغني أغاني هزلية بصوته المفعم بالنشاط، ويعزف بين الفينة والأخرى مقاطع من «المارسييز» أو من «السفر إلى سورية». وكان (كميل بيلتان)– الجالس بجانبي عند زاوية الطاولة– يكتب أنشودة حزينة مرتجلة حول آلام دُوار البحر، كنت أمليها عليه. وكانت ابنة نوبر باشا الجميلة التي تحدثت عنها وعقيلة (شارل دولسيبس) الفاتنة تنزعان منا الأوراق، وتطالبان بقراءتها على الفور. شرع (طاربي) في إنشادها بصوت عالٍ وبحركات تثير حسد مغني (الأوبرا).

وإليكم هذه الأنشودة الحزينة كما دوَّنتها في دفاتر السفر:

رحلة إلى مصر

تركتُ (باريس) منشغلة

بنشاطها السياسي

بفضل عناية الخديوي

و(نوبر بيه) الجميل.

وقدمت مجموعتنا إلى السفينة

وهي كلها مرح ونشاط

وعلى ظهر سفينة (لوموريس)

كان العلماء والرحالة والنبغاء.

وغادرت السفينة الرائعة

ميناء (مرسيليا)

فأصبح الأفق الأزرق رمادياً

تفتحت الشهية فجأة
وأصبحت ألذ الأطعمة
تهدّد أمعاءنا
لكنها كانت تُسيل لعابنا
أسرعنا إليها حاملين كؤوسنا
غير أن الريح العاصفية والباردة
كانت تمهّد لما سنلاقيه
فقد أدى تمايل عنيف
تئن له كلاب الصيد
إلى خشخشة الملاعق
وسقطت الأطعمة من الأفواه
وأصبحت أغطية الموائد مثل أكفان
ننام فوقها دون حياء
فيا أيتها الأطعمة البئيسة
التي عمل غضب الطبيعة
على تغطيتها
بوابل من القيء سحقاً لك!
وأنت يا (رابلي) (Rabelais)
كنت على حق عندما سخرت من هذا الوضع
فالحيوان– سواء كان ذكراً أم أنثى–

يتمرّغ، ويتحرك كخنزير
في هذا الفضاء المقزز
وأصبحت المائدة وعاء
واختلطت الصحون بالقنينات
التي تناثرت في كل مكان
وفضح هذا الاختلاط الفظيع
ميول الأفراد بكاملها
فالرعب يجعل الإنسان بليدا
والروح المختفية
تنكشف فجأة
وتبرز زاويتها المجهولة
وأمام الهدير الآتي من بعيد
من أعلى القمم
كانت الأجساد الشاحبة والمتمايلة
تتدحْرج جميعها
لكنني لكي أصف كل ضحية
علي أن أختار إيقاعاً أبطأ.
(فرامبو) (Raimbaux) المُدافع عن (الإمبراطورية)
كان يحتضن وسادته
معتقداً أن رصاصة اخترقت صدره

وكان يصيح: «آه، هذا الألم أسوأ مما يصدر عن أفظع القتلة!»
وبعد تشنجات متتالية لفظ أنفاسه
وغمغم (شارل بلان) الوثني المحبوب
بجسمه المترهل وعينه الحولاء:
«من أجل الرقاد بفراشي الوثير
عند (ماتيلدا بسان غراسيان) (Sainy-Gratien)
أمنح الجمهورية برمتها
التي يحبها أخي مثل رواقي».
أما (بيشو) الصغير والنشيط
الذي تظهر عيناه اللامعتان تحت نظارته
فقد كان متمتعاً بالعافية، ويسخر من الجميع
وكان يضحك قائلاً:
لكي تقضوا على هذا الألم المهيمن
اقرؤوا مجلتي البريطانية
وتحت عباءته اللينة والدافئة
التي دثَّرته مثل كفن
كان (غيوم) يتحسر قائلاً:
- «إنني أحس برعشة مُميتة
وسأحمل معي إلى الآخرة تمثالي»
فليحذر (كليسنغر) (Clesinger) و(بريو).

يتعانق (جيروم) و(فرومنتان)

بطريقة مشبوهة.

فيقول (فرومنتان) بلهجة ساخرة قاسية:

- ياصديقي المسكين، فرشاتك تتجمد

يجيب (جيروم):

-لأن المقادير عندي تهدد الفن الإغريقي كله.

فرَّ (بورتيلو) (Borthelot) وهو حزين

وقد أحنى جبينه المتأمل،

فهل سيُخضِع مشكلاً صعباً

لقوانين الفيزياء؟

للأسف لا! لأن ألماً فظيعاً

جعل فكره أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

أما (كاترفاج) (Quatrefages) صاحب العقل التربوي

فقد استشهد بأقوال الحكماء

الذين تحدّوا الكوارث

من أجل مقاومة عناصر الطبيعة.

لكن أقواله المأثورة والمتعالمة

تخلَّلتها نوبات التقيؤ

وهذا الألم المرهق السخيف

الذي لا يحترم شيئاً.

استخف بـ(أبقراط) و(غاليان) (Galien)

وضرب (أبولون) وصرع (هرقل)

ولوى وكسر كتف

(ثيو) (Téo) الأولمبي.

وبعد أن كبح (بروكا) (Broca) فُواقه

جرى وسط العاصفة

مرفوقاً بثرثرته التي لا تتوقف،

وأجرى عملية جراحية للشاعر

ثم قال باعتزاز:

- إن (نيلاثون) (Nelaton) يعدّ تافها

إذا ما قورن بي.

فهل رأيتم (كاريكاتور بروكا) المتباهي

المرسوم بريشة (دارجو)؟

بسيف لامع معلق بالخاصرة

وقبعة ثلاثية وصليب معلق بالعنق.

لكن المغامرة الحزينة كانت في ذلك اليوم

متأففة من الفنان (ساباجو) (Sapajou).

لقد كان ممدداً فوق المقعد

بجسده النحيف المدثر بسترة

قرب (رامبو) المحتضر؛ وكان يقول:

– الفرصة مواتية

لتقديم عريضة للرجل.

وبخفة قفز نحوه

وكان (طاربي) الشبيه بقربة ضخمة

قد ابتهج عندما رآه

يضع العريضة فعلاً

فسقط فوق الفنان

وأثقل عليه ببطنه الضخم

إلى أن اسْودَّ لون (دارجو) المسكين.

أما (فيرني) الكئيب

مثل طالب (إكلريكي) فقد كان يراقب هذه الحركات المرحة

وكان (يونغ) الشاحب والحزين

يفكر في خطاب سيرسله إلى جريدة «النقاش».

لكن، يا لدهشتنا! فالروح الساخرة

لدى الصحفيين لم تكن في أحسن أحوالها

وهناك شخصان فقط سلما من هذا المصير العابر

وهما (فرعون فلوريان)

الذي كان يحلم بفرْنسة القاهرة

وبأن يكون محافظ مكتبة

لدى أحد أمراء الشرق،

و(بيلتان) الثاني، أي (كميل)
الواقف دوماً رغم التعب
بقبعة فوق الجبين
وعباءة على الجسد النحيل
والذي تلمع عيناه بحدة
بحثاً عن (إيس) (Aisse)
وهذا الوهم الذي يجذبه
ويسقيه بمشروب روحي
جعله رغم العاصفة القاتلة
والتيارات الجامحة
يقاوم بجسده المصاب بالكُساح
من (مرسيليا) إلى (ميسين).
وهدأ البحر بهذه الأخيرة
واعتقدنا أننا سنستعيد توازننا
لكن الأثير الساخن جثم فوقنا
فبدأنا نتصبب عرقاً ونذوب
فها هي ذي مصر! إنها فرْن!
أما النيل فهو نهر من الرَّصاص.

وردّد الحضور المقطع الثاني من الأنشودة؛ مما دفع الرسام (الكاريكاتوري دارجو) إلى رفع صوته منشداً:

يا أيتها الأطعمة البئيسة

التي عمل غضب الطبيعة

على تغطيتها

بوابل من القيء، سحقاً لك!

وأنت يا (رابلي)

لقد كنت على حق عندما سخرت من هذا الوضع

أما المقطع الآخر الذي حظي بالترديد؛ فهو المتعلق بمعلم الفروسية (رامبو) الذي عمل على حماية إمبراطور (هنغاريا) و(نابوليون) الثالث من رصاصة بولونية.

وقد احتج (رامبو) ضاحكاً من وصف حالة ضعفه؛ وهو الوصف الذي جاء فيه:

فـ(رامبو) المدافع عن (الإمبراطورية)

كان يحتضن وسادته

معتقداً أن رصاصة اخترقت صدره

وكان يصيح: «آه، إن هذا الألم أسوأ

مما يصدر عن أفظع القتلة!»

وبعد تشنجات متتالية لفظ أنفاسه

وقال معقباً على ذلك:

-إنني مازالت قوياً، مثل يوم محاولة الاغتيال.

وعندما عبر القاعة الكبرى؛ اقترب مني، وألقى علي التحية. لقد كان هذا الرجل السعيد متوجهاً إلى الإسكندرية لانتظار (أوجيني) (Eugénie) (إمبراطورة فرنسا)، التي سيرافقها إلى القاهرة ثم إلى مصر العليا.

واستمر سهرنا الصاخب حتى الواحدة صباحاً. وعند الساعة السادسة، هرع جميع

الركاب إلى ظهر السفينة لرؤية الساحل المصري. وما هي إلا هنيهة، حتى ظهر شيء على شكل صومعة مرتفعة باتجاه سماء محمرة، وكان هذا الشيء هو منارة الإسكندرية، التي كانت في القديم إحدى عجائب الدنيا وروائعها. وكانت السفن القادمة من كل البقاع تقترب من الميناء، وتضفي على هيبته المتلاشية نوعاً من الحيوية. وعند الساعة التاسعة صباحاً رأينا قارباً كبيراً متجهاً صوب سفينة (لوموريس)، وكان على متنه السيد (دولسيبس)؛ مرفوقاً بضباط الميناء المكلفين بالجانب الصحي. وأحاط جميع الركاب بالرجل العظيم والبطل الملهم والصبور الذي اجتاز العديد من العقبات، وهنؤوه على إنجازه الرائع. وكان الرجل متألقاً من الفرح، وقد عاد إليه شبابه، حيث كانت عيناه تلمعان مثل حجرتين كريمتين تحت شعر رأسه الأبيض. وكان من المقرر أن يتزوج (دولسيبس) يوم غد- وهو يوم تدشين قناة السويس- فتاة جميلة من جزر (الأنتي)، لا يتجاوز عمرها العشرين سنة. لقد كان لديه طموح المنتصرين؛ إذ قرر الجمع بين الحب والمجد! ولو كنت مكانه لاكتفيت بالمجد؛ لأنه مضمون، ولن يخيب الآمال. أما في الحب- ويا للأسف- فكم من خيبات تحصل!

وبعد أن سلمت على العجوز المبتهج وجهت نظري نحو ميناء الإسكندرية الشهير. كانت الضفاف المحيطة بحوضه الواسع ترتسم أمامنا كلما اقتربنا منه. وكان نور الشمس الإغريقية يسطع فوق الأشياء؛ تحت سماء شبيهة بلون زهرة الكميليا. ولم أر- إلا في مصر- انعكاس هذا الضوء الذي يتجاوز في جماله انعكاس الضوء في كل من (إيطاليا) و(اليونان). ويبدو كأن الدماء تجري داخل هذا السحاب مثل البشرة المخملية لوجه لا يتجاوز العشرين سنة.

ثمَّةَ بين الإنسان وهذا المناخ المتوهّج تواصل (مغنطيسي) لا يمكن نكرانه. وتعدّ الطبيعة في هذه الأرض النارية أقوى من الإنسان، فهي التي تفرض عليه تأثيرها المهيمن، وتخضع روحه لسيطرتها. وقد يشعر المرء بالرهبة من جراء هذه الهيمنة المحتومة للطبيعة التي انقاد وراءها عظماء الرومان، والتي جسدت (كليوباترا)- إن صح القول- قوتها واندفاعها وجاذبيتها وجمالها.

وعلى اليسار- بطرف الساحل- تنتصب المنارة الكبرى؛ وأمام ذلك توجد المباني القديمة بالمرفأ العتيق والقلعة الضخمة التي بناها محمد علي وسط الأمواج فوق ممر أرضي يدعى

رأس التين، ويلتقي بساتين خضراء على الشاطئ المقابل.

أما على اليمين؛ فيبرز وسط أشجار النخيل قصر ملكي آخر في طور البناء ومسجد لم يكتمل بناؤه أيضاً؛ وكانت صومعته البيضاء هي أول ما بدا لنا ونحن على ظهر السفينة. وبالجهة نفسها، كانت البنايات العصرية للإسكندرية محاطة بأعمدة (بومبّي) (Pompée) الضخمة. والملاحظ أن الأجيال المتلاحقة دأبت على تسمية الآثار القديمة بأسماء عظماء الرومان. هكذا تنتصب الوجوه العظيمة لكل من (بومبي) و(القيصر) و(أنْطوان)، الذين هيمنوا على العالم، وتبسط ظلالها فوق الأعمدة، كما تتجول أرواحها على أرض مصر.

لكن (بلوتارك) (Plutarque) أعاد إليها الحياة. فقد أظهر لنا (كليوباترا) النشيطة ذات الجمال الأخاذ، المجسدة للذكاء الإغريقي، تلك الحورية الملهمة والملكة والخليلة التي تجاوزت (أسبازي) (Aspasie) على مستوى الإغراء الروحي والجسدي. إن الشبح العظيم لكل الأهواء الجسدية الإنسانية يطفو عبر الضوء المتوهج والمتحرك. لكن من فوق، يجثم ويشع ويتراءى ظل (هيباثيا) (Hypathia) العذراء الإغريقية الجميلة الملهمة التي نقل إليها أفلاطون روحه[1] بصفائها ورونقها المثالي؛ فوق الضباب اللؤلؤي الصاعد من بحيرة (مريوتيس) (Moreotis).

وقد درَّست مذهبه بالإسكندرية، لكن الرهبان المسيحيين قتلوها، وشوهوا جسدها. وكانت أولى علامات القوة التي أظهرها المسيحيون؛ هي خنق العبقرية الإغريقية التي تعدّ أرقى تجليات الإنسانية.

ومع مجيء هؤلاء المتدينين المتعصّبين؛ ازداد ليل الهمجية قتامة، ولف الأرضَ، واحتضنها

(1) (هيباثيا) هي ابنة (ثيون) (Théon) وهو عالم رياضي إسكندراني؛ وقد ولدت بالإسكندرية حوالي سنة 370 ميلادية، وبرعت في الرياضيات والفلسفة، حيث حظيت بلقب فيلسوفة. وكان قضاة الإسكندرية يستدعونها لإلقاء دروسها بالأماكن العامة. وحصلت على نجاحات باهرة، كما حظيت باهتمام (أورست) (Oreste) حاكم المدينة.

لكنها كانت وثنية، واتهمت بتشجيع اضطهاد المسيحيين، فهاجمتها الحشود الهائجة، ومزقتها إرباً، وجرت أطرافها المختلفة عبر أزقة المدينة.

وقد ألفت (هيباثيا) كتباً علمية، مثل «التعليق على ديوفانتيس» (Diophante) في الفلك؛ و«التعليق على مسننات أبولنيوس برجي» (Perge de Apellonius)، والتي ضاعت جميعها في الحريق الذي شبّ بمكتبة الإسكندرية.

إلى أن بزغ عصر النهضة. هكذا، وأمام الإسكندرية الحديثة تذكرت عظمتها القديمة. فقد كان للصراعات الفلسفية القائمة بين مدارسها صدى المعارك التي جرت على سواحلها نفسه؛ والتي قادها أشهر (الجنرالات) الرومانيون.

الفصل الثاني

النزول من السفينة بالإسكندرية، منظر الميناء والمدينة، الصحفي (أوجين طاربي) ورسام (الكاريكاتور) (دارجو)، الفندق الأول غير صالح للسكن، الفندق السويسري، إقامة مريحة بفندق (أوربا)، عناية مالكه الإيطالي ومواطنه (طونينو بيه) سليمان رئيس التشريفات الخديوية، الفرنسيات الموجودات بالقاهرة والإسكندرية، جولة بالإسكندرية، مسلات (كليوباترا)، أعمدة (بومبي)، عطالة إسلامية، قناة المحمودية، حدائق الخديوي و(فيلات) رجال الدولة الكبار، منظر الإسكندرية في زمن (فولني) (Volney).

تركنا سفينة (لوموريس) عند مدخل ميناء الإسكندرية، وصعدنا على ظهر مركب بخاري صغير، تحت إمرة السيد (رنيي) (Regné) الكاتب العام بمديرية الصحة؛ وذلك تفادياً للازدحام. ويعدّ هذا الفرنسي- الشاب الذي كان يقوم بخدمة الخديوي- نموذجاً للسلوك المدني المتميز بالنسبة إلى مواطنيه. وأنا مَدينة له كثيراً، وأتأسف على كوني أجلت شكري له مراراً. وكانت العربات المخصصة لنا قد امتلأت كلها بركاب (لومويس). وعندما رآني السيد (رنيي) وحيدة، حجز لي عربة مجرورة بحصانين، فصعدت على متنها بأمتعتي الخفيفة وأنا أقول مع نفسي: إنني سأجد حقائبي بفندق (أوربا) حيث حُجِزت لي غرفة هناك. وعندما همَّ السائق النوبي- الذي كان يرتدي زيّاً ترْكياً بألوان فاقعة، ويضع عمامة بيضاء فوق رأسه- بتحريك الجوادين العربيين؛ رأيت (أوجين طاربي) يجري باتجاهي وقد تصبَّب عرقاً وبجانبه صديقه الحميم والنشيط (دارجو). وصاح (طاربي):

- لم نجد أي عربة ولا حتى حمار؛ رجاءً يا سيدتي أن تجدي لنا مكاناً بجوارك؛ فأنا أذوب تحت هذه الشمس الإفريقية.

وأجبته وأنا أجمع أمتعتي لترك مكان فارغ أمام الصديقين:

- بكل سرور.

فقال لي (دارجو) شاكراً:

- يجب أن تعدّينا فارسين في خدمتك بأرض مصر.

وأضاف (طاربي) السمين:

- نعم، في الحياة والمهات!

وتحرك الجوادان بسرعة وسط الأزقة الغريبة التي تخلب أعيننا (الأوربية). وكانت بعض الحمير الصغيرة الحجم والمسرَّجة بشكل أنيق تمر من كل الجهات- بأعينها اللامعة وآذانها المستقيمة- حاملة على ظهرها ركاباً أثقل منها بأربعة أضعاف. وقال (دارجو):

– سأرسمك وأنت راكبة أحد هذه الحمير الصغيرة الحجم.

كانت كل اللغات تصطدم في هواء الإسكندرية وكل الجنسيات تلتقي بها. ويبلغ عدد سكانها ذوي الأجناس المختلفة خمسين ألف نسمة(1). وغالبية السكان من الإيطاليين واليونانيين والأرمينيين الذين يوجدون على رأس التجارة [بالجملة والتقسيط] وإدارة الخدمات الفندقية.

وقد ساهم تدشين قناة السويس في جلب عدد كبير من رجال الصناعة والعاملين الفرنسيين إلى مصر. وهم من الخدام الباريسيين الذين اكتسبوا مهارتهم بالبلاط الإمبراطوري والذين سنلتقيهم في الاحتفالات المقامة بقصر الخديوي.

وقد أثار وصولنا يوم الجمعة 15 (أكتوبر) 1869 اندهاش ساكني الإسكندرية، حيث امتلأت جنبات الأزقة الضيقة بالفضوليين الذين أرادوا رؤية ركاب سفينة (لوموريس) وضيوف الخديوي.

وبأبواب الفنادق التي حجزت بها غرفنا؛ كان الخدم بلباسهم الأسود البالي يقفون حاملين المناديل مرحبين بنا. وصاح (طاربي) عندما تبيَّن له فندق من الدرجة الثانية:

– سنُقيم هنا، وإذا ما صدقتني يا سيدتي؛ فإنك ستكونين معنا، وستحصلين على رعايتنا وحمايتنا عندما تقتضي الضرورة ذلك. فأجبْتُه معترضة:

– لكن ليس هذا هو فندق (أوربا) الذي حجزت فيه غرفتي، وحملت إليه حقائبي.

وتدخَّل خادم يتكلم الفرنسية قليلاً؛ قائلاً:

– ستكونون هنا أفضل من فندق (أوربا)، حيث لم تعد هناك أي غرفة فارغة؛ وقد أخبرني بذلك أحد مفوضي الخديوي.

كان التَّعب قد أخذ مني مأخذهُ، والشمس الحارقة النازلة فوق رؤوسنا قد أتت على ما بقي فيَّ من جهد. وأحسست بضرورة أخذ حمام والنوم بضع ساعات، لذلك صدَّقت كلام الفرّاش، وأذعنت للاحتجاجات اللبقة لرفيقي في السفر. وما إن صعدنا أدراجاً خشبية

(1) وقد تضاعف هذا العدد منذ تدشين قناة السويس. [ملحوظة مدونة سنة 1874].

ضيقة مؤدية إلى غرفة صغيرة ووسخة- من دون شبابيك ولا حوض الغسل، وتنعكس أشعة الشمس الحارقة على جدرانها المطلية بالجير- حتى أدركت الخديعة. أعلنت عن احتجاجي؛ مؤكدة استحالة أن تقضي امرأة ليلة واحدة بهذا النَّزْل، وفي جميع الأحوال فأنا ذاهبة للبحث عن أمتعتي. ونزلت الأدراج وأنا أترنح ورفيقي من ورائي. وعندما بلغنا الساحة المغطاة بخيمة، والتي تم تحويلها إلى مطعم ومشرب؛ طلب مني (أوجين طاربي) الجلوس كي أستريح، وأخبرني بأنه سيذهب هو وصديقه للبحث عن أمتعتي ولحجز غرفة أنيقة لي. ركبا العربة التي كانت واقفة بالباب، ووعداني بالرجوع قبل مرور نصف ساعة. صدقتهما؛ لأنني لم أكن أتوقع أن تصدر عنهما مزحة، ستكون بمنزلة شتيمة لي في تلك اللحظات العصيبة. جلست على مقعد بتلك الساحة التي كان جوها لطيفاً بعض الشيء، وطلبت عصير برتقال مثلَّجاً. وبعد ساعتين من الانتظار؛ أدركت أنني خُدعت مرّة أخرى وأن الصديقين قد استغلا العربة للتجول بالمدينة. عندها أمرت صاحب الفندق- وهو إيطالي أغاظني من كثرة مطالبته لي بالتأني والتحلّي بالصبر- بإرسال أحد العاملين عنده؛ كي يبحث لي عن مفوَّض الخديوي. وبعد ساعة من الانتظار وصل ضابط تركي مهذب، لكنه يكاد يفهم الفرنسية. ومع ذلك، تمكنت من إفهامه أنني مرهقة وبأن وضعي يتطلب اصطحابي إلى فندق أفضل. فطلب مني الركوب بعربته وطمأنني بخصوص أمتعتي الموجودة بكل تأكيد بفندق (أوربا)، حيث حجزت لي غرفة، وبما أنني لم أصل في الوقت المحدَّد؛ فقد أعطيت لأحد المدعوين، لكنها ستفرغ في الغد؛ لأن العديد من ركاب (لوموريس) سيذهبون باكراً إلى القاهرة. وفي انتظار ذلك، سيوصلني إلى فندق سويسري مريح، يقابل فندق (أوربا)، حيث يمكنني أن أستريح فيه من تعبي.

وكنت قد بلغت أقصى درجات الإرهاق، وأصبح التوفّر على سرير أتمدَّد فوقه يلخص كل الراحة التي أطمح إليها. كانت عبارات هذا التركي الشهم، المختصرة والخالية من الاحتجاج؛ قد أعادت لي الثقة. وبعد أن سلمني إلى صاحب الفندق السويسري؛ تركني مؤكداً لي أنه سيرجع غداً صباحاً، ويكون رهن إشارتي.

هكذا، حصلت على غرفة كبيرة ونظيفة بستائر من النسيج الفارسي وشبابيك خضراء مغلقة بإحكام؛ وهُيئ لي حمام فاتر، استخدمته على الفور. ولولا هذا الاغتسال؛ لما تمكنت

من النوم بسبب الغبار والحشرات الموجودة بأزقة الإسكندرية. وبعد خروجي من الحمام، أويت إلى الفراش، واستسلمت لنوم عميق ومريح. وعند الساعة الخامسة أيقظتني أصوات عذبة تغني تحت نافذتي وتعزف ألحاناً إيطالية تلتها مقطوعات معزوفة على (الأرغن) و(الهرمونيكا)، من أنشودة (غاريبالدي) و(المارسييز). وقد بدا الأمر شبيهاً بأغنية حبّ ليلية في مدينة تركية. ومن فرط انبهاري واندهاشي أردت معرفة مصدر هذه الموسيقى، ففتحت نافذتي؛ وعندها تراءت لي ساحة (القناصلة) وهي من أكبر وأجملها ساحات الإسكندرية. كانت مظللة بأشجار باسقة ومحاطة بمنازل ذات هندسة (موريسكية) ومزينة بنافورتين كبيرتين من (الغرانيت)، تنبعث منها مياه منعشة للجو. وكانت الشمس مائلة إلى الغروب. الجو قد برُد تحت هذه السماء الإفريقية بعد حرارة النهار[1]، وانتعشت الأزهار الموجودة بالشرفة، وانتشر عطرها.

حركة الراجلين والعربات كانت كثيرة بهذه الساحة؛ والمتاجر أضيئت، والموسيقيون المتجولون متوقفون أمام أبواب الفنادق. وفي الجهة الأخرى من الساحة قبالة نوافذ غرفتي، أثارت انتباهي مجموعة من المطربين العرب كانوا يغنون تحت شرفة كبيرة كتب فوقها: فندق (أوربا). ولأن المسافة كانت قريبة؛ فقد قررت الخروج للاستفسار عن أمتعتي وعن خطط تنقل المدعوين الآخرين. طبعاً، قام المضيفون السويسريون بواجبهم تجاهي، لكن لم يكن أي واحد من ركاب (لوموريس) موجوداً بفندقهم. ورغم وعود الضابط التركي؛ فإنني كنت أشعر بالوحدة، وكنت قلقة من أن أُنسى في هذه المدينة الغريبة وأن يفوتني الذهاب إلى القاهرة. لذلك قررت البحث عن الأخبار بنفسي؛ بدل انتظارها حتى الصباح. ارتديت ملابسي بسرعة، وخرجت دون إشعار أي أحد، ثم عبرت الساحة بخطوات سريعة. وعندما وصلت إلى ردهة فندق (أوربا)، تعرفت حقائبي التي كانت بانتظاري. وكان ذلك بمنزلة فأل حسن. وعندما كنت أصعد السلالم؛ توجه نحوي صاحب الفندق الذي أخبره أحد الخدم بمجيئي؛ وكان مرفوقاً بالسيد (طونينو) سليمان، المكلف بتشريفات الخديوي والذي تم إيفاده إلى الإسكندرية لاستقبال المدعوين ومرافقتهم إلى القاهرة ومصر العليا. واستقبلني هذان الإيطاليان بحفاوة كبيرة؛ إذ لا شيء أفضل من الطبيعة الإيطالية عندما تكون صادقة،

(1) هذا التحول المفاجئ للجو مضر كثيراً بالقاهرة، لكنه أقل ضرراً بالإسكندرية بفضل نسائم البحر المطهرة للهواء.

فهي ممتلئة باللطف والحماسة، وتجلب ثقة المخاطب على الفور. ويرجع اهتمام الرجلين بي إلى شعور وطني؛ فقد كانا يُكِنّان حباً عارماً لبلدهما بأرض مصر. وسبق لهما أن قرأا كتابي «إيطاليا للإيطاليين»؛ لذلك اعتبراني مواطنتهما على المستوى الثقافي. وكان صاحب الفندق، السيد (ب)، وهو إيطالي وسيم وطويل القامة ومبشور القسمات؛ قد عمل تحت إمرة (غاريبالدي) وتعرف إلى (مازيني) (Mazzini). ومازالت صورة هذين الوطنيين الحقيقين تزيّنان قاعة الفندق. أجلسني صاحب الفندق، ثم خاطب السيد سليمان بحماسة قائلاً:

– يجب الاحتفاء بهذه السيدة أكثر من الاحتفاء بأميرة؛ فهي صديقة بلدنا (إيطاليا) وصديقة هذين الرجلين العظيمين اللذين ينظران إلينا.

وفعلاً، فقد عبر لي سليمان عن رغبته العميقة في التفاني من أجل راحتي، أما السيد (ب) فإنه كان وفياً لي خلال مقامي بمصر. وعمل المستحيل في ذلك اليوم، حيث استعطف سائحاً إيطالياً وطلب منه التخلي لي عن غرفته، ونقل إليها على الفور ما تبقى من أمتعتي بالفندق السويسري، ثم قال لي:

– عليك أن تحضري حفل العشاء الذي سيقام بعد حوالي ساعة من الآن، على شرف ضيوف الخديوي. ولا تنسيْ أن تخبري أصدقاءنا بـ(إيطاليا) يوماً ما بالكيفية التي أعامل بها حلفاءنا الفرنسيين؛ رغم أنني لا أحب إمبراطوركم.

– وعند الساعة السادسة، وجدتُني جالسة بمائدة فخمة تجمع أغلب ركاب سفينة (لوموريس)؛ وكنت أتوسط (برلمانياً) (إسبانياً) و(الكونت دو مونمور) (Comte de Montmort) عضو نادي (الجوكي)، الذي كان يقوم بزيارة خاصة لمصر.

وقد تعمدت ذكر اسمه؛ لأنه كان رجلاً مهذباً وذكياً يحسن التعامل مع النساء. وسألتقيه مجدداً خلال رحلتنا إلى مصر العليا.

كل شيء كان متوافراً بفندق (أوربا)، حيث كانت الأطعمة فاخرة والأسماك كبيرة والشراب جيداً والفواكه لذيذة والمثلجات منعشة. وقد خصصت الحكومة الفرنسية سبعين (فرنكاً) يومياً لتغذية كل واحد من المدعوين وإيوائه. وبالفعل، فإن السيد (ب) التزم بجعل ضيافة الخديوي حاتمية.

اعتقدنا- من خلال هذا العشاء الفاخر- أننا في بلد الخيرات التي لا تنضب؛ وكم من مرّة استحضرت هذه الوجبة الأميرية وأنا بنزل بئيس بالقاهرة أو عند تناولي لأطعمة مقزِّزة بالسفن البخارية؛ فكل شيء كان متوافراً بكثرة في تلك الليلة. أما بالقاهرة فإن أصحاب الفنادق الاستغلاليين والذين لا أخلاق لهم؛ لم يكن لديهم سوى هدف واحد، وهو الاغتناء على حسابنا وطمس كرم العاهل وتحويله إلى تقتير ظاهر. لقد كان هؤلاء المستغلون- سواء تعلق الأمر بالفرنسيين أم اليونانيين أم الإيطاليين- يعدّوه حثالة المجتمع في وطنهم الأصلي الذي طردهم بسبب جرائم ارتكبوها. وهم وقحون ويثيرون السخرية بلباسهم الضيق، ويتبجحون بكونهم (مسيحيين). وعندما أراهم يسخرون من الفلاحين البؤساء ويعاقبونهم (ب(الكرباج)) لأتفه الأسباب؛ أقول مع نفسي: إن هذا العقاب القاسي كان أولى بالنزول على رؤوس هؤلاء لأوربيين السفلة.

لكن علينا ألا نستبق الأمور؛ لأن القارئ سيتعرف هذه الحقائق من خلال سردنا للوقائع.

وفي ذلك المساء، أخبرني السيد سليمان بأن الشخصيات الهامة من بين المدعوين والمكونة من أعضاء المعهد ومن الرسميين الذين لم يتجاوز مقامهم بالإسكندرية ساعة واحدة؛ سيكونون أول المتوجهين إلى القاهرة صباح الغد. وكان الهدف الحقيقي من هذا الاستعجال هو ضمان أفضل الغرف لإقامتهم.

أما الصحفيون الذين كانوا مضطرين إلى كتابة رسائلهم؛ فقد أجلوا السفر إلى ما بعد الغد، وهو ما قررتُه أنا أيضاً؛ مادمت لم أرَ من المدينة سوى الفنادق الثلاثة التي توقفت بها مرغمة. وعبر السيد (ب)- بطيبوبته المعهودة- لضابط المديرية عن تخوُّفه من أن تكون إقامتي غير مريحة بالقاهرة. فطمأنه هذا الأخير، ووعده بأن يرسل في هذا المساء ذاته برقية إلى الفندق الملكي؛ كي تُحجز لي أفضل غرفة. وأضاف قائلاً:

- الفندق ليس كبيراً، لكنه يحتل موقعاً رائعاً بالأزبكية. كما أن صاحبته فرنسية، وقد سبق لها أن وعدتنا بالاعتناء بمواطنيها الذين نبعثهم إليها. وكيفما كان الحال؛ فإنني سأرى إلى أي حد ستفي بوعدها، وسيكون لي الشرف بمرافقة السيدة بعد الغد إلى محطة القطار، ولن أفارقها في القاهرة حتى أتأكد من إقامتها بالفندق.

وعند سماعي لهذه الكلمات اللطيفة؛ ارتاحت نفسي، وارتاح معها جسدي.

وفي صباح الغد (السبت 16 أكتوبر) تناولت وجبة الفطور رفقة صحافييْن فرنسيين؛ هما مدير جريدة (التقدم المصري) (Le progrès égyptien) بالإسكندرية ومدير جريدة (مصر) (L'Egypte) بالقاهرة، اللذان قدماً لي صورة غريبة عن العادات التركية وعن بعض الشخصيات الهامة ببلاط الخديوي. ثم صعدت العربة التي وُضعت رهن إشارتي ليوم كامل. وكان ترجمان عربي قد كلف بالاستجابة لكل مطالبي والإجابة على كل أسئلتي؛ وقد جلس قرب الحوذي، وسألني:

- أين تريد السيدة أن نذهب أولاً؟

فأجبت مثل كل السائحين المفتونين باسم (كليوباترا):

- قدْني إلى مِسَلات (كليوباترا).

ويتعلق الأمر تحديداً بمسلَّتين من (الغرانيت) الوردي توجد إحداهما ملقاة على الأرض بين الأنقاض. وبحسب الرواية القديمة؛ فإن المسلَّتين كانتا تشكلان جزءاً من القصر البديع الذي بنته الملكة الفاتنة على شرف القيصر بالحي الإسكندراني المسمى (القيصرية). أما المسلة التي ظلت منتصبةً ولامعةً بلون البشرة المائلة إلى السمرة؛ فإنها تجسد (كليوباترا) في أبهى سلطتها كملكة وكامرأة شابة متحمسة ومحبة. وأما المسلة الملقاة أرضاً والمغطاة بغبار كثيف مثل المومياء التي تلفها الأقماط؛ فتمثل عشيقة (أنطوان) المهزومة التي لجأت إلى الموت من أجل التخلص من مذلة الانقياد وراء المنتصر المتعجرف الذي لا يرحم، كما (زنوبيا) ملكة تدمُر.

كان العمود الذي تحدى الزمن والذي سمي خطأ بعمود (بومبي)؛ ينتصب نحو السماء فوق أرض عارية، ويشرف على الإسكندرية منذ قرون. ويعدّ عمود (تراجان) (Trajain) وعمود (فندوم) (Vendôme) قزمين أمام العمود الأول الذي تمتد على يمينه مقبرة للمسلمين، ذات مظهر كئيب ومقفر؛ وكانت بعض النساء جالسات القرفصاء، ويبكين تحت حجابهن. وبقاعدة العمود تكوم بعض الفلاحين العجزة الشحاذين؛ طلباً للنوم. ولا يستطيع المرء نسيان الجمال المنكوب لهذه الرؤوس المغلوبة على أمرها ولهذه الأسمال البالية

التي يتحرك الذباب وبعض الحشرات الأخرى عبر ثقوبها. وعند يسار هذه الأرض الغبراء التي تحرقها الشمس بأشعتها توجد مساكن زوجات الجنود؛ ويظهر من خلال هذه البيوت البئيسة أطفال عراة، يتحركون عند أبوابها. وبالجهة نفسها، تمتد أشجار النخيل المحملة بالتَّمر الناضج والأصهب، بحيث تتقاطع بدقة هندسية مع شفافية الفضاء. وحول المدينة تمتلئ الطرق المتهدمة والمغبرة بأشجار الصبار التي لا تظلل أوراقها الغليظة المكان؛ بالمقابل تكثر البنايات على جنبات قناة المحمودية التي تجلب مياه النيل إلى الإسكندرية. ونسيت نفسي في بساتين الخديوي الممتلئة بالأزهار؛ لأن جوها الدافئ والمعطر كان منعشاً. وقدّم لي بعض البستانيّين بقمصانهم الواسعة طاقة كبيرة من الورود ومن ياسمين (إسبانيا). وكانت الشمس تميل إلى المغيب، بحيث تنكسر أشعتها الأرجوانية فوق النخيل. وكنت معجبة بهذا النور الناري، لأن الحياة تدب فيه بشكل تصاعدي. وعند مغادرتي للبساتين، قدم لي رئيس البستانيّين غصناً ممتلئاًبفاكهة (المندرين)، طالباً مني (البقشيش) المعتاد. ولأول مرّة سمعت هذه الكلمة المحزنة والمذلة. فهي محزنة في فم الفلاح الذي يهمس بها كصرخة مكتومة معبرة عن بؤسه؛ وهي مذلة في فم الموظفين، من أكبرهم إلى أقلهم شأناً، والذين يقتطعون العُشر من (بقشيش) هؤلاء البؤساء. فما يدعى رشوة (في (إيطاليا وفي فرنسا) يُقتطع في كل المناسبات بمصر على نحو أكثر جشعاً وفظاظة.

قدمت في ذلك اليوم وبكل سرور أول (بقشيش)؛ وأنا أتأسف على عدم تمكني من مضاعفته ذهباً ومنحه لهؤلاء الفلاحين التعساء الذين خيم شقاؤهم على تلك الطبيعة الرائعة.

وحلَّ الليل، لذلك لم أتمكن من زيارة قصر رأس التين المشيد فوق البحر والذي يخيم عليه شبح محمد علي؛ الخديوي العظيم والمغامر الجريء الذي جمع بين القسوة والذكاء والبطولة والدهاء، ذلك المؤسس الشجاع للأسرة الحاكمة بمصر، الذي نقل إلى ورثته نيابة الخلافة بمصر وأيضاً الحدس الحضاري الذي دفعه إلى البحث عن تحالفات مع (أوربا) والدفاع عن الأجانب المرموقين. وقد اتبع ابنه إبراهيم هذه السياسة، وتوجها حفيده إسماعيل باشا- الخديوي الحالي- بالأعمال الكبرى بقناة السويس التي جلب تدشينها اهتمام العالم بأسره.

وأجّلت زيارتي للقصر المذكور إلى حين عودتي ثانية إلى الإسكندرية للإبحار باتجاه

(أوربا). وعبثاً حاولت العثور على بعض الآثار اليونانية والرومانية المؤثثة لفضاء هذه المدينة الرائعة التي أسسها (الإسكندر)؛ لكن يبدو أن همجية الأتراك والحفريات البليدة قد عبثت بهذه الآثار، وأخفتها. وقد سبق لـ(فولني) (Volney) منذ قرن (سنة 1783 بالتحديد) أن رسم لنا لوحة عن هذه المدينة، ومما جاء فيها:

«من بين الأماكن المثيرة لإعجاب الأوربي ودهشته، يندر أن تجد مكاناً يضاهي هذا التأثير المزدوج للإسكندرية بمصر. إن اسم هذه المدينة يذكرنا بعبقرية رجل مدهش؛ واسم البلد يختزن العديد من الوقائع والأفكار، والمنظر مثير للإعجاب، أما أشجار النخيل فإنها تنتصب مثل شمسيات، وتبدو المنازل بسطوحها المفترقة إلى السقوف وصوامعها كنبال طويلة تحمل معها (الدرابزين). كل شيء ينبه السائح على أنه موجود في عالم آخر. وإذا ما نزل إلى اليابسة تحيط به مجموعة من الأشياء المجهولة لديه، بدءاً باللغة التي تزعج أذنيه برنتها الجافة والحلْقية ومروراً بالملابس ذات الأشكال العجيبة والملامح الغريبة. وبدل وجوهنا الحليقة ورؤوسنا المكسوة بالشعر وقبعاتنا المثلثة الأضلاع وملابسنا القصيرة والضيقة؛ فإنه يرى وجوهاً لفحتها الشمس، وغطتها اللحية والشوارب وركام من الثوب الملفوف حول رأس حليقة ولباس طويل يمتد من العنق إلى الكعبين، يغطي الجسد بدل أن يكسوه؛ و(الغلايين) التي يتجاوز طولها ستة أقدام والمسبحات الطويلة في كل الأيدي والجمال المقرفة التي تحمل المياه في أكياس جلدية؛ والحمير المسرجة والملجمة والتي تحمل راكباً بنعلين؛ والسوق غير المزود بما فيه كفاية بالتّمور وبقطع الخبز المدورة والمسطحة، ورهط الكلاب الضالة بالأزقة؛ وتلك الأشباح المتحركة الملفوفة في قطعة ثوب واحدة والتي لا يبدو منها- كنسوة- سوى عيونها. وأمام هذه الجلبة المخدرة للحواس، يعجز عقله عن التفكير. ويجب عليه الإقامة بغرفته بعد ركوب البحر واسترجاع هدوئه؛ كي يتأمل في الأزقة الضيقة غير المبلطة، والمنازل الواطئة المغطاة نوافذها القليلة بالشبابيك. وهذا الشعب الهزيل المائل إلى السواد، الذي يمشي حافي القدمين، ويلبس فقط قميصاً أزرق، ويحيط خصره بحزام جلدي أو بمنديل أحمر.

إن المظهر البئيس الذي يبدو عموماً على الوجوه والغموض الذي يلف المنازل؛ يسمح لهذا السائح بتصور العنف والجشع، وغياب الثقة المرتبطة بالعبودية. لكن المشهد الذي يثير اهتمامه، هو منظر الأطلال الموجودة بالأرض الخلاء. ففي بلداننا تعدّ الأطلال دافعاً

للفضول، ونادراً ما تجد قصوراً قديمة في أماكن بعيدة، كأن خرابها يعلن هجرها من قِبَل أصحابها، وليس عن بؤس المكان. أما بالإسكندرية فإن العكس هو الذي يحصل، فما إن تغادر المدينة الجديدة حتى تفاجأ بمنظر حقل شاسع ممتلئ بالأطلال.

وعلى مدى ساعتين من المشي، نتبع خطاً مزدوجاً مكوناً من الأسوار والقلاع، التي كانت تشكل سياج الإسكندرية القديمة.

هكذا، تجد الأرض ممتلئة بالأنقاض، وجوانب منها مرمية هنا وهناك وأقواس مهدمة وشرفات مجوفة وأحجار متآكلة وفاقدة لبريقها. ونعبر مدخلاً واسعاً، شقته الحفريات، وكثرت فيه الآبار، وتوزعت فيه الجدران المخفية تقريباً والأعمدة القديمة والمقابر الحديثة والنخيل. أما الحياة؛ فهي صادرة فقط عن بنات آوى والعقبان والبوم. ولا يعير سكان المنطقة أي اهتمام لهذا المشهد، لأنهم متعودون عليه، أما الأجنبي الذي تصطدم الذكريات المتوافرة لديه بما يراه؛ فإنه يشعر بالانفعال إلى درجة البكاء، وينساق مع تأملاته التي تصيب قلبه بالحزن، لكن عظمتها تسمو بروحه.

لن أكرر هنا الأوصاف التي قدمها كل الرحالة حول المآثر المتميزة للإسكندرية. ونحن نجد لدى (نوردن) (Norden) و(بكوك) (Pocock) و(نيبور) (Niebuhr) وفي الرسائل التي نشرها السيد (سفاري) (Savary) كل التفاصيل حول حمامات (كليوباترا) وحول مسلتيها وسراديب الموتى والخزانات وعمود (بومبي) الذي كان من الأفضل أن يكون له اسم آخر[1]. إن هذه الأسماء مهيبة، لكن الأشياء المرئية تزيل وهم الصورة المطبوعة؛ ذلك أن عموداً واحداً يمكنه- بفعل ارتفاعه المثير وحجم محيطه والوحدة المحيطة به- أن يمدنا بشعور الاحترام والإعجاب.

---

(1) – يجب أن يسمى من الآن فصاعداً، عمود (سيفير) (Sevère) مادام السيد (سفاري) قد برهن على أنه كان في ملك هذا الإمبراطور.

وقد اختلف الرحالة حول حجم هذا العمود، لكن الحساب المدقق بالإسكندرية يرجع علوه إلى 96 قدماً ومحيطه إلى 28 قدماً وثلاث بوصات.

الفصل الثالث

الانطلاق من الإسكندرية، الطريق نحو القاهرة، مناظر وقُرى ومدن مرئية بسرعة، الدلتا، غداء فاخر في منتصف الطريق، لقاء مع السيد (صموئيل بيكر)، الصحراء، النيل، الجسر الأثري الذي بناه (الإنكليزي ستيفانسون) (Stéphenson)، طيور أبو ساق؛ قصر بنْها الذي اغتيل فيه عباس باشا؛ الخديوي ما قبل الأخير، الأهرام الثلاثة بالجيزة، القاهرة، ظهور قلعة محمد علي ومسجده، التحضير للاحتفال بمقدم (الإمبراطورة أوجيني)، الإقامة بالفندق الملكي، مشاهد من نافذتي، قوة الحريم، الخصيان، ساحة الأزبكية، الندى الليلي، جولة بالأحياء العربية، القاهرة عند المساء.

تناولت عشائي بسرعة داخل فندق (أوربا)، والتحقت بغرفتي لكتابة رسائلي، ولم أتوقّف عن الكتابة إلا عند الثالثة صباحاً. وكان علي النهوض باكراً في الساعة السادسة؛ كي أتمكن من الذهاب إلى رصيف الركوب حوالي الساعة السابعة. هذه الأيام الأولى من رحلتي إلى مصر كانت بمنزلة قفز مثير على الحواجز، يشوبه التسرُّع والمتعة. وقد وفى السيد سليمان بوعده، فقادني بعربته إلى محطة القطار، ورافقني بمعيَّة ضابط آخر من ضباط الخديوي إلى المقصورة المحجوزة.

وعند الثامنة صباحاً، تحرك القطار بسرعة عبر دلتا النيل الخصب الذي يعدّ ثروة مصر الحديثة كما القديمة؛ ذلك أن كنوز الطبيعة لا تنضب أبداً، والأرض الخصبة والخالدة هي دوماً الأم المرضعة لأطفالها الذين يحبونها، ويحرثونها. في البداية، مررْنا يميناً ببحيرة (ماريوتيس) المالحة التي يسميها الإسكندرانيون (ماريوت) والتي قام الإنكليز- خلال حملة بونابرت على مصر- بملئها بمياه البحر لمنع الجيوش الفرنسية من التراجع. وعلى يمينها توجد قناة المحمودية وعمود (بومبي) وصارية سفينة كبيرة غرقت في القديم؛ وقد انتصبت وراءنا؛ مشيرة إلى الاختفاء التدريجي للمدينة عن أعيننا.

كانت المزروعات المحاذية لمجرى النهر تخفف عن أعيننا قوة ضوء الصباح. وتوالت مناظر أشجار النخيل وحقول الذرة والقطن المزْهر. ولوحظت بعض المراكب الشراعية وهي تجوب مياه النهر الهادئة.

وفجأة رسمت أشواك بعض الأزهار البرية- بفضل تسرب مياه البحيرة قرب السكة- حواشيَ ذهبية، تلمع بجانب أزهار حمراء لامعة أيضاً ككتلة مرجانية. وهنا وهناك، يساراً بين المزروعات الوافرة ويميناً على جانب البحيرة المالحة، تقوم أو بالأحرى تقعد قرى بئيسة يقطنها الفلاحون. وهذه المساكن مغاور محفورة بطمي النيل. وعند أبوابها بالخارج توجد مجموعة من الأطفال العراة، الذين يتدحرجون ويتحركون كالحيوانات؛ وكان الآباء والأمهات يشتغلون بالحقول الخضراء المزدانة بالأزهار المحيطة ببيوتهم الرهيبة. وتبدو هذه القرى من بعيد كقطع من الصحراء الموجودة داخل واحة كبيرة. وعلى النقيض من ذلك،

نجد قصوراً غنية محاطة بالأزاهير ومظلّلة بالنخيل على طوال الدلتا. وتعدّ هذه (الفيلات) الجميلة المشيدة حديثاً من قِبل (الباشوات) أو تجار الإسكندرية الذين اغتنوا مؤخراً، كإذلال مرئي خالد وحتْمي يمارسه الغني على الفقير.

مرّ القطار سريعاً بمدينتين صغيرتين هما دمنهور وكفر الزيات، حيث تمتزج المنازل الفخمة بتلك الغيران الوضيعة، التي يتراكم بداخلها ليلاً كل أفراد أسرة الفلاحين مع دوابهم. وتشتهر مدينة دمنهور– التي ترتفع صومعتها عالياً– بموسمها السنوي في مصر كلها، حيث يجتمع الفقهاء والمهرجون لسلب أفراد الشعب ما تبقّى لهم من نقود وتبليدهم بالخزعبلات. وكان السيد سليمان– رفيقي اللطيف الساهر على راحتي– يقدم لي تفاصيل دقيقة حول الأماكن التي نجتازها، ويكتب بنفسه– بكراسة رحلتي– أسماء المدن والقرى. وكنا قد بلغنا وسط الدلتا، حيث تتسرب مياه القناة، وتسمح بظهور حقول من الأزاهير والقصب، تتكاثر فيها طيور أبو ساق. ومازالت هذه الطيور– التي كان يقدسها المصريون القدامى– تحظى باحترام العرب الذين لا يجرؤون على قتلها. وكانت واقفة من دون حراك، تراقب مرورنا بنظرة حزينة ولامبالية، كما يجدر بآلهة طردت من عروشها.

وعند منتصف الطريق، نظم فندق (أوربا) حفل غداء على شرفنا بمحطة مريحة؛ حيث وضعت طاولة كبيرة بقاعة بسطت فيها ستائر بيضاء وأرجوانية مزينة بالأعلام التركية. وأجلسني السيد سليمان عن يمينه ومن حولنا أغلب ركاب سفينة (لوموريس)، من فرنسيين وألمان وإسبان وسويديين؛ أما باقي الركاب؛ فإنهم سبقونا بيوم إلى القاهرة، كما ذكرت ذلك من قبل.

ولاحظ مرافقي أننا– إلى حد الساعة– لم نر أي إنكليزي يصل إلى الإسكندرية، ويستجيب لدعوة الخديوي. فإنكلترا لم تشارك في الحفل، لأنها شككت في إمكانية نجاح هذا العمل الجبار بقناة السويس. وبخصوص الإنكليز، فإنني أريد أن أتحدث هنا عن السيد (صموئيل بيكر) (Samuel Becker) الذي قام برحلة جريئة رفقة زوجته الشابة؛ بحثاً عن منابع النيل. وكانت قراءة رواية هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر؛ ممتعة وفريدة من نوعها.[1]

(1) ومن بينها رسالة إلى جريدة «القرن» تضمنت كل المعطيات التي عرضتها قبل قليل حول الإسكندرية.

وأخبرني مرافقي بأن السيد (صموئيل بيكر) الذي جعله حبه للعلم شبه مواطن مصري يوجد معنا في القطار المتّجه إلى القاهرة. وفي المحطة الموالية كنت مبتهجة بالسلام على هذا الكشاف الجريء. وكان الخديوي قد كلفه قيادة رحلة علمية جديدة داخل إفريقيا الوسطى بمنطقة البحيرات الكبرى[1].

تركنا وراءنا طنطا، تلك المدينة العربية التي ما زالت تقام بها أسواق العبيد؛ والتي يحج إليها المصريون من كل أنحاء البلد. وكلما اقتربنا من القاهرة أكثر زادت سرعة القطار؛ وفجأة تراءت لنا الصحراء من الجانبين فيما وراء الدلتا. وكانت المسافة الشاسعة لتلك الأرض الموحشة تحيط بالأراضي الخصبة بفضل النيل مصدرِ الخصوبة، والشريان الحيوي الذي لا ينضب الذي تسقي مياهه مصر العليا والسفلى.

عبرنا هذا النهر الرائع الذي يختزن تخيُّلات التوراة، فوق القنطرة التي شيدها المهندس الإنكليزي (ستيفنسون) (Stephenson). وقد أدى هذا الأجنبي خدمات لمصر الحديثة، تفوق ما أداه أسمى الموظفين الأتراك.

ويبدو النهر المقدس محروساً بأسراب طيور أبوساق ذات النظرة الغامضة والمتسائلة، التي كان ثباتها يتحدى هدير القطار وسرعته.

ومن بين القصور الموجودة بجانب السكة؛ برز قصر (بنْها)، ذلك المعقل الرهيب للطغيان وللشطط الآسيويين الذي اغتيل بداخله عباس باشا؛ خديوي مصر ما قبل الأخير. وفجأة برزت تحت السماء المتوهجة بضوء الشمس أهرام الجيزة الثلاثة، التي ترتسم خطوطها الحادة، وبانت القاهرة- المدينة الإسلامية المقدسة- بصوامعها العالية كصواري السفن والتي تشكل مجتمعة منظراً هائلاً يطفو داخل الأثير. وكانت قلعة محمد علي ومسجده- بصومعتهما وقبتهما- تطلان على المدينة.

وصلنا إلى المحطة الموجودة بميدان شاسع ممتلئ بالفلاحين والسواقين والحمالين والترجمانات في أبهى ملابسهم؛ مستعدين لخدمتنا. وركبت رفقة السيد سليمان عربة مجرورة بحصانين عربيين، ويقودهما نوبي شاب بقوام ممشوق ورائع وملامح متناسقة وحيوية،

(1) أصدرت مكتبة (هاشيت) (Hachette) العديد من الطبعات لمؤلف هذا المغامر، ومن ضمنها طبعة مزينة بالصور.

ينضاف إليها لطف النظرة. وأعتقد أن هذا العرق العربي بإمكانه أن يشكل نموذجاً رائعاً للنحت!

دخلنا القاهرة عبر شارع مبني حديثاً على الطريقة (الأوربية)، من دون أي تميز يذكر. ومررنا قرب قصر نوبر باشا، الشبيه بأحد فنادق (الشانزيلزي) (Champs Elysées) ثم اجتزنا قوس نصر مصنوعة من الورق المقوى والحجارة، يطليها عمال الصناعة بألوان زاهية. ومن المقرر أن تمر (الإمبراطورة) (أوجيني)- (إمبراطورة) (فرنسا)- تحت هذا الديكور المسرحي بتاريخ 22 من هذا الشهر حيث سيستقبلها الخديوي بالإسكندرية؛ ليقودها بعد ذلك إلى عاصمته؛ في حفل استقبال باهر. وبالمناسبة، تم تنظيف جنبات المدينة والأزقة والحارات القديمة، كما وضعت أمام البنايات الحكومية صقالة ثلاثية الألوان، ستنار فيها الفوانيس على شرف العاهلة.

وبما أن منظر بؤس الفلاحين[1] قد يحزن الضيفة؛ فقد تقرر تعويض أسمالهم بأقمصة جديدة. وقيل لنا: إن عملية توزيع الملابس تتم يومياً بالقاهرة، كما أُمر الشواش[2] بعدم استعمال (الكرباج)[3] لضرب الفلاحين خلال مُقام جلالتها؛ إلا في أماكن مغلقة؛ لكي يظهروا أمامها بوجه آخر [غير حقيقي]. وفي الواقع، فإن كل موظف من موظفي الخديوي كان يسعى إلى تقليد (بوتمكين) (Potemkine) الذي كان يوهم (كاثرين) (Catherine) العظيمة برخاء دولتها.

وفيما وراء قوْس النصر المؤقت؛ يؤدي الشارع إلى ميدان الأزْبكية الواسع، الذي جعل منه إبراهيم باشا أحد أجمل الأماكن في العالم. كل أشجار الشرق كانت موجودة به، إضافة إلى نباتات آسيا وإفريقيا التي تم تخصيبها بفضل مياه النيل. وكانت النباتات الوافرة والمتعرّشة تحيط بجذوع النخيل والكروم التي تنوء تحت ثقل عناقيدها ذات اللون الياقوتي. ووسط هذه النباتات، كانت الجِمال والجواميس موجودة بكثرة؛ وكان نشيد الطيور يمتزج بطنين

(1) العرب والفلاحون هم من العرق نفسه. لكن عادة ما ينعت القروي الذي يحرث الأرض أو المياوم الذي يقوم بأعمال وضيعة بالفلاح.
(2) هم رجال الأمن المصريون.
(3) هو سوط بقبضة نحاسية وبأربعة سيقان، يعاقب به الفلاحون.

الحشرات وبحفيف الزواحف. لقد كان كل شيء غريباً وجميلاً.

أما اليوم، فلم تعد الأزبكية سوى ساحة جرداء؛ ولم يبق من حديقتها الأصلية سوى حزام من الأشجار الباسقة، وتغمر الشمس الإفريقية هذا الميدان الشبيه بميدان (باريس)، والذي تحيط به المسارح المشيدة حديثاً والفنادق (الأوربية). وبمساعدة السيد سليمان نزلت بالفندق الملكي؛ بغرفة في الطابق الأول. وقد حافظت الأجواء المصرية- كما في عهد (كليوباترا)- على ذلك التأثير المدوّخ الذي يزعج الأوربيين. فأنت تشعر بغياب تلك (الدينامية) الأخلاقية في خدمات الفنادق. ورغم المبلغ المالي الهائل الذي خصصه الخديوي لكل واحد من المدعوين؛ إلا فإنني لاحظت- وأنا أدخل غرفتي- غياباً تاماً لكل وسائل الراحة والنظافة. كان نصف الأثاث مهشماً والفراش صلباً كـ(الغرانيت)إضافة إلى غياب الستائر بالنوافذ والأقفال بالأبواب والآنية الخاصة بالاغتسال. وأعتقد أن نزلاً سويسرياً متواضعاً هو أفضل من هذا الفندق ذي الأدراج الرخامية. ولم أتمكن من القيلولة في هذه الغرفة البئيسة بسبب كثرة الذباب والناموس، لذلك حاولت التغلب على تعبي بالنظر من نافذتي إلى حركة الراجلين والراكبين بميدان الأزبكية.

كانت كل عربة مرفوقة بسائس أو اثنين، وهما فلاحان تراوح أعمارهما ما بين اثنتي عشرة وخمس عشرة سنة، مهمتهما إثارة الجياد والجرْي بجانبها. ويتوافر السائس على قوة العدّائين ومرونتهم في الأزمنة القديمة، حيث يجرون بأقدام حافية، ويلبسون قميصاً قصيراً ذا لون أبيض، وسترة من دون أكمام من المخْمل المطرَّز بخيوط ذهبية؛ وقد ارتد شعرهم إلى الوراء. وعند حلول الظلام، تراهم يحركون المشاعل في الهواء، وتصدر عنهم أصوات تعني: افسحوا الطريق! افسحوا الطريق! إلى اليسار! إلى اليمين! وهو السلوك نفسه الذي يقوم به أصحاب الزوارق بـ(البندقية)؛ عندما يخترقون منعرجات القنوات.

أما الحمير فعددها أكبر من العربات. لقد ظل هذا الحيوان التوراتي وسيلة الركوب المحبوبة لدى المصريين. والحمير أنواع؛ فأنت ترى الحمار غير المسرج بشعره المهمل وجلده الخشن وحافره المغبرّ، والذي يركبه الفلاح العربي الفقير بحمولته من الفواكه والخضر، كما ترى الجحوش ذات الشعر اللين والعين الذكية والأذنين الصغيرتين القائمتين كقرني الظبي؛

وهي مسرَّجة بشكل جيد؛ ويفضلها الموظفون الأتراك والأوربيون الذين تجبرهم أعمالهم على الإسراع عبر الأزقة الضيقة للقاهرة.

أما نساء الحريم[1] الجالسات على ظهر هذا الحيوان الوديع الذي حظي دوماً بالاحترام في أرض (الفراعنة)؛ فإنهن يباعدن بين ساقيهن في أثناء ركوبهن على ظهره، ويشعرن بالمتعة وهن يجبن المدينة، ويزرن المتاجر للتسوق.

ومما زاد من فضولهن ذلك اليوم، هو وصول كل هؤلاء الأجانب ضيوف الخديوي، وقد كن مرفوقات بمخصي أو مخصيين، ويتمايلن باسترخاء فوق جحوشهن الأنيقة والنشيطة، متلفِّعات بردائهن الحريري الأسود مثل قطعة (دومينو)؛ وقد برزت بطونهن مثل صراصير اخترقتها الإبر. ويسمح هذا الرداء المفتوح من الأمام (العَباية) بإظهار تنورة من الحرير الوردي أو الأصفر. وهُنَّ يضعن الخمار فوق الأنف مباشرة، وهو أيضاً من الحرير الأسود ويتم ربطه بمنديل من القماش نفسه موضوع أسفل الوجه بوساطة شوكة أسطوانية من الذهب أو الفضة. ولا تبدو منهن سوى العيون الجميلة؛ وبأرجلهن نعال كبيرة صفراء وحمراء، حيث ترى النساء اللواتي يتجولن بالأزقة وهن يمشين كبطات محاصرات داخل مكان موحل.

وتتجول أكثرهن جمالاً وشباباً وغنى داخل عربات مغطاة أو مكشوفة، تشمل ستة أفراد. وهن يرتدين ملابس ذات ألوان زاهية، بدل اللون الأسود؛ وغالباً ما تفضل نساء الحريم الأنيقات اللون الوردي. ومن الممكن التقاؤهن عند الغروب بممرات شُبْرَا، حيث يتجول متأنقو القاهرة، وتراهن بمراوحهن وبعيونهن البراقة، مثل المتبرجات الباريسيات الموجودات حول البحيرة. وبجانب الحوذي يوجد مخصيان واقفان بمؤخرة العربة، وتتمثل مهمتهما في السهر على ألا يؤدي دلال النسوة إلى ما لا تُحمد عقباه. لكن، قد يحدث أحياناً أن ينبهر الخصيان بمنظر الأحجار الكريمة التي تتزين بها النساء الغنيات، فيتخلون عن مراقبتهن طمعاً في الحصول على بعضها.

والملاحظ أن هؤلاء الساهرين على عفَّة النساء المكرهات؛ يرتدون زياً واحداً مكوناً من

(1) الحريم لفظ يطلق على النساء، وقد يطلق على مكانهن في الدار. جاء في لسان العرب: الحريم قصبة الدار، وحريم الدار ما دخل فيها مما يغلق عليه بابها. والمقصود هنا جناح النساء في القصور أو البيوت الإسلامية. (المحرر).

(السراويل) والعباءات الطويلة السوداء؛ مما يجعلهم شبيهين برهباننا المكسوين على الطريقة (البرجوازية). وهم يحملون جميعهم سلاسل ذهبية غليظة علقت بها بعض الحلي وساعات ضخمة من الذهب أو الفضة؛ تدعى المبخرة، وبأيديهم السوداء أو السمراء تلمع خواتم، تتناسب قيمتها وغنى الحريم الذي يرتبطون به. وكان الخصيان فيما مضى يمارسون داخل هذا الحريم سلطة رهيبة ومهابة. ولأن أسيادهم كلفوهم حراسة النساء حراسة مشدَّدة، فإنهم كانوا يسمحون لأنفسهم بضربهن عند الاقتضاء من أجل الحدّ من أهوائهن ونزواتهن. إنهم أدوات الطغيان الهمجي، وبسبب وضعهم غير الطبيعي الذي خلقه هذا الطغيان نفسه؛ فقد اتصفوا بالحقد والقسوة، بحيث ينتقمون من هاته النسوة البئيسات الخاضعات للأسياد؛ ما داموا غير قادرين على مواجهة هؤلاء. كما أنهم لا يعرفون معنى العطف والحنان، ويشعرون بغطرسة حيوانية وهم يمارسون تجسُّسهم؛ ويعتقدون- وهم العبيد- أنهم أصبحوا أسياداً بتعذيبهم للإماء. كما تمكنهم الوشاية المخزية من التحكم في مصير النسوة الخاضعات لمراقبتهم، لذلك فإنهن يشترين صمت هؤلاء الخصيان بالهدايا وبالتودُّد والانغماس معهم في الفواحش والرذائل وجمع المال؛ مما يجعل من مرتع الحريم أكثر الأماكن فساداً في العالم.

وأعتقد أن التيار الأوربي سيحمل معه ريحاً مطهرة لهذه السجون الشرقية. هكذا، حملت الثورة الفرنسية عند دخولها لهذه القلاع إصلاحاً أخلاقياً؛ فالأتراك الذين يقلدون عاداتنا؛ لا يسمحون للخصيان اليوم بممارسة رقابة مستبدة على حريمهم. وبذلك أصبح هؤلاء مثل أسود بؤساء، قُطعت مخالبهم؛ من خلال قطع شيء آخر، فلم يعودوا سوى قطط رخْوة، لكنها مثيرة للشفقة. واقتصر دورهم على الخدمة بالمنازل الكبرى، حيث يعدّون ترفاً همجياً للأتراك الأغنياء، مثلما كان التّرف السخيف في امتلاك خدام مزينين بالمساحيق عادة متبعة لدى العائلات القديمة أو الوصولية بشرقي (أوربا). ولا شيء يثير الاشمئزاز أكثر من رؤية هاته الكائنات التي بُتر عضوها التناسلي بملابسها الشبيهة بملابس الرهبان، وبعيونها السوداء الكبيرة التي فقدت بريقها، وبملامحها التي ترهّلت مبكراً بعد أن كانت حيوية في الأصل. وعندما يمد إليك هؤلاء الخصيان يدهم أو معصمهم المثني؛ ليساعدوك على الصعود إلى العربة أو النزول منها؛ فإنك تشعر بالاشمئزاز من ملامسة بشرتهم الباردة واللزجة مثل جثة. ويبدو أن بتْر ما يُعدّ مصدر الحياة لديهم جعلهم يدخلون عالم الأموات

وهم أحياء. وسأتحدث- عند روايتي لزيارة الحريم- عن شعور بالقرف القريب من الخوف، الذي ينتابني بقوة كلما رأيت هذه الكائنات البئيسة. ومع ذلك، فقد التقيت خصياناً رائعين، وديعين ومتواضعين، حزينين صابرين ومخلصين لسيداتهم مثل كلاب الحراسة، بحيث تمتد خدمتهم لتشمل صديقات هؤلاء السيدات، من الأوربيات. بيد أن شفقتي عليهم ومسوغاتي الفلسفية لم تمكني من التغلب على شعور الاشمئزاز الذي ينتابني عند رؤيتهم.

طبعاً، فملاحظاتي ظلت خارجية وسطحية عند اليوم الأول من وصولي إلى القاهرة. لقد شاهدت الفلاحات وهن يمشين بسرعة في أزقة المدينة؛ حاملات فوق رؤوسهن رزماً ثقيلة أو جرات كبيرة، شبيهة بجرات الأزمنة القديمة؛ وكن متلفعات بحجاب من القطن الملون بالأزرق، لكنهن كن أكثر رشاقة من نساء الحريم. لقد أضفى العمل على جسدهن المرونة والحيوية، في حين أصبح جسد الأخيرات مترهلاً، فاقداً لنضارته بفعل حياة الاسترخاء والكسل. وأمام الفندق الملكي وتحت ظلال أشجار (الأكاسيا) و(الجميز) المحيطة بميدان الأزبكية، كان بعض العرب الذين تبدو علامات الرفاهية من خلال ملابسهم؛ متحلقين حول طاولات صغيرة دائرية يلعبون الشطرنج. وهم يستمتعون بهذا الوضع لساعات طويلة، صامتين، وقورين وجامدين. وقد يعتقد المرء أنهم نائمون لولا لمعان أعينهم. وبين الفينة والأخرى؛ يعزف الموسيقيون بعض الأنغام العذبة على آلة (المندولين).

مكثتُ بنافذتي إلى أن حلّ الليل؛ وهو ليل مفاجئ، لا يلي مرحلة الغروب؛ إذ نمر مباشرة من اللون الأرجواني البرّاق والأشعة الذهبية لشمس الغروب إلى اللون الرمادي. نجومها متلألئة ومضاءة بالقمر الذي يبدو قرصه الكبير. ويتم الانتقال أيضاً على نحو مفاجئ من الحرارة الملتهبة بالنهار إلى البرودة التي تخترق مسام الجلد.

أغرتني هذه الليلة الجميلة، اللطيفة والغاوية مثل عرائس البحر الأسطورية؛ فركبت العربة رفقة امرأة فرنسية تسكن القاهرة منذ عدة سنوات، وتوجهنا إلى الأزقة التي يقطنها العرب، من عمال وتجار صغار.

كانت الدكاكين مغلقة. إنها محلات مربعة الشكل توجد بالطابق السفلي، بحيث تتحول عتباتها في الليل إلى مراقد يتمدَّد فوقها حراس البضائع. وتمتلئ المقاهي العربية الصغيرة

الواطئة والمظلمة والممتلئة بالدخان؛ بالمستهلكين الذين يلعبون أو يدخنون أو يرتشفون ببطء قهوتهم الساخنة، أو يسردون أحداث اليوم.

كان ضيوف الخديوي موضوع الحديث في تلك الأمسية؛ ولم يكن الرواة العرب مهتمين بالقصص الغريبة قدر اهتمامهم بسرد الوقائع المعيشة وفضائح الموظفين السامين الأتراك، ولمكافأة هؤلاء الرواة؛ كان المستمعون يؤدون ثمن ما يستهلكونه. هكذا، تم إخبار هؤلاء بالمجموعات الأوربية التي انتشرت بالقاهرة وبالضرائب التي تم فرضها لإشباع هذه (العلقات) التي استضافها الخديوي وبعدد ضربات (الكرباج) التي تلقاها الفلاحون المعاندون.

والملاحظ أن رقابة الجمهور على مفاسد الحكام ومظالمهم أصبحت تغزو الشرق؛ فهنا أيضاً بدأ الشعب يتساءل: كيف يُحكم؟ وبأي حق يشغَّل دون هوادة؟ لقد انتهى عهد الخضوع المطلق لمشيئة الحكام، وتمكنت العقول في القاهرة من التحرر من جبرية الدين.

حضرنا في تلك الليلة إحدى الحفلات الدينية التي كانت شبيهة إلى حد ما (بكرنفال). لقد اصطف حوالي عشرين رجلاً، بحيث يحك كل واحد (كرشه) بمؤخرة الآخر. وكانوا يحركون أكتافهم بعصبية، ويصرخون، ويغنون، ويبتهلون إلى الله. وغير بعيد عنهم؛ كانت الطبول تقرع وتغطي صرخات طفل أمام منظر الموسى التي ستجعل منه مختوناً جديداً داخل أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

واقترح علينا عربي مسطول بالحشيش الجلوس بين النساء اللواتي كن يتابعن هذه العملية (العبرانية) في أصلها والتي كانت مرفوقة بالأهازيج المرحة. وأخبرتني مرافقتي بأن الأوربيين [النصارى الكلاب] لم يكن بإمكانهم منذ أربع سنوات خلت التشويش– من دون عقاب– على الشعائر الإسلامية كما تفعل عربتنا اليوم، حيث أجبرت كل هؤلاء الورعين على الالتصاق بجدران المنازل، وهم يسمعون صياح السائس: «افسحوا الطريق! افسحوا الطريق!» في حين أن الحوذي يلهب ظهر الجوادين بالسوط؛ ماراً وسط الحشود المرحة والثّملة.

بدت لي القاهرة تحت ضوء النجوم والفوانيس التي تنير الأزقة الضيقة والمصابيح الغازية

التي تضيء الشوارع الواسعة؛ كأنها مدينة تبنى من جديد. المنازل الكبيرة والمسارح والمصانع تشيَّد وفق الهندسة الأوربية، وترى عمليات الحفر في كل مكان؛ في الميادين والساحات.

لقد صارت الحمى المفلسة لما يُزعم أنه تزيين وإصلاح- على طريقة الأشغال عندنا- تبلغ أوجها بالقاهرة. وأعتقد أنها لن تؤدي إلا إلى نتائج سلبية بهذه المدينة؛ ذلك أن الأزقة الضيقة والملتوية كانت ملجأ نافعاً ضد الشمس الإفريقية الحارقة. وإذا ما نزعنا عن القاهرة البرودة والظلال؛ فإننا سننزع عنها ما هو صحي لسكانها.

وعلى المستوى الفني، فالبنايات مبتذلة ومن دون ذوق. هكذا، تهدم روائع الهندسة العربية التي لا يمكن محاكاتها، وتشيّد بدلاً منها هذه البنايات الجديدة بميزانيات ضخمة. مررنا أمام أحد قصور الخديوي الموجودة قرب الأزبكية، والمزين بصقالة من الخشب المصنوع من أجل تدعيم المصابيح الموضوعة على شكل هلال، والتي ستضاء عند مقدم (الإمبراطورة). ولاحظنا الشيء نفسه بحي الشرطة الذي اجتزناه عند رجوعنا إلى الفندق الملكي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً. ومن هذه الجولة الليلية غنمتُ بحُّة تامة للصوت وحمى خفيفة، لكن هذا لم يمنعني من الاستيقاظ في السابعة من صباح يوم الاثنين 22 (أكتوبر).

كان الشعار الأساس في هذه الأيام المحدودة من رحلتنا هو الذي تبنّاه يهودي جوّال في الخرافة وهو: «سرْ! واستمر في سيرك!».

الفصل الرابع

مظاهر الأحياء التجارية بالقاهرة، القلعة، مسجد محمد علي، إبادة المماليك، جنون الضحية وجنون الجلاّد.

سبق أن أشرنا إلى أن موظفي تشريفات الخديوي وضعوا رهن إشارتنا عربة وترجماناً، من السادسة صباحاً إلى منتصف الليل. وأتمنى لكل زائر للقاهرة أن يلتقي ترجماناً في ذكاء علي مرجوان وشجاعته. وعلي هذا أعور، لكن وجهه متنوّر ببريق العين السليمة. وسيتعرف قرائي بعد قليل إلى هذا العربي الشهم. بدأنا جولتنا الصباحية بزيارة القلعة. هكذا، اجتزنا أولاً الأحياء التجارية. وبالنسبة إلى الأوربي؛ فإنه لا شيء يضاهي جاذبية متاهة (فيكولي) (Viccoli) وغرابتها، التي تذكّر بتشابك أحياء مدينتي (جنْوة) و(البندقية) بـ(إيطاليا)، لكن مع تزايد حالات الاصطدام المدهشة بين الراجلين وسائقي العربات التي لا تعرفها المدن الإيطالية. الأمر يتعلق بتنوع الملامح والأزياء الذي يضفي على المدينة المصرية خاصية مميزة لها. إنه تقاطعٌ بين اللغات المحلية، التي هي لهجات أكثر منها لغات، حيث تجد الفرنسية الرديئة والإيطالية المبتذلة واليونانية الفظة، الخاضعة جميعها للنبْرة العربية.

اجتزنا الموسكي أولاً، وهي إحدى أوسع حارات القاهرة، حيث تجد المقاهي الأوربية ومتاجر النسيج الفرنسي ومحلات الصاغة وملابس الموضة والحلاقة.

وكان كل سائس يبذل قصارى جهده- عبر تحريك ذراعه والصراخ- حتى تتمكن عربته من اجتياز الحارة المزدحمة، وكأننا أمام موجات نهر تنْدفع داخل أنابيب ضيقة، بحيث لا يمكنها الخروج إلا بضغط عنيف من الموجات التي تليها. وتتحرك العربات المدفوعة من قبل السائسين ببطء؛ مصطدمةً بالجمال والحمير والأغنام والماعز، وبالفلاحين البؤساء من رجال وأطفال ونساء، المحملين بالأثقال مثل الدواب، والذين يتلقون ضربات العصي إذا هم لم يفسحوا الطريق أمام الممتطي فرساً أو الراكب عربةً. ويبدو سكون التجار الأتراك أو العرب الجالسين القرفصاء وهم يدخنون (الشيبوك) داخل محلاتهم الشبيهة بالأقفاص، متناقضاً مع حركة الأمواج البشرية بالخارج.

وإذا ما رفعنا رؤوسنا باتجاه المنازل العالية الموجودة بجانب هذه الأزقة؛ فإننا نتخيل- فوق نسيج الكتان المبسوط للحماية من أشعة الشمس الحارقة- متنزهات صغيرة زرعتها نساء الحريم بالأزهار. وأحياناً ما تسقط بضع قطرات من المرشّات فوق رأس المارة.

يعدُّ الماء نعمةً في هذه المدينة الحارقة، فالنيل هو المزود لمنابع المياه التي يتوفر عليها كل حي. وينبع الماء من قبب جانبية ذات هندسة عربية، مزينة ومصبوغة بهذا القدر أو ذاك؛ بحسب مستوى المحْسن الذي بناها حباً في الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وثروته. ولو لم تكن هذه المنابع محاصرة بالمنازل لكانت أجمل؛ ومع ذلك، تجد أقداحاً من الحديد مربوطة بالسلاسل، وهي مخصّصة للعابرين الذين يريدون إرواء ظمئهم. هكذا، يتهافت العرب- البؤساء المتشبثون بتعاليم القرآن التي تمنع الخمر، وتأمر بالوضوء- على هذه المنابع، مثلما يتهافت سكان (لندن) أو (باريس) على محلات المشروبات الروحية.

اجتزنا باباً كبيراً محاطاً بالأطلال، ثم صعدنا الطريق الملتوية المؤدية إلى المقْطم، وهي أعلى نقطة بالقاهرة. وكانت القلعة القديمة تجثم فوق هضبة بعلو 95 متراً، فوق مياه النيل. وتتضمن بنايات عظيمة من مختلف الأزمنة، حيث تعود الحصون والأبراج والمسجد العتيق الموجود باليسار مثلاً إلى فترة حكم السلطان صلاح الدين (من 1139 إلى 1170م). وتبدو القلعة منظوراً إليها من أعلى- بأزقتها وقصورها وأبراجها ومساجدها- كمدينة متكاملة. ومن إصلاح إلى آخر تحولت قلعة صلاح الدين إلى مجموعة من المآثر المتنافرة من حيث أسلوب بنائها. وقبل خمسين سنة، كانت أسوار القلعة ما تزال محيطة بأروع البنايات المجسدة للفن العربي؛ حيث كانت تشمل قصر صلاح الدين، المسمى أيضاً ديوان يوسف، والذي ترتكز قاعته الرئيسية على اثنين وثلاثين عموداً، ذات كتلة حجرية واحدة، ومسجد (قَلاوون) الهائل، إضافة إلى دواوين شيقة ذات هندسة بديعة مزركشة باللونين الأزرق والذهبي.[1]

في سنة 1823 وقع انفجار هائل، دمر جزئياً هذه المآثر التي لا تضاهى، وبعد ذلك بقليل، استمرت عملية الهدم من أجل بناء مسجد محمد علي. وهو أول شيء يتم عرضه للعيان؛ ويأتي بعد ذلك بئر يوسف والبرج الشهير الذي قفز منه أمير باي فوق حصانه؛ وبهذا الفعل الجريء أنقذ نفسه من موت محقق سيصيب كل المماليك الذين تركهم وراءه (كان ذلك سنة 1811).

وبعد أن اجتزنا باباً مقبَّباً ومحروساً من قِبَل بعض الجنود؛ بلغنا ساحة الرميلة. وعلى اليسار، ينتصب البرج الذي قفز منه أمير باي كما قلنا؛ أما على اليمين فيوجد الديوان الحالي.

(1) الدواوين هي الأمكنة التي كان يجتمع فيها الموظفون الأتراك السامون.

وتركنا على يميننا مسجداً مهجوراً، إلى أن وصلنا إلى الساحة التي بني بها مسجد محمد علي الرائع، وهو المسجد الذي شرع في بنائه سنة 1829 ولم ينجز نهائياً إلا بعد عشرين سنة. وقد طبعته الشمس التي ترسل أشعتها على المرمر والرخام بطابع القدم الذي يضاعف من بهائه. وتعدّ أعمدة الباحة والنافورات المخصصة للوضوء وأفنية المسجد؛ تحفاً فنيةً. وقبل أن يُسمح لنا بالدخول إلى الباحة المقدمة؛ ناولنا المشرفان على المدخل خفين مطهرين، ثم مدا أيديهما لنا لأخذ (البقشيش) الذي لا يقل قداسة.

هكذا، اجتزنا باحة المسجد البهيّ، وعن يميننا وجدنا- وراء شبكة مذهبة- قبر محمد علي قرب (قفزة المملوك)؛ وهو ما يذكر بالعمل الوحشي الذي يلطخ ذاكرته. وسأجتاز لاحقاً حاجز القبر رفقة حفيدة رائعة لهذا الخديوي، والذي كان مؤسساً للأسرة الحاكمة بمصر، عندئذٍ سأقدم عدة تفاصيل متعلقة بهذا الضريح الغريب. وكان عدة شيوخ متمددين حوله؛ وعند اقترابنا منهم استيقظوا متثائبين وسألوا ترجماني عن هويّتي وهم يتبادلون معه النشاق. وكانوا متسخين ومنفرين، ويشبهون الكهنة المسيحيين بـ(إيطاليا) الجنوبية. وجاء بعض عساكر القلعة باحثين عن الظل والبرودة تحت القبة الناصعة؛ فاتكؤوا على الأعمدة، واستطابوا النوم فوق الزرابي الفارسية التي تغطي الأرضية الرخامية. وكان الهدوء يشوب الساحة الواسعة التي كانت خالية تقريباً؛ لكن خلال الحفلات الدينية، كانت أصوات العلماء تتردد من أعلى الكراسي الرخامية وحينها تشتعل آلاف الفوانيس الفضية المعلقة، وتضيء مثل المبخرات. في هذه المناسبات، يستعير الإسلام من المسيحية تلك الأبهة ذات الطابع المسرحي التي تظهر بـ(روما) في أثناء الأسبوع المقدس. إن الركوع المسيحي والسجود الإسلامي متشابهان، فهما معاً يقتضيان فناء للعقل الإنساني في الإيمان، حيث يعلِّمان ما يستحيل تحققه، ويحولان الإنسان إلى كائن مسالم ينطبق عليه القول المأثور (لبليز باسكال) (Pascal): «لكي يؤمن المرء عليه أن يتبلَّد»[1]. لكن الإنسانية تمكنت منذ حوالي مئة سنة من تحقيق القطيعة مع هذا التبليد الذي يعدّ شرطاً لازماً لوجود الديانات والطغيان.

هكذا، كنت أحلم داخل مسجد محمد علي، وأنا أتذكر حلماً شبيهاً راودني منذ ثماني سنوات

(1) الإيمان قرين العلم والتفكر في الكون، فكيف يكون تَبَلّداً؟ (المحرر)

بـ(روما) داخل كنيسة القديسة مريم الكبرى (Basilique de sainte Marie majeure)[1]، واستمر ترجماني علي في الحديث مع الشيوخ، حيث قدم لهم معلومات حول ضيوف الخديوي الذين غزوا القاهرة، بمن فيهم الأكثر سطحيةً وتبعيةً (للإمبراطورية) ومقاومةً لروح الثورة (التي انتهكت مرتين من قِبل أسرة بونابرت الحاكمة)؛ والذين جلبوا معهم- لا شعورياً ورغماً عنهم- نفساً ونسيمً ولقاحاً مستمداً من هذه الثورة المنتصرة.

وعندما نعرج على يسار ساحة المسجد؛ نجد أنفسنا ونحن نغادر المكان بجانب الهضبة المطلة على الهوة العميقة، التي ألقيت فيها سنة 1811 الأجساد المضرجة بالدماء لعشرين ألف مملوك تم ذبحهم بأمر من محمد علي.[2]

وإذا ما كانت إبادة المماليك الهمجيين وغير المنضبطين المعروفين بجرائمهم ورذائلهم الفظيعة[3]، ضرورية للحفاظ على نظام الباشا الكبير؛ فإن المرء يشعر بالخزي أمام هذه المجزرة الفظيعة التي اقترفت في القرن التاسع عشر من لدُن حليف لـ(فرنسا)، يطمح في أن تسير مصر على نهج هذه الأخيرة. فلم يكن محمد علي يسعى إلا إلى تأكيد سلطته؛ وبذلك اقترف هذا الفعل المَقيت بمكر الهمجي وقسوته.

كان يستعد للذهاب إلى مكة؛ ولأنه خشي من وقوع تمرد للمماليك في أثناء غيابه؛ استدعى كل رؤسائهم- مرفوقين بأتباعهم جميعاً- إلى عشاء وداع في قصره بالقلعة. وكان هذا القصر- على ما يبدو- هو قصر صلاح الدّين الذي لم يبق منه اليوم سوى الصالات الملحقة بالديوان وبرج المماليك الشهير.

وكما قلنا: فإن باقي البنايات هدمت، وشيد على أنقاضها مسجد محمد علي الذي تطل باحته على هوة. فقد بنى هذا الخديوي في أوج عظمته مكاناً للعبادة فوق مسرح جريمته؛ على أمل أن يغفر له الله ما تسبب فيه من إراقة للدماء؛ وهذا تقليد متبع لدى كل المستبدين في الأرض.

(1) انظر كتابي، «إيطاليا للإيطاليين»، المجلد الرابع.

(2) لم يكن كتاب القرنين السابع عشر والثامن عشر يشعرون بالحرج من جراء استعمال هذه الكلمة. فهل أصبحنا أكثر تصنعاً للحشمة منهم؟ وهل أصبحنا طاهرين أكثر منهم؟ تلك هي المسألة.

(3) إن عدد 20 ألف الذي تم تقديره بخصوص مجزرة المماليك يتضمن من دون شك، أولئك الذين قتلوا في جميع أنحاء مصر بأمر من محمد علي، في الفترة نفسها التي كان يشرف فيها على عملية الإبادة بالقاهرة.

وللوصول إلى القصر؛ كان من اللازم المرور عبر أزقة ضيقة ممتلئة بالأسوار والمنازل. فأمر محمد علي بأن يتمركز جنوده المشكلون من ألبانيين مخلصين؛ عند مخارج الأزقة وبأن يبيدوا من دون شفقة كل المماليك المغادرين للقصر. واتبعت الأوامر بتلك الوحشية الدموية المميزة لعبيد تربوا على فكرة القتل وعلى الطاعة العمياء لسيد مهيب. وعند نهاية الحفل الملكي واستمتاع الحاضرين بالأغاني والموسيقى وبالرقصات المثيرة للغانيات و(بنرجيلة) السلام التي تم تدخينها، تحت النظرة الأبوية للسيد، خرجت الفصائل المسلحة للمماليك من القصر، ومرت عبر الأزقة؛ حينها بدأت المجزرة، وفوجئ هؤلاء بالهجوم؛ وقبل أن يفكروا في الدفاع عن أنفسهم، كانوا قد ذبحوا عن آخرهم. وكم كانت المجزرة فظيعة! إذ جرى الدم كالسيول عبر شقوق الجدران وبين الصخور التي ألقيت بها الجثث.

وحده أمير باي ألقى بنفسه من أعلى البرج الذي سيحتفظ باسمه وهو راكب حصانه. وتلقاه الفلاحون البؤساء، وأخفوه عن الأنظار. غير أن ذكرى هذا المشهد الرهيب أدت به إلى الجنون، وظل صراخ رفاقه في السلاح ملازماً له طوال الوقت. وسيحظى جنونه باحترام العرب. ومن غريب المصادفات، أن محمد علي سيموت بعد إصابته بالجنون أيضاً، مثل ضحيته الوحيدة التي سلمت من المذبحة! لقد حاول الجلاد الملكي دفن هذه الآلاف من الأشباح، تحت رخام مسجده، لكن من دون جدوى؛ بحيث كانت تظهر أمامه باستمرار، بين أعمدة الرخام بتهديدها ووعيدها. ومن النافورة الرائعة التي يخرج منها الماء للوضوء كانت تنبعث الدماء؛ وكأنها عين لا تنضب. وبذلك أصيب الخديوي بنوبات عنيفة من الجنون. فهو- وإن تمكن من قتل كل المماليك- فإنه لم يستطع القضاء على أشباحهم. وهكذا، قضت الرؤى على القوة.

ورغم أن المرء يصاب بالرعشة عند رؤيته للصخور الشاهدة على قفزة المملوك، كواقعة تاريخية حقيقية؛ فإن رعب هذه المأساة سرعان ما يتبدد أمام روعة المنظر العام للقاهرة الذي يبدو أمام العين. هكذا يمكنك الجلوس على جانب الهاوية خوفاً من أن يصيبك الدوار؛ وتعمل من فرط الانجذاب على تسجيل هذه اللوحة في ذاكرتك؛ والتي يمكن عدّها من أورع لوحات العالم.

وعلى الضفة اليسرى للنيل، تبدو أهرام الجيزة الثلاثة جاثمة قرب سلسلة الجبال الليبية؛ ووراءها عمق يمتزج فيه اللون الذهبي بلون السماء الوضاءة. ويتقدم النهر العظيم بجلال وبطء نحو المدينة المقدسة، محيطاً بذراعيه المنيرتين جزيرة الروضة الخضراء؛ حيث توجد (فيلات) عديدة مظللة، محاذياً للقاهرة القديمة وشارع بولاق وملتفاً حول جزء من المدينة الكبيرة، يبرز على شكل نتوءات أسفل القلعة. هناك تبدو القبب الضخمة للمساجد والصوامع العالية، عارضة رخامها المتقن الصنع أمام زرقة السماء. ومن بعيد تظهر قناة مائية، تذكر بقنوات الريف الروماني وهي تنطلق من القاهرة القديمة، وتبسط أقواسها حتى القلعة التي تجلب إليها مياه النيل.

وعلى مسافة أبعد، ترتفع أهرام سقارة نحو السماء وبالصحراء المحيطة بها؛ وهي أصغر من أهرامات الجيزة، لكنها أقدم منها. وعلى طول ضفتي النهر، تتناوب أشجار النخيل مع المساكن في الظهور، وتبسط عروشها الكبيرة نحو الأثير. وتعدّ الصحراء الكئيبة والقاحلة التي تبدو وكأنها تحترق تحت الشمس؛ كإطار ممتد لهذه المدينة الرائعة وللنيل المخصب للنباتات الوافرة. ويتميز منظر هذه العناصر جميعها بالإثارة والعظمة. ذلك أن المرء يشعر بالتيْه داخل هذه الطبيعة التي تسحق، وترعب الأوربيين غير المعتادين على قساوتها.

تمكنتُ بمساعدة ترجماني علي- لكن بصعوبة كبيرة- من النزول إلى الصخرة المنحرفة التي يطل عليها المسجد. وعبرنا التّحصينات الجديدة التي يشتغل عليها الفلاحون البؤساء تحت إمرة الجنود. وعلى اليمين، يوجد قصر محاط بعدة حدائق، وهو مكان للترفيه، شيده الخديوي مؤخراً، حيث تجد بداخل قاعاته العادية المغطاة بورق الجدران أغنى الأثاث الباريسي. وقررت الابتعاد عن هذا المسكن (البرجوازي)، وصعدت عقبة موحلة إلى أن وصلت إلى البئر الشهيرة التي تنسبها الخرافة إلى يوسف بن يعقوب. وكانت هذه البئر قد حفرت في عهد صلاح الدين. ولكي تصلها مياه النيل؛ كان من الضروري القيام بثقوب في الصخر بعمق 84 متراً. وهناك ناعورة تجرها الثيران، تجلب الماء إلى البئر، فيمتلئ إلى النصف، ثم تستعمل وسيلة أخرى لجلبه إلى أعلى. ويستخدم هذا الماء المالح لإرواء الحيوانات فقط. أما بالنسبة إلى حامية الجنود ولباقي سكان القلعة؛ فإن القناة التي تحدثت عنها، هي التي تجلب مياه النيل. وكانت الجياد والحمير والجمال تروي ظمأها ببئر يوسف؛ بحيث كان فلاح عجوز يضع لها

حصتها من الماء بإناء حديدي. ومن هذه البئر إلى ساحة الرميلة التي تركت بها عربتي، كان يتعين اجتياز البنايات القديمة للقلعة الممتلئة بالبؤساء الذين يطلبون منك الصدقة، وببائعي التُّمور والبطيخ والموز. وعند وصولي إلى ساحة الرميلة؛ شاهدت برج الأمير باي بنوع من الفضول، وعبَّرت لعلي عن شكوكي بقدرة إنسان على القفز من هذا العلو الشاهق؛ دون أن تتطاير أشلاء من جسده. لكن ترجماني أكد لي أنه في فترة إبادة المماليك كان يوجد بقاعة البرج ركام من الأنقاض يشكل تلالاً صغيرة تفضي إلى الهاوية. وبعد الإصلاحات التي أجريت على الساحة وإزالة الركام؛ بدا البرج أكثر ارتفاعاً.

وقررتُ ألا أغادر الساحة حتى أزور الديوان الموجود بيسارها؛ وقد ساعدتني رسالة استدعائي إلى مصر وحجة (البقشيش) الحاسمة على إقناع الحراس بالسماح لي بالدخول. وأثار نظرتي المعجبة- على الفور- باب داخلي رائع من الرخام الأبيض، منقوش بدقة ومصبوغ باللونين الذهبي والأزرق؛ المنعكسين على تيجان الأعمدة الرقيقة. وصعدنا بعض الأدراج الموجودة وراء هذا الباب العربي التي تعدّ إحدى بقايا قصر صلاح الدين. وفتح الحراس أمامنا أبواباً دمشقية ثقيلة؛ لنجد أنفسنا داخل قاعة الديوان الفسيحة التي كان كل شيء فيها يتلألأ تحت أشعة الشمس، من السقف الممتلئ بالزخارف، إلى الستائر والوسائد وكل المفروشات المصنوعة من الحرير وخيوط الذهب. وسأدعو قرائي- في يوم آخر- لزيارة الحواجز الهائلة المحيطة بالقلعة من جهة الصحراء. إن هذه الجدران العالية والغريبة، المتضمنة لأبراج ضخمة ذات لون أصهب مثل الرمال التي تغطيها؛ تبعث على تخيلات من الروعة بمكان. ويتخيل المرء وكأن ريح الصحراء- هذا النفس القوي والسحري للجان- قد تمكن في ليلة استعملت فيها التعاويذ السحرية من جمع الرمال الذهبية وتثبيتها؛ كي تشكل دعامات للجدران المرتفعة نحو السماء ولهذه الحصون والأبراج التي تتحدى الزمن. فمنظر القلعة من جهة الصحراء يذكرني دوماً برسوم (فكتور هوجو) العظيمة التي أنجزها بريشته، كإبداع مرئي وملموس لبنايات متخيلة. وهو ما يؤكد أن هذا العبقري الكامل الفريد والمتعدد المواهب والكامل؛ لو رسم لوحات تشكيلية؛ لأضفى عليها ذلك الإشعاع البراق الذي نجده في كتبه؛ مثلما أضفى على هذه الكتب من قوة الألوان والهيكل والحجم الذي تحتويه الأعمال الكبرى في ميدان الرسم والنحت والهندسة المعمارية.

الفصل الخامس

رفقةٌ حول مائدة الفندق الملكي، استقبالات الخديوي إسماعيل باشا، أوصافه، طبعه الحقيقي، ماذا كنت سأقول له لو التقيته وحده؟، البستاني الضخم وزوجته الشابة، حفلة مسائية بقصر الخديوي على الطريقة الفرنسية، (دوق) و(دوقة) (أوسطي) (Aoste)، حفل شرقي، نهاية الحفل.

بعد زيارتي للقلعة، وعند دخولي متعبةً إلى الفندق في صبيحة يوم الاثنين 18 (أكتوبر) 1869، حظيت بزيارة (طونينو) سليمان اللطيف، الذي قدم لي اثنين من مواطنيه، أحدهما (باي) والآخر أفندي. وعبّر لي هؤلاء الإيطاليون الثلاثة عن تقديرهم العميق مقابل تعاطفي الدائم مع وطنهم الأم. وكرر السيد سليمان على مسامعي أنه سيعمل دوماً- خلال رحلتي بمصر العليا- على ضمان راحتي والعناية بي ما أمكن. شكرته وأنا أشد على يده؛ وأضفت أنني أعتمد عليه لاختيار مقصورة لي بإحدى السفن البخارية التي تجوب النيل؛ لأنني أريد أن أستغل مُقامي القصير بمصر لرؤية مآثرها وعجائبها. وانتهت زيارة ضباط تشريفات الخديوي؛ عندما رن جرس الغداء، فأهديت لهم أحد مؤلفاتي.

وعلى مائدة الغداء أخبرني بعض الفرنسيين الغاضبين بأن الأشخاص المهمين- مثل الرسميين وأعضاء المعهد والصحفيين البارزين- قد تم تقديمهم للخديوي هذا الصباح، من قبل السيد (شارل بلان) وبأن المدعوين الذين لم يكونوا ضمن هذه المجموعة قدّموا أنفسهم بعجالة.

اندهشت من كون (شارل بْلان) الذي عبر لي أخوه دوماً عن اهتمامه الودي بشخصي؛ قد عمل على إقصائي. والحال أنه كان يتعين عليه تقديم كل المدعوين. وأصر هنا على ذكر هذا الحدث؛ لأن هذا التقديم الجزئي كان أول مؤشر على التصنيفات التي وقعت منذ وصولنا إلى القاهرة، وسيكون منطلقاً لانقسامات عديدة في المستقبل.

وأكد لي بعض الأشخاص الذين التقوا الخديوي في الصباح أنه يمكنني الظفر باستقباله إذا ما رغبت في ذلك، ويكفي أن أقدم في الظهيرة إلى مقرّ إقامته بقصر النيل. وكنت مترددة في القيام بهذه الزيارة الشخصية، عندما تلقيت دعوة لحضور حفل في المساء، سيقيمه الخديوي على شرف (دوق) و(دوقة) (أوسطي) المقيمين بالقاهرة منذ مدة. فقررت رد التحية بأحسن منها، وذهبت إلى قصر النيل. ولأن اسمي معروف لدى الإيطاليين العاملين ببلاط الخديوي؛ فقد تم إدخالي بسهولة. وقد تعرفت من بينهم إلى رفاق سلاح (غاريبالدي) القدامى، الذين هاجروا إلى مصر بعد هزيمته (بمونتانا). ووجدت نفسي بقاعة الانتظار بجانب شخص

ضخم ومبتذل، يرتدي لباساً أسود، ويضع ربطة عنق بيضاء؛ ويبدو أن أسلوبه في الحديث أو بالأحرى غياب الأسلوب لديه؛ كان مسلّياً لكل ضيوف الصباح. كان الرجل بستانياً فرنسياً راغباً في ربح المال بمصر، لذلك قدم اقتراحاً للخديوي بتحويل حدائق قصره إلى بساتين من النوع الباريسي. وكانت المرأة الشابة المرافقة له- والتي يمكن أن تكون ابنته؛ بسبب فارق السن الكبير بينهما- تحتفظ باللباس البسيط وبالهيئة الساذجة للفتيات البدائيات اللواتي تغنى بهن كل من (موسي) (Musset) و(مورجي) (Mûrger). لكن ستة أسابيع كانت كافية لتحويل هذه المرأة غير المثقفة إلى غانية مذهلة. وسنرى كيف أن كلمة واحدة في غير محلها، صدرت ذات مساء منها قِبل زوجها الثقيل الظل؛ ستفضح المستور، وستبين عن الغرور الكبير الذي تخفيه كل نساء هذا الزمن.

وقرب هذا البستاني الضخم، كان محرر جريدة «الشمال» مبتهجاً بقاعة الانتظار، وقد تمدد عنقه من كثرة الأوسمة التي تلقاها (بروسيا) وبعض البلدان الآسيوية. ولولا القهوة التي قُدمت لنا بفناجين صغيرة ورائعة من صنع صيني موضوعة داخل (ظرف) ماسي شبيه بقشرة جوز بالقرب من شرفة مطلة على النيل ربط أسفلها جندول (موريسكي) بديع، لكنا قد شككنا في كون قصر النيل المبني والموثق بطريقة فرنسية؛ هو مسكناً تركياً. فتداخل الصالونات يذكر بالإقامات (الإمبراطورية)؛ لكن مع غياب لوحات الرسامين الكبار وتعويضها بورق الحيطان المبتذل.

وبعد مرور عشر دقائق على الانتظار؛ فتحت أبواب مكتب الخديوي، الذي كانت جدرانه وأثاثه مغطاة بساتان أصفر فاتح. وكنت أول من دخل، وتبعني البستاني المبتهج وزوجته ومحرر جريدة «الشمال». واستقبلنا الخديوي في البداية وهو واقف، لكنه ما لبث أن جلس، وأجلسني على يمينه، فشكرْته على دعوتي للقيام بهذه الرحلة الرائعة إلى مصر. وتهاطلت تشكرات المدعوين الآخرين المشوبة بالحرج والخنوع والرصانة التي يفتعلها بعض الأشخاص أمام كل سلطة سائدة.

وعندما رأيت أن الخديوي لا يعير اهتماماً لكلمات الإطراء التي أرهقت مسامعه من فرط تكرارها، طلبت الكلمة، وهنأت سموَّهُ على تكليف الرحالة الكبير، السيد (صموئيل

بيكر) ترؤس الحملة العلمية إلى إفريقيا الوسطى. وقدم لي الخديوي بعض التفاصيل المهمة حول هذا الموضوع، ثم توقف الحوار. إن إسماعيل باشا هو ابن إبراهيم باشا القائد الكبير الذي جمع بين شجاعة المحارب والخصال السياسية الراقية، الكفيلة بتمدين مصر وتطويرها. وعندما أصاب محمد علي الجنون؛ استولى إبراهيم على السلطة، وأبان عن قدرة هائلة في تدبير الشؤون السياسية. وقد سمحت نزاهته وطاقته البطولية بتهييء مصر للدخول في فترة الرخاء والمجد. ولسوء الحظ لم تدم سلطته طويلاً، فلم يعش سوى 75 يوماً بعد موت أبيه. وعَيَّن مفتي السلطان- الذي كان قد منح (باشوية) مصر لمحمد علي وأسرته- خليفتين لإبراهيم، سيقضيان على كل الأعمال العظيمة التي بدأها. وكان الأول هو عباس، أحد الوحوش المتوَّجين الذي أعاد إلى الذاكرة فظائع (كاليغولا) ورذائله؛ والثاني هو سعيد، وهو مسرف غريب الأطوار ومتهتك مجنون، لكنه محبوب وذكي مع ذلك؛ وقد جعل من بلاطه قبلة لكل سفلة (أوربا). وعند موت سعيد، الذي كانت غانيات (باريس) قد أطلقن عليه ملك الرذيلة (roi- vice) [بدل نائب الملك (Vice-roi)] والذي كان رفاقه في السَّمر يشبِّهونه بالوصي على العرش، عينت هيئة الخلافة إسماعيل باشا، الخديوي الحالي؛ وهو ابن إبراهيم باشا العظيم من أمَة (شركسية). ولا يذكِّر إسماعيل باشا بالهيئة الحربية لأبيه، لا من ناحية الملامح ولا على مستوى القوام. فهو بدين وقصير القامة، لكن نظراته معبرة وحيوية وذكية، وهي تختلف عن النظرة الحالمة لأغلب الشرقيين، كما أن جبينه مشرق، وابتسامته ودية.

لأول وهلة يشعر المرء بالثقة في هذا الأمير الذي يفصح شخصه عن سلوك منظم وسليم؛ فإسماعيل باشا يمقت الرذيلة الشرقية التي لطخت سابقيه. وعلى ما يبدو، فإن الفضل في عدم سقوطه في الرذائل الفظيعة التي أدت إلى مقتل عباس وإلى تعذيب سعيد حتى الموت؛ يرجع إلى أمه؛ وهي امرأة قوية الشخصية، وتحب ابنها حباً كبيراً. وقد درس إسماعيل بـ(باريس)، لذلك فهو يتكلم الفرنسية بطلاقة. وفي بداية حكمه لم يشجع أعمال الحفر بقناة السويس، وذلك بإيعاز من الإنكليز؛ لكن صبر (دولسيبس) العبقري، الذي تمكَّن من التغلب على كل العراقيل، أقنعه بإمكانية نجاح هذه المهمة الخالدة. إثر ذلك، دعم إسماعيل هذه العملية، لكونه وريث الروح العملية والسياسة التمدينية، اللتين أكدتا سلطة جده وأبيه، حيث أدرك الإشعاع الكبير الذي سيجنيه حكمه من خلال إنجاز هذا العمل العظيم. والآن، وبعد أن

أنجز هذا العمل، ها هو ذا يحتفل بتدشينه بأبهة لم يسبق لها مثيل في العالم الحديث. شعوب العالم بأسره- ممثلة بقادتها وببعثات تضم مواطنيها البارزين- قد استُدعيت إلى هذه الاحتفالات الخالدة التي تثمِّن المجد المسالم والمفيد لصانعي خير الإنسانية، على حساب المجد الدموي والرهيب للطغاة والغزاة. ولا يمكن لمثل هذا الإنجاز أن يصدر عن أمير عادي يسعى إلى تحقيق طموح شخصي. طبعاً، لا يمكننا أن ننتظر من تركي القيام بالمبادرة، لكننا لا يمكننا أن نتجاهل انطلاق هذا الأمير من دوافع السمو والعدل وتجسيدها عملياً بكل قناعة؛ رغم العراقيل التي تضعها أمام هذه الدوافع كل التقاليد الاستبدادية والأحكام الدينية المسبّقة والنصائح الفاسدة الصادرة عن الدساسين؛ لذلك اتبع طريق التقدم بكل حزم ومن دون تسرع وأيضاً من دون تراجع؛ وساير خطوات الهدف المنشود لضمان رخاء مصر ومصالح الأسرة الحاكمة. وسيكون من باب الوهم المطالبة بما هو أكثر من عاهل بلد همجي، بل حتى من قادة البلدان المتحضرة. فثراء البلدان التي يقودها الحكام وعظمتها؛ لا تكون موضوع اهتمامهم إلا بالقدر الذي تكون فيه ثروتهم وعظمتهم معنية أيضاً.

وفي الفترة التي التقيت فيها إسماعيل باشا؛ لم يكن بعد قد تمكن من المهارة السياسية والحزم اللذين سيجعلان منه خير خليفة لإبراهيم باشا. فقد كان اعتداله وتتبعه لمجريات الأمور من العوامل التي منحته الصبر والثقة في النفس؛ مما أدى إلى نتائج باهرة.

كان الحديث الرائج بالقاهرة- في تلك الفترة- يدور حول نفي أميرين عزيزين على الشعب وقريبين من إسماعيل، هما عمُّه حليم باشا؛ أصغر أبناء محمد علي، وأخوه مصطفى باشا. واللذان اتهما بتخطيط مؤامرة ضده بمساعدة بعض الدساسين الأوربيين؛ لذلك أمر الخديوي بنفيهما إلى (قسطنطينية). وكان الموالون للأميرين يعدّونهما أفضل من الخديوي الحاكم عقلاً ووجداناً. هذا فضلاً عن أن الرعايا (الأتراك) والأجانب الذين لم يحظوا بإكراميات إسماعيل؛ كانوا يتمنون تعويضه بأخيه أو عمه. وقد استغلوا غضب العرب الذين أرهقتهم الضرائب وردود أفعال الرحالة الأوربيين المتألمين على أوضاع الفلاحين البؤساء، للدعوة إلى حكم جديد؛ لذلك عملوا على نشر الفكرة التي مفادها أن الخديوي هو المسؤول عما آلت إليه الأوضاع. وكانوا يقدمون عنه صورة قاتمة، ويتهمونه بارتكاب المجازر في حق أقاربه.

وطبعاً فإن متنوِّري كل البلدان- الذين قدموا إلى القاهرة في تلك الفترة- أُحيطوا علماً بهذه الأحكام الغبية أو المدسوسة. وعلى الرغم من أسفهم على كون هذا الأمير المتنور الذي استدعى نخب الشعوب المتحضرة؛ لم يفعل أي شيء يذكر للحد من اضطهاد العرب البؤساء، فإنهم لا يمكنهم تجاهل الإصلاحات التي قام بها. ويكفي أن أستحضر شطط القوانين التركية والسلطة الهمجية التي يمثلها بمصر والتقاليد الدموية والفاسدة لعرقه؛ للاعتراف بكون إسماعيل من أكثر (الباشوات) الذين حكموا مصر إنسانية ونزاهة واستقامة.

ومن دون أن يقطع الصلة مع السلطان ومن دون بهرجة، تمكن بفضل صبره من ضمان ولاية العهد لابنه. وهذه الوراثة المباشرة تستجيب لطموح إسماعيل، وتضمن لمصر حكومة قارة، بحيث تتداخل مصالح الأسرة الحاكمة ومع ازدهار البلاد. وفي اليوم ذاته الذي أصبح فيه ابن إسماعيل ولياً للعهد؛ وقع الخديوي برغبة منه وثيقة صلح مع أخيه مصطفى، وزوج ابنة هذا الأخير لوريث عرش مصر، وهي أميرة ذات جمال رائع، تربت على الطريقة (الأوربية)؛ وتتحدث الإنكليزية والفرنسية بطلاقة، كما تحب الفنون، وتدهش الحريم برزانتها وثقافتها. ولم يسمح هذا الزواج بتحقيق المصالحة بين الأخوين فقط، بل أغنى الأسرة الحاكمة بعنصر حضاري وأخلاقي جديد. ومما لا شك فيه؛ أن تأثير هذه المرأة بمعية أميرات القاهرة الأخريات- اللواتي يشاركنها طموحاتها- سيساهم في مكافحة خمول الحريم وإزالة الأحقاد والرذائل بداخله. وستسمح المنافسة الفكرية بتطهير المنافسات الجسدية التي لطخت غيرتُها المرضية هذا الحريم الملوث أصلاً. وبالنسبة إلى إسماعيل باشا؛ فإن الحديث عن فكر الأميرات التركيات وثقافتهن وعن إنسانيتهن وأخلاقهن، مقابل التجاوزات التي ميزت سلوك سابقاتهن منذ حوالي ربع قرن؛ والرغبة في مجاراة الأمراء المتنورين بـ(أوربا)، يعدّان دعامتين أساسيتين للإصلاحات التي لم تكتمل بعد، والتي يعمل الخديوي على إنجازها يومياً بمصر، بمساعدة وزيره نوبار باشا. إن هذه الحقيقة حول الرجال والمؤسسات والتي هي بمنزلة حكم غير متحيز على نظام إسماعيل باشا؛ لا ترجع إلى امتيازات حظيت بها من هذا الأمير؛ فباستثناء دعوة الخديوي لي لزيارة مصر بإيعاز من (دولسيبس)، لم أسعَ، بل لم أحظ بأي منَّة أخرى منه. وأضيف أن الصداقة التي ربطتني- بعد رجوعي من مصر العليا- بالأميرتين- ابنة حليم باشا وزوجه- قد فُسِّرت في محيط الخديوي كنوع من

العدوانية تجاه سموِّه؛ والحال أن هذا السلوك غير مقبول من جهتي كضيفة. بالمقابل فإن عدم استجابتي للطف التلقائي لسيدتين رائعتين التقيتهما مصادفة وعددتهما أفضل ما يوجد في حريم القاهرة، بذريعة أن لقائي بهما سيغضب الخديوي أو بالأحرى حاشيته، سيكون بمنزلة مجاملة لا تتناسب وشخصي، مثلما لا يرضى بها أمير ذكي. وقد كان لقائي بالخديوي الوحيد الذي تم خلال مقامي بمصر. ولإدراك إعجابي بهذه الجلسة، أنقل بأمانة الورقة المتعلقة بهذا الاستقبال والتي أرسلتها في اليوم نفسه إلى جريدة «القرن». ومما جاء فيها: «لو حدث أن وجدت نفسي عند استقبالي بقصر النيل وحيدة مع الخديوي، بدل أن أكون مرفوقة ببستاني مبتذل وبصحفي متملق، لكنت تحدثت معه عن المهمة النيرة والكريمة التي يتعين عليه إنجازها بمصر. وكنت سأستعمل رقة المرأة وتلميحات الشاعر؛ لأقول لهذا الرجل القوي ما يلي:

– لا يكفي أن تكونوا رائعين بالنسبة إلينا، بل يجب أن تكونوا رائعين بالنسبة إلى أنفسكم أيضاً. لقد استدعيتم إلى بلدكم النخب الأوربية لإبهارها بثروتكم وبذخكم. وهي لن تتأمل فقط في الآثار الخالدة لمصر القديمة وفي المعمار العربي الرائع، بل ستحكم أيضاً على التقدم الأخلاقي والحضاري الذي أنجزتموه بالنسبة إلى مصر الحديثة. لكن يا صاحب السموّ يتعيَّن أن يكون هذا التقدم كاملاً واقعياً وعميقاً، وليس سطحياً؛ فمظهر الرفاهية ليس سوى قناع ينزعه التاريخ عن وجوه الملوك. ما الذي سيفيد مجدكم؛ إذا ما نقلتم إلى القاهرة لغة (فرنسا) ومسرحها وموضتها وعاداتها، ولم تستوردوا معها حب العدل والحق والمساواة التي جعلت من (فرنسا) شعباً عظيماً محباً للخير؛ رغم التراجع المؤسف لعظمتها ولمبادئ الحرية بها؟

إنكم يا صاحب السمو تحكمون عرقاً مكوناً من العبيد المحتقرين والمعذبين والمضطهدين منذ قرون. إنه العرق العربي العظيم الذي تشهد على عبقريته كل الآثار التي تركها في الفن والعلم والأدب، فضلاً عن الجمال الذي ظل راسخاً في الخلفية. وعليكم أيها الأمير أن تأخذوا بيد هذا الشعب الذي أخذ منه كل شيء، وترفعوا الجباه التي ظلت منحنية منذ عدة قرون؛ بفضل الإرادة والشهامة النابعتين من القلب وبقرار وبسرعة بديهة المصلحين والأبطال الملهمين. إن حياة المرء تمر بسرعة، ولا يسمح قصر الأيام بتأجيل العمل الخير الذي يمكن فعله اليوم؛ إلى الغد. اسمعوا صوت امرأة تستعير صوت الإنسانية للتأثير فيكم!

فهذا الصوت يتجرأ على مخاطبتكم بما يلي: إن كذب موظفيكم وأفراد حاشيتكم الذين من مصلحتهم الصمت؛ لا يقنعنا عندما يؤكدون لنا أن الضرب بـ(الكرباج) لم يعد يمارس على ظهور الفلاحين الفقراء؛ وأن أسواق العبيد منعت منعاً تاماً في (بازارات) القاهرة. فقد رأيت بأم عيني عرباً بائسين يجلدون بالسياط وقد احمرت عيونهم، وظهر الاحتجاج على جباههم تحت التعذيب وضد همجية الجلادين التابعين لكم؛ كما أن العديد من رفاقي في السفر زاروا أحياء مدينتكم المقدسة، حيث يباع الرجال والنساء كدواب حقيرة. وإذا كان صحيحاً يا صاحب السمو؛ أنكم صادقون في حبكم للمدينة؛ فعليكم أن تضعوا حداً لهذه الفظاعات المناهضة للحضارة. ولتكن لديكم الأنفة في قيادة الرجال، وليس العبيد. وسيدعم هذا الشعب المفتدى أكثر مشاريعكم سمواً، كما أن بإمكانكم قطع الصلة بـ(تركيا) التي لم تعد سوى جثة، تصيب بتعفنها جسد مصر المنبعثة من جديد. ويجب عليكم ألا تنعتوا هذا الهدف المجيد بالطوباوية. وإذا كانت النصيحة عظيمة؛ فلا يهم أن يكون الصوت الذي أسداها متواضعاً؛ فالحقيقة كلها للجميع، كما قال مفكرنا (بول لوي كوريي) (Paul-Louis Courier). أوَ ليس من حق امرأةٍ أمٍّ إسماعكم هذا الصوت؟ فالقلب هو الذي يتحدث من خلالها، لكن من دون غطرسة؛ فحيثما تفشل السخرية ينتشر التعاطف، ويترسخ العطف».

ذلك ما كنت أود قوله لإسماعيل باشا كشكر على ضيافته الملكية؛ لو تسنى لي رؤيته وحدي. لكن ركوع البستاني الضخم الذي أصبح وجهه أحمر قانياً من فرط الانبهار، وتوتر الصحافي (الروسي)؛ أجبراني على كبت هذه المشاعر بداخلي.

هل كان هذا الأمير المهذب سيسمعني، هو الذي قطع الصلة مع الهمجية، وتخلَّص من الكبرياء المبالغ فيه؟ أم أنه سيضع إزاء مشاعري الجدار الحديدي نفسَه الذي واجهني عندما حاولت سنة 1861 تليين موقف (أنطونيلي) (Antonelli) من مستقبل إيطاليا الذي تعرقله السلطة البابوية؟[1]

إنني أريد الاحتفاظ بالشك بهذا الخصوص، ولا أبتغي معرفة الجواب؛ اللهم إذا كان يسير في اتجاه لا يخدم مصلحة مضيفي الملكي. وكان من الأفضل أن أظل صامتة أمام البستاني المتحذلق بخصوص مواضيع خطيرة بهذا الشكل. وفعلاً، فإن هذا المتطرف في وطنيته عاتبني

(1) انظر الجزء الرابع من كتابي «إيطاليا الإيطاليين».

في أثناء تناول العشاء على قيامي كفرنسية، بمدح (إنكليزي) يدعى (بيكر) أمام الخديوي، في حين كان بإمكاني الحديث عن مواطنينا الأماجد. وألقى خطبة مبتذلة، مثل مندوب سياحي، مجد فيها الفرنسيين، وعدّهم الأسمى والأقوى في كل المجالات. بيد أن مثل هذا التبجح الوضيع- في كل الأمكنة وكيفما اتفق- هو الذي يجعلنا عرضة لسخرية، إن لم أقل لاحتقار ساكنة الأرض. وتصاعدت نبرات صوت الرجل البدين أمام قهقهات المستمعين وانتشرت دون أن تجد حاجزاً أمامها، وكأنها أمواج النيل خلال الفيضان. وفجأة دخل خادم ومد إلى الخطيب المزهو بنفسه ظرفاً مختوماً بالشمع الأحمر. وكان ذلك بمنزلة الحافز المنتظر الذي أوقف فصاحته المنسابة، بحيث لمع جبينه بشعاع (أولمبي)، ومد الظرف إلى زوجته الشابة الجالسة عن يمينه، وقال لها بأسلوب غامض:

- هذا يهمك يا (بيشيت) (Bichette)، أسرعي! أسرعي!

وابتسمت الزوجة، وأظهرت لنا البطاقة البرتقالية الكبيرة الموجودة بداخل الظرف. وكانت عبارة عن دعوة لحضور حفل المساء بقصر الخديوي. وخرج الزوجان وقد ازداد طولهما عدة أذرع؛ متأكدين من التأثير السحري لهذا الحدث فينا. ولأن الغرفة التي كان الزوجان يشغلانها محاذية لغرفتي؛ فقد بلغ نواح (بيشيت) مسمعي؛ لأن صندوق الملابس الباريسية ومن ضمنها فستان الحفل لم يصل بعد. فاستشارت مديرة الفندق، مقترحةً وضع أزهار وشرائط من الحرير؛ كي تغطي على بساطة فستان الحرير الموصلي الذي ترتديه. وخاطبها الزوج مهدئاً من روعها:

- اطمئني! فنضارة خديك وبريق عينيك سيغطيان على ماسات الآخرين.

وأمام هذه الرومانسية الزوجية؛ قررت أنا أيضاً حل المشكل العويص المتمثل في التزين وحدي داخل غرفة ضيقة بالفندق. وقد نجحت في ذلك، لكنني وجدت صعوبة في وضع دبوس من الخلف لشد حزام واسع. وجاءت رئيسة خدم الفندق التي كانت قد وعدتني بالمساعدة في آخر لحظة؛ معتذرة عن تأخرها. وقالت لي بصوت خافت ونبرة ساحرة:

- أقسم لك، إنني لو علمت من أين أتت هذه السيدة الصغيرة؛ لما كنت قد أزعجت نفسي من أجلها.

فسألتها:

– ومن أين جاءت إذن؟

فردت مخاطبتي باحتقار:

– من غرفة خادمات (التويلري) (Tuileries). فقد كانت من بين ستين امرأة، يتنافسن لجعل (الإمبراطورة) (أوجين) أكثر النساء أناقة.

قلت ضاحكة:

– وما العيب في ذلك؟ فإن لها حقوق الآخرين نفسها في الانتقال من قاعة الانتظار إلى (الصالون). وكيفما كان الحال، فهل أنت متأكدة بأنها قامت بهذه المهمة الثمينة كما تقولين؟

وأجابت المرأة وهي تخفض صوتها أكثر:

– إن كلمة منفلتة من زوجها هي التي قطعت الشك باليقين. وسألتها بحيوية وقد شعرت كأن هذه الكلمة ستكشف أمامي إحدى أغرب عادات (الإمبراطورة):

– ما هي هذه الكلمة؟

فتابعت المرأة:

– كانت السيدة الصغيرة تتأسف على استحالة ظهورها بمظهر لائق خلال حفل الخديوي، وصرخت: «كيف سأنجح في تصفيف شعري وفي ارتداء ملابسي؟»، فأجابها زوجها: «صففي شعرك، وارتدي ثيابك كما تفعلين مع (الإمبراطورة)». وسجلت هذه الكلمة التي تلفظ بها الزوج العجوز بسذاجة دون أن يدرك ما تتضمنه من دعوة إلى الفساد. فأمام نصيحته بالتزين مثل (إمبراطورة)؛ ستقول المرأة مع نفسها: «لكي أتزين مثلها يجب أن أتوفر على حلي نفيسة وعلى أثواب رائعة وعلى نسيج مخرم؛ وعليك يا زوجي المسكين أن توفرها لي، وإلا فإن آخرين سيهدونها إلي».

هكذا، فإن زئير اللبؤة الفقيرة؛ سيلبى عاجلاً أم آجلاً على حساب العفة والكرامة.

وصلت حوالي العاشرة ليلاً إلى قصر النيل. وبدا لي وأنا أصعد الأدراج الواسعة المزينة

بالأزاهير والممتلئة بالخدم المرتدين لباساً أحمر؛ وكأنني سأحضر إحدى الحفلات الرسمية بـ(باريس) التي يمتزج فيها البذخ بالملل. غير أنني أدركت خطئي عندما قام أحد الخدم- الذي كان يبدو عليه أنه هو الرئيس- بإعلان اسمي، وطلب مني أن أناوله معطفي. وسألت الرجل من أين يعرفني، فأجابني قائلاً:

- لقد كنت أعمل ببلدية (باريس)، وكان لي شرف إعلان اسم السيدة مراراً، وعندما كانت تأتي رفقة ابنتها لحضور إحدى الحفلات.

وسألته مرّة أخرى:

-وهل تفضل مصر وقصر الخديوي؟

فكان رده:

- إنني الرئيس الأول لخدم سموه؛ وهو الذي استدعاني؛ كي أكون رئيس خدم مائدة (الإمبراطورة) في أثناء مقامها بالقاهرة. وسيحكم مدعوو هذه الليلة على مهارتي عند مأدبة العشاء التي ستقام في منتصف الليل. وأنا رهن إشارة سيدتي.

وعندما وصلنا إلى مدخل قاعة الاستقبال؛ حياني بأفضل طريقة، وابتعد وهو يعدل سرواله القصير. وسترسخ صورة هذا الرجل في ذاكرتي، في مناسبة لاحقة. فقد كنت بـ(قسطنطينية) بعد أحد عشر شهراً من زيارتي لمصر؛ عندما عجلت وقعة (سيدان) بسقوط (الإمبراطورية) الثانية بـ(فرنسا). وقررت فور وصولي (بالتلغرام) الرهيب الرجوع إلى (فرنسا) المحتضرة. فتوجهت إلى سفارة (فرنسا) (بتيرابيا) (Terapia) لأطلب جواز سفر. غير أن السفير والقنصل والكتاب، وباقي الموظفين؛ كانوا قد اختفوا عن الأنظار. ومن بين الخدم الذين كانوا يتحركون داخل هذا المكان الساكن الذي يبدو مهجوراً، رأيت رئيس خدم الخديوي الذي تعرف إلي، وقال لي:

- إنني في خدمة سيدتي بـ(قسطنطينية)، كما في (باريس) والقاهرة.

وفعلاً، فلولا الذراع القوية لهذا الخادم العظيم، لكنت قد سقطت في مياه (البوسفور) عندما كنت أصعد سفينة (الكاياك).

وعندما رآني وحدي سارع السيد سليمان موظف التشريفات، الذي كان واقفاً عند مدخل قاعة المجلس، ومدّ لي ذراعه؛ كي يجلسني على أحد المقاعد المخصصة للمدعوين، وخاطبني بصوت منخفض؛ لأن الصوت الجميل لـ(نودان) (Naudin) كان يصدح عند نهاية (أوبرا) (إرناني) (Ernani):

– ما هذا؟ ألا يوجد أي واحد من مواطنيك عضو في مؤسسة الصحفيين؛ ليتشرف بمرافقتك إلى هذا الحفل؟ فأجبته قائلة:

– اعلم بأن صفتي المزدوجة– كمفكرة حرة وككاتبة بجريدة «القرن» وأيضاً كصديقة (إيطاليا) العزيزة عليك– تجعلني منبوذة في عالم الرسميين.

وعلق على كلماتي وقد بان الحزن على وجهه:

– إذن؛ فأنت غير مرغوب فيك بالبلاط.

فقلت وأنا أقهقه:

– من أكون حتى أقبل في البلاط؟ إذا كنت تبحث عن فرنسيين مرغوب فيهم بالبلاط، ويقدسون (الإمبراطورية)؛ فعليك بهذين الزوجين القادمين.

وأشرت إلى البستاني المزهو بدخوله القاعة رفقة زوجته المتأنقة مثل «إمبراطورة».

ولم أتمكن بقصر النيل من معاينة أي نموذج للهندسة المعمارية العربية؛ فقاعة الحفلات التي دخلتها تذكرنا من خلال زخرفتها وأثاثها بالقاعات (الأوربية) المخصصة للغرض نفسه. فقد كانت فسيحة وطويلة وممتلئة في ثلاث أرباعها بمقاعد المتفرجين المدرجة أمام مسرح صغير، يؤدي فيه مغنون بلباسهم الأسود ومغنيات بفستان الحفل، مقاطع معروفة لأشهر الفنانين الإيطاليين.

وكان برنامج الحفل، المطبوع على ورق صقيل؛ يعلن عرض مسرحية «النزوة» لـ(ألفريد دوموسي)، بين جزأي الحفل الغنائي. وفي الصف الأول، قرب خشبة المسرح؛ جلس الخديوي وعن يمينه (دوقة) (أووسْط). وكانت هذه الأميرة الطاهرة والمؤثرة، التي لن يدوم شبابها

طويلاً؛ فاتنة في تلك الليلة. وكنت قد رأيتها بـ(باريس)[1] نحيفة مثل قصبة، بعد مرور بضعة أشهر على زواجها. لكن مقامها بالقاهرة أنعش صحتها؛ ويشعر المرء وكأن نسغاً حيوياً يجري تحت بياض كتفها المشوب بالحمرة وتقاطيع وجهها الجذاب، وقد أحاطت جسدها بالثوب المخرم والحرير الشفاف ذي اللون الأخضر الفاتح، بحيث يبين فستانها الطويل عن قوامها الممشوق. وتزينت بماسات براقة مثل قطرات الماء التي تتلألأ فوق رأس ربة المياه الواردة في الأغاني الشعبية (الألمانية). وظلت صورة هذه المرأة راسخة في ذهني بمظهرها الناعم، الذي تغنى به الشعراء، وأضفوا عليه ذلك الطابع الخالص، المميز له منذ الولادة. فهل كانت في حاجة إلى تاج حقيقي؟ لقد كان العرش بالنسبة إليها- داخل (إسبانيا) الكهنوتية والشرسة- بمنزلة مسخرة همجية؛ لأنه مجرد أداة رهيبة بيد محاكم التفتيش حيث كانت الضحية تسقط حية، ولا تقوم إلا لكي تموت. أما دوق (أووسط)؛ فقد سبق أن تعرفت إليه في البندقية، وهو إنسان طيب القلب وكريم وودود، يحتقر كل غطرسة أميرية. وكان يشعر في تلك الليلة بسعادة كبيرة؛ لأن الخديوي أحيى هذا الحفل (الأوربي) على شرفه وشرف (الدوقة) الجميلة. وكان ابن (فكتور إيمانويل) جالساً على يسار مضيفه، ويحمل وسام (متيدجي) (Mitidjé) المرصع بالماس الذي كان يلمع أيضاً على صدر الخديوي وموظفيه السامين. وكان الجميع- من نائب الخليفة بمصر إلى أبسط أفندي- يرتدون اللباس الرسمي الأسود، المشدود عند الحزام والفضفاض فوق (السروال). إنها بدلة هجينة لا تتميز بأي شيء؛ عوضت منذ إصلاحات السلطان محمود- في كل البلدان الإسلامية- الملابس التركية القديمة والبهية. ويبدو غطاء الرأس غير ملائم مثل الزي الرسمي؛ طربوش الصوف المحاط بالحرير الأزرق القاتم يشبه في تنافره، طاقية الرهبان، فوق هذه الرؤوس الشرقية التي كان جمالها يظهر على نحو أفضل تحت بياض العمائم ذات الثنايا الخفيفة التي تتوسطها حجرة كريمة. أما الآن، فإن اجتماع الرجال- سواء في مصر أم (تركيا) أم بلاد فارس- يبدو كئيباً، مثل اجتماع الفرنسيين أو (الإنكليز). كان ثقل الزي العصري للمسلمين قد غطى في ذلك المساء على فظاظة لباس الأوربيين الأسود، الذي تلمع فوقه الوشاحات المتنوعة والأوسمة و(النياشين). وكانت كل النساء يرتدين الزي الفرنسي وقد فقدت زينة بعضهن من بريقها، أما بعضهن الآخر فقد بالغ

(1) رأيتها بالمعرض الكبير، سنة 1867، حيث حضر كل الملوك والأمراء.

في إبراز الموضة الباريسية من خلال الأزياء الباذخة.

واقتضت مراسيم البلاط والأغاني المتوالية من دون انقطاع؛ أن يظل المدعوون صامتين. وكانوا مصطفين من دون حركة وكأنهم ملتصقون بمقاعدهم وهم مجبرون على سماع آخر نغمة، سبق أن سمعت للمرة الألف.

وبعد أن انتهى الجزء الأول من الحفل، نهض المدعوون وتمشّوا بعض الشيء، لكن لم يكن مسموحاً لهم تغيير أماكنهم أو الخروج من القاعة. وبدأت بعض النقاشات بصوت منخفض، في الوقت نفسه الذي شرع فيه الخدم بالزي الفرنسي يوزعون الحلويات الفرنسية أيضاً فوق أطباق فضية.

وسرعان ما فاجأنا منظم الحفل المسرحي بإعلان عرض مسرحية «النزوة». وفرضت الأصوات المبحوحة لممثلي الدرجة الثالثة، الصمت على الحضور وعلى طقطقة الأطباق. ولم أكن أتصور أن (السكيتش) الممتع (لموسي) سيتحول إلى منوم. فعدم تلاؤم الحركات مع الكلمات والمبالغة في نبرة الصوت وابتذال الإشارات؛ أخمدت اللهيب الخفي لهذا العمل الجميل، وخدرت الأعصاب المشدودة، فبلغت اللامبالاة حدَّ التثاؤب. وقد غطى الرجال تفوهاتهم تحت شواربهم والنساء وراء مراوحهن. وبدأ الملل، هذا الضيف غير المحترم الذي يدخل كطفيلي إلى جميع الحفلات الرسمية؛ ينتشر بسرعة. وعندما انتهت المسرحية، وتلتها (الأوبرا)؛ استغل بعض أعضاء المعهد هذا الوضع [مادام كل شيء مجازاً للخالدين]، واستسلموا للنوم مدة ساعة دون أن يزعجهم أحد.

غير أن البستاني البدين ظل وحده ملتزماً بشعاره الداعي إلى الوقار والاحترام خلال حفلة البلاط هاته؛ ولم تغمض عيناه الحالمتان بسراب العناية الخديوية. وقد احتج حتى النهاية- بإشارات من جسده الضخم- على مظاهر التعب البادية علينا؛ لأن البلداء يمتلكون عضلات فولاذية. وبقي الرجل السعيد يكرر مع نفسه شعار الوقار والاحترام وكله أمل في الحصول على وسام (متيدجي). ولأن الملل كان دوماً تقريباً ثورة للعقل ضد كل ما يهينه، ويحبطه؛ فإنه لا يمكن أن يصيب التافهين. لقد ظل الشخص الفظ الذي يلهث وراء ثروة مبتذلة؛ محافظاً على وقاره، فتصلبت ملامحه ليبدو مهماً، وتجمد في مكانه ضحية غروره.

وما كان علي أن أعيره اهتماماً؛ لو كنت أمام الطبيعة أو أشاهد أحد الآثار العظيمة المنبثقة من رمال الصحراء، لكن وضعه التلقائي وسط خمول هذه الأمسية المخيبة للآمال شكل بالنسبة إلي فاصلاً مرحاً استمتعت به.

وكم من مرّة تخلصت في حفلات الطبقات الراقية من حزن ووحدانية الفكر؛ عبر اكتشافي فجأة لمنجم (سيكولوجي). وكان ذلك بالنسبة إلي شبيهاً بالفأرة أو العنكبوت الشهير الذي يخلص السجين من رهبة الزنزانة الكئيبة. فالوحدة التي يشعر بها الحالم وسط الحشود تساوي جدران السجن، لكنه يقاوم انهيار ملكاته الذهنية عبر الدراسة المشفقة وأحياناً الساخرة لأهواء الإنسانية. وتكفي إشارة أو نظرة أو تغير ملامح الوجه لإبراز مآسٍ مخفية وغريبة أو رهيبة. عندئذٍ لا يشعر بأنه وحيد، ويحس باختلاج هذا الحشد المجهول واللامبالي تحت فحصه، مثلما يرتعش ملمس (البيانو) تحت أصابع الفنان. ويقاوم هذا الفضول الحيوي للفكر في بعض التنظيمات آلام الروح والجسد، كما يصارعها، ويتحكم فيها بوساطة السخرية الممارسة على الغير والتي تتحكم في بؤسنا أيضاً.

ورغم أن برنامج هذا الحفل الموسيقي الطويل قد تم اختصاره من لدن الخديوي نفسه، بحيث اقتصر على عرض ثنائي فقط؛ لأن كل الإخراج مفروض في الشرق؛ فإنه امتد مع ذلك بسبب تكرار المغنين المقاطع. وبلغ التعب مبلغه من الجميع، لكن عمل العقل العظيم تغلّب على انهيار الجسد. طبعاً، فإن الآلة المنهكة لا بد أن تنفجر، لكنها ظلت صامدة حتى آخر يوم، دون أن تبرز القوة الخفية التي تدفعها إلى الأمام. لقد كنا مصعوقين، لكننا كنا نتحدى القدر وكأننا محتضرون ومحتقرون داخل سرير عفن مثل تابوت. لكن علي أن أبعد هذه الصور الخطرة التي لا تتلاءم مع موضوع تافه كهذا؛ ولأتخلى عن هذا التنافر. هكذا، حاولت أن أفهم لماذا تذكرنا هذه الأمسية الأميرية التافهة بالاستقبالات الرسمية (الباريسية)؛ وكيف تتضمن مللاً كثيراً لا يستطيع الأشخاص المتعودون على حفلات الاستقبال (بالتويلري) أنفسهم مقاومته. ذلك أننا اعتقدنا جميعاً- سواء كنا أصحاب أفكار متحررة أو خانعة- أن هذا الحفل البلدي سيكون مثيراً. لكن أن نجد بقصر الخديوي بمصر تقليداً باهتاً لبذخ (أوربا) ولفنونها؛ فإن الأمر كان مخيّباً للآمال. وقد تجرأت بعض الأصوات معبرة عن رأي الجميع، لكن بهمس حيث تساءلت: «هل هذه هي العجائب التي وعدنا بها؟ هل جئنا إلى

القاهرة كي نرى مسرحية «النزوة» للمرة الألف، ونسمع غناء السيدة (لام)؟».

إن حب ما هو عجيب يختمر داخل المخيلات الباردة، كما أن حركة السفر تثير المرء؛ ولكي يحقق رغبته عليه أن يتشبع بالمناظر الجديدة والآثار غير المعروفة والعادات الغريبة والأزياء غير المألوفة.

وعندما دخلنا إلى قصر النيل؛ كنا نعتقد أننا سنجد أنفسنا في قلب الشرق. وإليكم الحلم الذي راودني:

– كنا نجتاز أحد الأروقة (الموريسكية) التي تزين قصر صلاح الدين القديم. وكان لمعان الأعمدة ينعكس على الأزهار الرخامية المنقوشة فوقها كتيجان، وتحيط بها قبة زرقاء مزدانة بالأهلة والنجوم، مثل أوراق العنب داخل عريش. وهناك مصابيح دائرية وفضية، شبيهة بمصابيح المساجد، وأخرى هي كرات من (الكرستال) الأحمر والأخضر والأبيض وكأنها أحجار كريمة ضخمة بداخل أقواس سوداء. وبدَل الجنود المجهزين على الطريقة (الأوربية) والذين يشكلون حالياً حرس الخديوي، يمكننا تصور عبيد (شركسيين) و(يونانيين) ذوي ملامح جميلة؛ وكأنهم منحوتون داخل هذه الزخرفة السحرية، حيث يقفون بجانب الأعمدة المصبوغة بألوان زاهية. ونحن لا نرى من جمالهم سوى أعناقهم العارية ورؤوسهم الحليقة وعيونهم البراقة. كانوا يرتدون زي المماليك القدامى، الذي تمتزج فيه الملابس الأنثوية بالأسلحة الحربية. وفوق قميص أصفر وُضعت سترة طويلة من قماش الهند وقد شُدَّت في الوسط بحزام حريري، و(قفطان) بأكمام واسعة من المخمل الحلبي. أما (السروال) الواسع المصنوع من حرير (البندقية)، فإنه يصلح لأكثر الجذوع صلابة؛ وتصدر النعال المصنوعة من الجلد الأصفر أصواتاً على أرضية الزليج عند كل حركة. أما القاووق– وهو عمامة كبيرة من الحرير الموصلي من لون النعال نفسه– فإنه يغطي الجبهة الملساء، وتتوسطه حجرة كريمة تلمع تحت أشعة الشمس وتتلاءم مع ثنايا هذه العمامة التي تغطي الرأس مثل مظلة. وبالحزام، يكاد يظهر مسدس بقبضة من العاجن مرصع باللآلئ والمرجان وبنقوش فضية؛ وبالفخذ اليسرى، يلتف كثعبان ساكن، سيف فولاذي دمشقي رهيب، يعدّ نصله الدقيق والمقوس بتاراً، بحيث يقطع الرأس مثل قَطْعِهِ زبدة [والتعبير لفولني][1].

(1) إليكم ما رواه (فولني) عن هذه (المليشيا):

«إن المماليك لا يعرفون أي شيء عن فنوننا الحربية، فليس لديهم زي عسكري ولا تنظيم ولا تكوين ولا انضباط ولا إذعان لمن هم أعلى مرتبة. واجتماعهم حشد، ومسيرتهم فوضوية، ومعركتهم مبارزة، وحربهم نهب؛ وعادة ما تتم المعارك بالقاهرة. على حين غرة يندلع تمرد، فيمتطي (البايات) (Beys) جيادهم، وينتشر الخبر، فيظهر خصومهم. هكذا يحصل الاقتتال بالسيوف في الشوارع وهناك تحسم المعارك؛ فينسحب القائد الضعيف والخنوع، ويتعرض للنفي. ولا يهتم الشعب بذلك؛ لأن من مصلحته أن يقتل الطغاة بعضهم بعضاً.

وأحياناً ما تنقل الحروب إلى البادية، بالطريقة نفسها في الاقتتال، حيث يطارد الطرف الأقوى والأجرأ الطرف الآخر. وإذا ما كان الطرفان متساويين قوة وعدداً؛ فإنهما يجددان موعداً للقاء فتقترب الفصائل من بعضها، وعلى رأسها أشجع المقاتلين، ثم يحصل التحدي، ويتم الهجوم، فيختار كل واحد غريمه.

وقد يبدأ الاقتتال بإطلاق النار، لكن سرعان ما تستعمل السيوف؛ وهنا تبرز مهارة الفارس ورشاقة الجواد. فإذا ما سقط هذا الأخير، خسر راكبه. وعند حصول الهزيمة، يساعد الخدم أسيادهم على الوقوف، وإذا لم يكن هناك شهود؛ فإنهم يصرعونهم، وينتشلون حافظة نقودهم. وغالباً ما تحسم المعركة إثر موت شخصين أو ثلاثة أشخاص.

وفي الفترة الأخيرة، أدرك المماليك بأن أسيادهم هم المعنيون بهذه المعارك؛ لذلك فإن عليهم تحمل مسؤوليتها بأنفسهم. فإذا ما انتصروا؛ فسيكون الجميع مستفيداً، وإذا ما انهزموا فسيتم الاتفاق مع المنتصر الذي يكون قد وضع شروطه مسبّقاً. وكلما بقي المماليك هادئين؛ وجدوا سيداً يكافئهم مكافأة جيدة؛ هكذا سيعيشون على حسابه بالقاهرة؛ إلى أن يظهر سيد آخر.

إن خاصية السبي في حركية المماليك هي نتيجة حتمية لتكوينها. فالقروي الشاب الذي بيع بـ(منغريتا) (Mingretie) أو (جيورجيا)؛ يغير أفكاره عند نزوله إلى أرض مصر؛ فمستقبله المهني مضمون وتجتمع كل الظروف لإيقاظ جرأته وطموحه. ورغم أنه عبد؛ فإنه يسعى لأن يكون سيداً، ويتقمص شخصية هذا الأخير. هكذا، يعمل على تقدير حاجة سيده إليه ويبيع خدماته التي تتفاوت أهميتها بحسب ما يتلقاه من أجر. ولأن هذا المجتمع لا يعرف دافعاً آخر سوى المال؛ فإن الهم الأساس للأسياد سيتمثل في تلبية أطماع خدامهم للإبقاء على تعلقهم بهم. ومن هنا يبرز الكرم الحاتمي (للبايات) الذين اضطروا إلى نهب ثروات مصر. والنتيجة هي أن المماليك ضاعفوا من تمردهم ومن سلب أموال أسيادهم، وانخرطوا في الدسائس. وما إن يتم تحرير عبد حتى يطمع في المناصب العليا. والسؤال هو: أين يقف طموحه؟ فأولئك الذين يرأسونه لا يستحقون الاحترام الناجم عن هيبة الشخص؛ وهو يعدّهم مجرد جنود اكتسبوا السلطة بضربة حظ، وإذا ما ابتسم له هذا الأخير؛ فإنه سيحقق ما أنجزوه؛ ولن يكون أقل مهارة منهم في فن تدبير الحكم، ما دام هذا الفن يتلخص في أخذ المال وتوزيع ضربات السيوف. لقد أدى هذا النظام إلى الإفراط في الترف وإلى إزالة الحدود أمام كل الرغبات وإلى امتداد جشع الكبار. وبلغ الترف حداً، بحيث أن الاعتناء بالمملوك كان يكلف 2500 (جنيه) سنوياً وربما الضّعف. فعند حلول شهر رمضان يتعين شراء ملابس جديدة وأقمشة مستوردة من (فرنسا) و(البندقية) ودمشق والهند. ويجب تغيير الجياد وعُدَّتها وشراء السيوف الدمشقية والركاب المذهب والسرج واللجام المفضضين.

وبالنسبة إلى قادة المماليك؛ يتعين شراء الحلي والجياد العربية التي تساوي 200 أو 300 (لويس) ذهبية؛ ومجموعة أخرى من الأدوات التي يساوي أقلها 500 (جنيه)؛ وذلك حتى يتميز هؤلاء عن العامة. أما عن أخلاق المماليك، فإنها– والحق– يقال أميل إلى الاندفاع والتهور؛ فأغلبهم تربى على العادات والتقاليد اليونانية، ورغم أنهم يتعرضون لعملية الختان عند شرائهم، فإن الأتراك يعدّونهم مرتدّين، لا دين ولا ملة لهم. ولأنهم غرباء بعضهم بالنسبة إلى الآخر؛ فإنهم لا يرتبطون بتلك العلاقة الطبيعية التي تجمع بين البشر. فليس لديهم آباء ولا أبناء ولا ماضٍ ولا مستقبل، ولأنهم جهلة ومتطيّرون؛ فهم يتحولون إلى قتلة ومتمردين ومنافقين وفاسدين وجبناء؛ وبالتالي ينغمسون

ولأننا كنا متأكدين من أن لمعان هذه الأسلحة لا يهددنا؛ فقد تقدمنا منجذبين نحو أنغام موسيقية بعيدة وبدائية وعذبة. واختلطت أصوات المغنين ونغمات الآلات بتدفق المياه فوق (حنفيات) من المرمر وبحفيف النسيم المعطَّر، الذي يلمس رؤوس النخيل في الحدائق المعلقة، وينتشر فوق كتل الورود.

كانت الأنوار المتنوعة تنعكس على مداخل القاعات. ومن أوسعها وأجملها قاعة عرش عاهل مصر، الشبيهة بقاعة العرش التي يقدسها الملوك الأوربيون. وكانت الأبواب والجدران مزينة بسجادات مذهبة من سورية، نقشت عليها بالحرير الأخضر، آيات قرآنية. وهناك مخدات من القماش نفسه، موضوعة على شكل هلال فوق الأرضية المغطاة بزربية فارسية سميكة. وفي الوسط توجد مخدة أكبر وأعلى، مرصعة بالأحجار الكريمة؛ وفوقها إزار رصعت جوانبه بالماس الدقيق وبالقطع النقدية الذهبية الثقيلة. وكتماثيل حية، يمسك عبيد بأيديهم المشدودة أربعة عصي من العاج مرصعة بالأحجار الكريمة اللامعة التي تخشخش بصوت خافت عند تحرك الأذرع.

ويبدو لمعان العرش الشرقي الذي كان الخديوي جالساً فوقه؛ كشيء باهت بجانب بريق الجواهر المنبعث كتدفق ناري من ثنايا اللباس الملكي، فوق القميص وأطراف (القفطان) المذهب وعلى الحزام الذي تتدلى منه الأسلحة وعلى مقبض خنجر هندي وفوق الدائرة المحيطة بكعب (السروال) الفضي حتى فوق جلد النعلين المزخرف. فقد كان كل شيء يتلألأ مثل النجوم المتجمعة داخل المجرة. وكان معطف (الساتان) الأخضر يكاد يلتصق بعنقه؛ وهو مبطَّن بالفرْو ومثبت تحت الذقن بمشبك مشع كالنجوم. وكانت الماسة الصفراء الضخمة الموجودة في الوسط محاطة بثلاثة صفوف من الياقوت الأحمر الذي ينعكس وهجه الناري على وجهه الصارم وكأنه مجموعة نجوم منيرة. وفوق العمامة الهائلة، ذلك الرمز البدائي لسلاطين (إسطمبول)؛ كانت الريشة المرصعة بالياقوت الأزرق المشهور ببلاطات (آسيا) تلمع بشكل قوي.

في كل الرذائل. ولاسيما قد تعاطوا تلك الممارسة المشينة التي اشتهر بها الإغريق والتتار في كل الأزمنة، وهي أول درس تلقوه من مدربيهم على استعمال الأسلحة. ولا يمكننا تفسير هذا السلوك، خصوصاً إذا علمنا بأن لديهم نساء. لكن ما يمكن تأكيده هو أن كل مملوك متصف بهذه الرذيلة التي انتشرت، وأفسدت سكان القاهرة بمن فيهم المسيحيين السوريين المقيمين بها».

بهذا الزي المثير، تصورت الخديوي جالساً على العرش مثل تمثال معابد الشرق الأقصى، ساكناً، رافعاً رأسه وقد تلاقت رجلاه، وامتد بصره بعيداً. وكانت شفتاه المتلئتان والمعبرتان عن الزهو تمتصان الرأس العنبري لأنبوب (نرجيلة) هائلة مرصعة بالزمرد وكأنها ثعبان مائي غريب. وبسبابته الممدودة إلى الأنبوب المعطر تلمع ياقوتة حمراء في حجم الكرَزَة، علماً بأنها تكتسي صبغة سحرية لدى الشرقيين. أما مجمرة النرجيلة؛ فكانت مصنوعة من الطين الأحمر وممتلئة بالزخارف العربية وقد وضعت فوق صينية من الذهب، يسقط فوقها الرماد المعطر، في حين يصعد الدخان الناجم عن الامتصاص، ويحيط برأس العاهل المنتشي مثل الدوائر التي كانت تحيط برؤوس آلهة (الأولمب). وبجانب خديوي مصر المحترم أكثر من سلطان (تركيا) نفسه؛ لأنه يمارس السلطة التي استولى عليها جده محمد علي، كان (الجنرالات) والوزراء أصحاب لقب (باشا) و(البايات) وولاة الأقاليم؛ جالسين بحسب مراتبهم ووظائفهم على مخدات قريبة من العرش، بهذا القدر أو ذاك وبين أيديهم (النرجيلة) الشرقية المقدمة من العبيد؛ وكانوا يعدلون من جلستهم بحسب جلسة السيد، ويراقبون أي حركة من عينيه أو إشارة من يديه. وهم يرتدون ملابس فاخرة؛ لأن عرق الفلاحين تحول إلى صبيب من الذهب فوق زيهم الرسمي، وتحولت الدموع التي سالت من مآقٍ دامية وفارغة إلى أحجار كريمة.[1]

كانوا يدخنون وقد نسوا مآسي الإنسانية واقتتال الشعوب فيما بينها والمجازر التي لحقت بأعراق برمتها و(الإمبراطوريات) التي زالت، وأصبح ترابها مجرد طمي بالنيل. وعندما رأونا مشدوهين أمامهم عند عتبة الباب، ابتسموا زهواً، لكن العاهل الذي استضافنا نزعهم فجأة من نشوتهم المستهترة، وأمرهم بالوقوف؛ ووقف هو أيضاً، واتجه نحونا. وهذا الاحترام لأجانب لا يملكون سوى الفكر كثروة، هو بمنزلة خطاب إلى أفراد حاشيته، مضمونه كالتالي: احترسوا! سيكون هؤلاء قضاتنا! لنرفِّه عنهم دون أن ندعي إدهاشهم.

وببساطة ورزانة الضيافة الإسلامية؛ طَلب منا الخديوي التقدم دون حرج، ثم سبقنا وكأنه يريد أن يعرِّفنا ما يوجد بقصره. ودخلنا إلى رواق طويل، مدعم بأعمدة من الرخام الوردي، أخذت من معبد (روما)ني بالإسكندرية. وكان رأس هذه الأعمدة الرائعة وقاعدتها

(1) يصاب الفلاحون بالقاهرة- وخصوصاً بمصر العليا- بأمراض العيون التي تؤدي حتماً إلى فقدان البصر.

من الرخام الأسود المزين بالذهب. وهذا الرخام الوردي والأسود الذي قُدَّ في شكل مثلثات يغلِّفُ أرضية القصر اللامعة. وكانت كرات من الأحجار الكريمة قد جمعت مثل عناقيد العنب الضخمة بحيث تعكس على مختلف الأشياء نوراً قزحياً، هادئاً وغامضاً، مثل النور السماوي. وعلى طول الممر، وسط الأعمدة المتوازية؛ كان خمسون عبداً نوبياً متكئين على مخدات مخملية وردية، ويبدون في السن نفسها والقامة والوجه، بلون بشرتهم (الأبنوسي)، إلى درجة يعتقد معها المرء أنهم ولدوا في اليوم نفسه من أم واحدة. وكانوا يرتدون قمصاناً بيضاء، ويكشفون عن أعناقهم وأذرعهم وسيقانهم ذات اللون الأسود البراق. وبأذنيهم توجد خرصتان فضيتان، وحول معاصمهم وكواعبهم هناك ما يشبه الخلاخيل؛ وبين أفخاذهم الملتقية وضعوا دفّاً مثل درع واقٍ لبطنهم؛ وهو مصنوع من جلد منزوع من جسد عدوٍّ قتل خلال الحرب. وعلى هذه الآلة البدائية التي تدعو القبائل المتناحرة إلى الحرب والانتقام والموت؛ كانت أصابع النوبيين تقرع برشاقة متوترة ودقيقة، يبدو أن البدائيين ورثوها عن القرود. كان الدوي في البداية خفيفاً ومقعراً ومتقطعاً وكأنه إعلان عن المسيرة المتوجسة لجيش يتقدم في منطقة مكشوفة. وهذا التناغم الموسيقي يحصل بقرع الإبهام المبتل بالريق على جلد الآلة. وأصدرت الأقراص النحاسية المحيطة بالدف رنيناً متقطعاً، مثل الطلقات الأولى للأسلحة النارية خلال معركة. وفجأة دوى في الوقت نفسه، القرع على جلد الدف ورنين الأقراص، وكانا شبيهين بتبادل إطلاق النار أو بدوي مدفع.

وبعد هذا الخليط الشرس والعنيف؛ تراجع الصخب وكأنه ينتحب على الأموات الذين سقطوا في ساحة القتال. ومباشرة بعد ذلك، انبثقت موسيقى مرحة مواكبة لغناء الهمجيين المنتصرين الذين يشتمون المنهزمين، ويقفزون فوق جثثهم، ويبصقون على وجوه من بقوا أحياء، ويستعبدونهم، وكان المغنون النوبيون يقومون بحركات رهيبة، بحيث كانت أجسادهم ترتعش مثل ارتعاش الحيوانات وهم يرفعون الدفوف فوق رؤوسهم ويبدو شعر رأسهم المجعّد والحليق واقفاً؛ كما تظهر عروق أصداغهم كأزهار قبيحة المنظر، وتهتز آذانهم، وترسل أعينهم العميقة نظرات متعطّشة، وتشتمُّ خياشيمهم الواسعة رائحة المجزرة، ويبدو على شفاههم المنتفخة كالتوت الضخم وكأنها ارتوت بدماء العدو، أما أسنانهم الحادة فهي مخيفة، ويشبه بياضها وميضاً رهيباً يلمع، ويمزق الأجساد. وعندما اجتزنا الأروقة؛ ارتفع

الصخب احتفاء بالخديوي؛ فقد غزا أبوه إبراهيم- الجنرال العظيم- بلاد النوبيين، وأخضعها لمصر. هكذا، أصبح نشيد الانتصار الذي يغنيه المهزومون الآن، تمجيداً لقوة المنتصرين.

وأفضى الرواق إلى باب واسع، انفتح على متنزه مغطى يسميه الإيطاليون (loggia)؛ أي مقصورة. وأمام الرواق ثلاث أقواس عالية من (الغرانيت) الأحمر، تحيط كما في اللوحات التشكيلية بأشجار البساتين وأزهارها. وبجانبها يظهر النيل الذي تطفو عليه مراكب شراعية مذهبة ذات أشرعة من الحرير؛ وفيما وراء النهر تبدو ثلاث صخور وضاءة وعظيمة، مغطاة من رأسها إلى قاعدتها بسيول (فسفورية) وكأنها براكين مستيقظة تقذف حممها الملتهبة. وعند بلوغنا المتنزه انبهرنا ونحن نرى أن القمم الثلاث الوضاءة كانت هي الأهرام الثلاثة للجيزة[1] التي أنيرت من أجل الحفل الملكي.

كانت جنبات هذه المآثر تشع بأنوار متوهجة، وقد جندت قبيلة من البدو للسهر عليها. وكان عرب آخرون واقفين مثل العمالقة، ويرفعون المشاعل الكبيرة قرب منحدرات سلسلة الجبال الليبية. وبعيداً عنهم كنت لا ترى سوى النمل؛ ونقصد بذلك الرجال المسؤولين عن الآليات، والذين يختفون داخل هذا (الديكور) الشاسع.

اكتمل جمال اللوحة بصمت المكان وسكون السماء، بحيث إن الخطوط الواضحة بالنسبة إلى كل مستوى كانت تطبعها بميسم لا يمَّحى. وكانت الأراضي التي ما زالت غارقة في المياه بسبب الفيضانات الأخيرة للنيل؛ تشكل بحيرة شاسعة. وعلى مياهها الرمادية؛ تبرز المثلثات العجيبة للأهرامات الثلاثة، الحمراء والملتهبة؛ وكأن لحم آلاف العبيد الذين ماتوا وهم يعملون على بنائها ودمهم، قد أضفى عليها لوناً أرجوانياً مثيراً. وكانت مقابر (الفراعنة) فارغة، إذ ألقي بمومياتها الزاهية في رمال الصحراء؛ والسماء الزرقاء الكئيبة، بزرقتها الصافية واللامعة؛ تحيط بشساعتها الهادئة (الثنانين) الثلاثة الغامضة، المصنوعة من الحجر والتي يبدو أنها امتصت آثار المذبحة. ومن جانبه كان لمعان النجوم، الصافي والخالد؛ يتحدى ببريقه الكوني كل اللهب الأرضي. هكذا خفتت آلاف المشاعل التي تموجت أنوارها على جبال ليبيا تحت قوة الأنوار السماوية الهائلة. فشفافية الليالي الإفريقية تضاعف ثلاث مرات من عظمة الكواكب وبهائها حيث تلمع في الفضاء العميق المزين بالنجوم. وكان القمر القريب من

(1) شكلت أهرامات الجيزة جزءاً من مقبرة (ممفيس) (Memphis).

الأرض يلامسها ببهائه، بحيث إن هيئته الشبيهة بمركب سحري؛ تخترق المحيط السماوي بنورها الذي يحط بروعة على قمة أعلى هرم؛ ومثل الربات الإغريقية بهدوئها الجليل ينحني مبتسماً فوق الوحش الجاثم عند قدميه. أفلا تسير كل الكواكب والنجوم في موكبه؟ هل يمكن لأعظم أعمال الطغاة المقلدين للآلهة أن تصل إلى مستوى هذا البهاء المشع حولها؟

إن ديمومة هذه الأشياء الفاتنة لا تعدّ شيئاً أمام خلود الماهيات؛ وبسمة القمر تقول لنا ما يلي: لم تظفروا هذا المساء سوى ببريق مستعار؛ مثلما لم تحظوا عبر القرون سوى بخلود ظاهر؛ وكانت إرادة إنسان كافية لخلقكم؛ مثلما كانت إرادة إنسان آخر كافية للقضاء عليكم. أنتم أخذتم من العدم قابليتكم للفناء، لكن من يجرأ على بلوغنا؟ إننا نحتفظ بسكينة الخلود.

وفجأة، انطفأت الأنوار المحيطة بالأهرام، فغرقت في الظلمة وكأنها تؤكد الحكم الصادر عن اللامتناهي. ولم نعد نرى سوى كتلة سوداء، تنعكس فوقها أنوار السماء.

هكذا انتهى الحلم البابلي؛ ودعانا مضيفنا إلى أن نتبعه إلى حدائقه، دون أن نسمح لأحلامنا بالتحليق في السماء الواسعة. نزلنا مثنى مثنى الأدراج الرخامية البيضاء؛ لنجد أنفسنا تائهين وسط النباتات والأزهار الملتفة حول الأروقة (الموريسكية) وأعمدة النافورات الدقيقة. كانت أنهار سورية جميعها متفتحة في ذلك المتنزه. ولا يمكننا أن نخطو خطوة دون أن نمر فوق تويجات الأزهار المتناثرة على جنبات الطريق المبلطة بالفسيفساء. وتبدو الأزهار الرائعة المنتظمة بشكل هندسي بديع، بألوانها الزاهية وكأنها خزف صيني جميل، استنفدت فيه كل إبداعات الشكل واللون؛ فتجد وروداً كبيرة في حوض خاص بها والقرنفل الأبيض الناعم كريش النعامة يبسط أوراقه فوق أحواض الخزامى الصفراء. أما السوسن البنفسجي فيحتفظ- مثل كاهن داخل الحريم- بتاجه (الإكليريكي) تحت أنفاس أزهار بيضاء ضخمة، تغمره بعطرها. وعلى صفحة المياه الزرقاء التي تعكس نجوم السماء؛ يطفو النيلوفر الهائل، بحيث وضعت قطعه الصفراء أو العاجية على أوراق دائرية ذات لون أخضر فاتح مشوب بالسواد، تشبه الأطباق المعدنية المائلة إلى الخضرة. وداخل الأكواب توجد أزهار بيضاء شبيهة برخام (باروس) (Paros) ونجوم حولها فراشات ليلية جذابة. هكذا، تلتقي الأزهار والفراشات، فيا له من لقاء رائع! ونتذكر- ونحن نراها- محارات بحر (إيجة) البيضاء التي

اختفت بداخلها (فينوس) المرتعشة. وكانت أزهار (اللوتس) تتمايل على جنبات المزهريات. وكل أنواع النباتات المتعرشة قد علقت أوراقها وأزهارها الدقيقة وأجراسها الصفراء أو البيضاء على أغصان أشجار (يهودا) التي تتساقط منها لآلئ من المرجان الوردي. وعبر هذه النباتات الوافرة؛ كانت الأضواء البراقة لليلة منيرة تتسرب بلطف. إن هذه الأجواء الدافئة والساكنة؛ أدت إلى ثمالة مزدوجة وإلى متعتين متميزتين؛ وهما متعة العطر ومتعة الأصوات.

وبينما كنا نمشي ببطء وقد أحاط بنا طيب الرائحة؛ سمعنا أنغاماً وأغاني عذبة، ذات تأثير غريب. وبدا وكأن هذه النغمات قد نزلت من السماء أو من أعالي الأشجار الضخمة التي انتصبت أمامنا فجأة وكأنها ملتقى طرق مظلمة. هكذا توالت أشجار الأرز اللبنانية وأشجار النخيل والثمر الهندي و(الجميز) و(الأكاسيا)؛ وفيما وراء هذا الرواق الذي تشكل جذوع الأشجار أعمدته؛ ظهر سلَّم خارجي بأدراج رخامية، وتمت إضاءته على الفور.

لقد كان بإمكاننا في القاعات الشرفية بأجمل قصور (البندقية) أن نرى (شمعدانات) تمثل زنوجاً، جالسين تارة وواقفين تارة أخرى، واضعين فوق رؤوسهم كرات مضيئة أو حاملين بأيديهم المشاعل. وتعدّ بعض التماثيل أعمالاً فنية حقيقية، حيث تم تمثيل العرق (الإثيوبي) بدقة، إلى درجة يعتقد معها المرء وكأن الوجوه حية. الدماء تجري تحت الوجوه السوداء، والأسنان تبدي سخريتها بين الشفاه المنتفخة؛ والمناخير ترتعش والعيون السوداء تحدق فيك. غير أن الوضع الذليل والمتوحش في الوقت نفسه؛ هو وضع العبيد فعلاً. فالإرادة المنكسرة تحتج عن طريق تصلب العضلات. ومن المؤكد أن الفنانين الإيطاليين نحتوا هذه التماثيل انطلاقاً من أجساد حية. كانت التجارة قد سمحت باتصالات مستمرة بين (البندقية) وتونس والجزائر أو الإسكندرية. والتوفر على خادم أو خادمين كان يعد شرفاً لدى العائلات (البطريركية) بـ(البندقية). وكان العبيد القدامى يقومون عند أسيادهم (الأوربيين) بالوظائف نفسها التي قاموا بها في البلدان الإسلامية، وبذلك استخدموا نماذج لدى النحاتين المعاصرين.

وظهر فجأة مئة من العبيد الحاملين للمشاعل؛ تحت أقواس رواق زين سقفه بالرخام. وخلق العبيد السود الذين هم مشاعل حية، وقف عبيد بيض، أطول منهم؛ بزي المماليك. وكانوا شركسيين، تم اختيارهم بعناية؛ بقامتهم الطويلة وعنقهم العاري الذي يبدو كعمود.

وفوق العمامة المحيطة بجبهتهم الناصعة يظهر السيف المعقوف الذي شدَّت يدٌ قوية على قبضته. وكانوا جميعهم يتخذون الهيئة نفسها، دون حراك.

يندهش الرحالة الذي يزور القصور التركية بالقاهرة أو (قسطنطينية) من سلبية هؤلاء العبيد[1]، فهو يراهم واقفين عدة ساعات دون حركة؛ تلبية لأوامر سيدهم.

وعندما وصلنا إلى أعلى السلالم المؤدية إلى رواق دائري، ونحن خلف الخديوي، قام العبيد المنتظمون في صفين بأداء التحية الشرقية. وكان اثنان من الحراس الشخصيين، وهما عملاقان شركسيان تذكرنا قامتهما بجمال تمثال (هرقل)؛ يقفان أمام باب هذا الرواق الغريب. واتضحت شيئاً فشيئاً، النغمات الموسيقية المنبعثة من الداخل، عندئذٍ قام العملاقان برفع ستائر كبيرة مثبتة بدعامة من الفضة؛ فرأينا بركة يتوسطها مركب رائع. وكانت جوانبه مذهبة؛ وسطحه واسعاً، وقد وضعت فوقه زربية أرجوانية اللون، وعلقت بكل صارٍ أزهار اصطناعية ممتزجة بأزهار حقيقية. وبمقدمة المركب؛ جلس أعضاء الفرقة الموسيقية العربية فوق مقاعد مغطاة بقماش من الحرير. وكان أحدهم يعزف على (الكمان)؛ والثاني على العود؛ والثالث على (المندولين)؛ والرابع على الناي، وآخرون على دفوف خفيفة تعدّ أصواتها مقارنة بدفوف النوبيين الحربية؛ مثل خرير غدير مقارنة بالشلال.

كان الموسيقيون جميعهم يعزفون بمهارة؛ ويترأسهم أحد أشهر المغنين العرب، وهو الشربيني أحمد الذي يمكن عدّه نجم القاهرة. فصوته القوي يتدرج على نحو خارق للعادة، حيث يعبر عن تغيرات الإحساسات والمشاعر، ويرسم بالأنغام- إن صح التعبير- لوحات تؤثر في الناظر، وتبرز كل انفعالات النفس الإنسانية. وعند دخولنا إلى القاعة السحرية، كان يغني مع أفراد الجوقة مقطعاً، هو بمنزلة تحية لنا. ولقد كان هذا المركب المنير ينعكس كاملاً على صفحة المياه الصافية التي تذكرنا بمياه البحيرات التي نراها من قمم جبال الألب.

على صفحة هذه المرآة الرائعة تظهر نجوم السماء المتلألئة أيضاً؛ وعلى جنباتها وُضعت مخدات ومقاعد حانية للمتفرجين. وكانت الأسماك الوردية ذات الزعانف الذهبية تسبح في هذه المياه المضاءة، وتلامس النباتات المائية، كما كان البجع الأبيض كالمرمر يسبح متجهاً

---

(1) ستبرز هذه السلبية أكثر في الحريم الذي سأصفه لاحقاً لقرائي؛ حيث تبدو سلبية النساء مثيرة ومحزنة أكثر.

صوب المركب الذي يصدح فيه صوت أحمد.

أما القمر فكان يراقب- مبتسماً وبفضول- ما يحصل تحته. وبهذا الشكل، كانت ديانا Diane في العصور (الميثولوجية) وبالريف الروماني؛ تنظر إلى وجهها على صفحة مياه بحيرة (نيمي) (Nemi) التي مازالت تحمل اسمها. وكانت الأقواس التي تغطي ثلاثة أرباع الرواق؛ تنفتح على الحدائق وعلى البركة، لكنها في الجهة المقابلة لا تنفتح إلا على هذه الأخيرة، وكانت مغلقة من الجانب الآخر، حيث شيد جدار سميك بنوافذ جانبية ذات شبابيك مذهبة، تشبه الشرفات المشبكة. ويظهر من البابين المصنوعين من خشب الأرز والمحروسين من قِبَل مجموعة من الخصْي أن وراءهما غرفة الحريم. وكنا نسمع ونحن خلف الخديوي حفحفة الفساتين الحريرية وطقطقة الأساور وراء الشبابيك.

قدم لنا العبيد (الشيشة) الشرقية والقهوة، داخل فناجين يابانية لطيفة، محاطة بـ«الظرف» المرصع باللآلئ، وأيضاً شراباً مثلجاً داخل فناجين بمقابض ذهبية، مرصعة بالأحجار الكريمة. وكان الخدم يمرون بيننا برشاقة ونحن نأخذ نفَساً من طرف (النرجيلة) المصنوع من العنبر، ونشم بهدوء رائحة المشروبات الشرقية، بحيث لم يكن يسمع الرنين المزعج للملاعق داخل الفناجين.

وحده صوت أحمد كان يصْدح عبر صمت هذه الليلة الجميلة. وقد كانت الموسيقى ترسم أمام أعيننا سراب قافلة كبيرة ذاهبة إلى مكة. كان شيخ العلماء، وهو الشيخ العروسي؛ يبارك بجلال الحجاج الذين ركبوا الجمال عابرين رمال الصحراء. وكان صوت الجوقة الذي يمتزج فيه غناء أحمد بعزف الآلات الموسيقية؛ يعبر عن هذه المسيرة المتشوقة.

وفجأة، هبَّت ريح الخماسين الرهيبة التي ينبعث نفسها من أعماق الأرض، لينزل على القافلة بزوبعة رهيبة، تشبه في هديرها صوت ثعبان ضخم يلتف حول ضحاياه، ويخنقهم دون أن يستطيعوا فكاكاً منه. وتم التعبير عن الرعب بالصرخات والأنين التي عملت الموسيقى على محاكاتها بنغمات صاخبة تارة ونائحة تارة أخرى. وشيئاً فشيئاً، هدأت العاصفة، فقد انتصر الإله على الخماسين؛ وإثر ذلك تابع الحجاج طريقهم. وكم كانت فرحتهم عند وصولهم إلى المدينة المقدسة، حيث دخلوا إلى المساجد المنورة التي كانت تسمع فيها دعوة الرسول، الراقد

الآن في قبره، لكن الحاضر دوماً في نفوسهم بوصفهم مؤمنين. فهو قد وعدهم بالجنة التي سيستمتعون فيها بكل مُتع الجسد؛ نتيجة إيمانهم الذي لا يتزحزح[1].

ولمّا أتى المغني أحمد على ذكر محمد ارتفع صوته، وأصبحت نبراته معبرة بقوة عن مسار الرسول الفاتح والمصلح[2]؛ ثم انخفض الإيقاع عندما تمَّ ذكر الحوريات وهن يستقبلن أرواح المؤمنين المدافعين عن الإسلام. وكانت الأنغام المعبرة عن هذه الثمالة الخالدة تخترق أعماق الحاضرين، وتنقل إليهم هذه الملذات المثيرة.

وعند رجوع الحجاج إلى القاهرة ارتفع الصوت المرح ذو النبرة الإنسانية المفهومة من لدُن الجميع. وفتحت أبواب الحريم التي زينت بزخارف جديدة؛ لاستقبال النساء المحجبات المتشوقات لرؤية أطفالهن الذين سيصرخون فرحاً عند رؤية أمهاتهم.

رسمت هذه اللوحات الخالدة بنغمات متقطعة، جنونية وحادة. وصفق الحاضرون المنبهرون على هذه (السمفونية) العربية الرائعة التي أبان فيها المغني الكبير أحمد عن علو كعبه. وألقيت القطع النقدية الذهبية باتجاه هذا الفنان الملهم الذي شكر الحضور بامتنان، وحياهم تحية إسلامية وقورة. وسقطت بعض القطع النقدية في البركة الرخامية ذات المياه الصافية؛ وعلى الفور، قفز أعضاء الجوقة الشباب بداخلها، والتقطوا تلك القطع اللامعة، ثم وضعوها- بحركة المنتصرين- بين رجلي أحمد وهم يزيلون قطرات الماء اللامعة فوق شعرهم الطويل وقميصهم الأبيض. واختلطت تشجيعات الحضور بتصفيقات النساء الموجودات خلف الشبابيك. وبإشارة صارمة من الخصيان؛ توقف التصفيق، وساد الصمت. وانبعثت إشارة أخرى من منظم الحفل، فبرزت على السطح المتحرك للمركب أرضية مغطاة بزربية أرجوانية ذات أطراف مذهبة؛ ووسطها اجتمعت خمس نسوة. ولولا الحلي التي كانت تثقل

(1) يتعلق الأمر بما يدعى لدى المسلمين بالجنة، وبالنسبة إليهم فإن الموت بمكة هو السبيل للتمتع بخيرات الجنة التي سيستقبلون فيها الحوريات اللواتي يلوحن بمناديلهن الخضراء باتجاههم.
ويضم المسجد الحرام الكعبة، وهي بناء من 12 متراً مربعاً. وقد بناها نبي الله إبراهيم مصلّى، وبعد فتح مكة حطم محمد الأوثان التي كانت موجودة بالكعبة، لكي يصبح المكان مخصوصاً لعبادة الله. وتعدّ الكعبة قبلة المسلمين في صلواتهم، وفيها الحجر الأسود الشهير.

(2) كلام الكاتبة على الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام مَسوقٌ بأسلوب خبيث، تفوح منه رائحة السخرية والهزء، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يدلّ على مبلغ علمها بدين المسلمين وعقيدتهم، ولاسيما حديثها عن الفضيلة المزعومة للموت في مكة! (المحرر).

أجسادهن لاعتقدنا أن الأمر يتعلق بجمال أجسام أروع التماثيل (الإغريقية) ورشاقتها. فقد كانت هاته النسوة يرتدين الزي التقليدي لـ(العالمات)[1]، وهو قميص فضفاض من الشفّ الوردي الفاتح، لا يخفي شيئاً من ثنايا الجسم. وحُمل النهدان العاريان بسترة قصيرة مطرزة بالذهب. أما (السروال) الواسع والفضي؛ فقد ثُبِّتَ بالأرداف بوساطة حزام مرصع بالأحجار الكريمة. وحول الأكعاب الرقيقة؛ وضعت خلاخيل من الذهب والفضة. أما أصابع الأرجل العارية والأيادي؛ فامتلأت بالخواتم المكللة بالأحجار الكريمة. وأحيطت الأذرع والمعاصم بدمالج ذهبية من الذهب أو الماس، شبيهة بثعابين. وعلى الصدر والنهدين؛ كانت هناك ثلاثة صفوف من القطع النقدية الذهبية التي تصدر رنينها عند كل حركة من الجسم.

كانت القطع نفسُها- إضافة إلى اللآلئ- تلمع بشعر الرأس المسترسل كخصلات، مثل الصورة الشهيرة لـ(كليوباترا) المنحوتة بمعبد دنْدرة جنوب أسوان.

أما خدودهن وشفاههن؛ فكانت مخضّبة بشكل زائد، وتُبرِز لمعان بشرتهن السمراء الدقيقة. وامتد قوس الحواجب بفعل الكحل، وأصبحت الجفون والعيون السوداء الرائعة أكبر حجماً. أما أظافر الأرجل والأيْدي؛ فقد طليت بالحناء. ويوحي منظر (العالمات) وهن جالسات بالتماثيل الهندية. لكن صفاء ملامحهن يوحي أيضاً بتلك التماثيل الجميلة المتعددة الألوان والمرصعة بالذهب والأحجار الكريمة والتي كان (الإغريق) يضعونها داخل معابدهم.

كانت أطولهن واقفة وسط الجماعة، بحيث بدت لنا بهذا المركب المثير وكأنها آلهة (إغريقية). على محياها كان الإباء مرتسماً؛ والروعة مشعةً من قِوامها؛ وهي امرأة في الخامسة والعشرين من عمرها، حفظها جمالها الرائع من الشيخوخة المبكرة التي تصيب النساء في بلد تصل فيه

(1) يشيع إطلاق هذا اللفظ على (المغنيات والراقصات) في اللهجة المصرية العاميّة، وقريبٌ منه إطلاق اسم (الحجيات) على بعضهن في اللهجة الشامية (!)؛ وهما استعمالان محدثان، طرأ عليهما تغيير دلالي يسمى (انحطاط المعنى)؛ وهو نوع من أنواع (انتقال المعنى) في علم الدلالة. وذهب بعض العلماء المعاصرين مذهباً آخر في تأثيل لقب (العالمة)؛ إذ يرى أن هذه الكلمة لا صلة لها بمادة (العلم) في العربية، وأنها تعريب لكلمة (عالمة) العبرية؛ التي تعني: (الجارية) أو (الفتاة). انظر: رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 169 (ط. الخانجي). ومن الأفضل ترك تسمية الأمور غير المستبحة بالأسماء التي تحبّ النفوس مسمياتها؛ لأنها تكسر حاجز النفرة منها، وتمهد للوقوع فيها. (المحرر).

الفتيات سن البلوغ عند سن العاشرة. وكانت تتجاوز بذراع النساء الأربع الأخريات، النحيفات واللطيفات، اللواتي كانت عيونهن المحبة وأذرعهن الجذابة تمتد نحوها وكأنها تستعطفها. وصدرت عن هذه الأخيرة ابتسامة مشجعة وكأنها تقول لهن: «عليكن تقليدي»، مثلها في ذلك مثل أم صارمة تحث أطفالها على الدراسة بتلاوة درس صعب أمامهم.

هكذا، وضعت بين أصابعها ثعابين صغيرة من العاج مزخرفة بالفضة، وبدأت تلعب بها كصناجات. وعلى الفور قفزت تلميذاتها الأربع، الخاضعات لها؛ مثل مهرات حركهن السوط للمشاركة في السباق. وكانت أعضاؤهن ترتجف، وتتصلب عبر فستانهن الشفاف؛ وكن يرقصن على إيقاع الصناجات التي تحركها الأصابع الرقيقة؛ ويرفعن أرجلهن اللطيفة لتلتقي بعد ذلك الرجل البديعة لمعلمتهن «بدوية»[1]. واستهل أحمد الجالس بمقدمة المركب، المشهد الراقص بوصلة بطيئة، ستتسارع وتيرتها لتواكب رقصة النحلة الشهيرة. وكانت بدوية تفتخر بكونها آخر من يمثل الراقصات القديمات، أي (العالمات) اللواتي كن يرقصن، ويغنين في بلاط الفراعنة ويظهرن في الرسومات القديمة[2].

وتعتز بكونها تحافظ على النبالة البدائية لهذا الترفيه الملكي. ولأنها فخورة أيضاً بجمالها؛ فهي لا تقوم بالحركات المثيرة التي تقوم بها (العالمات) المبتذلات، اللواتي يعدّ فن الرقص بالنسبة إليهن تابعاً لمهنة المومس. هكذا، ورغم أن رقصة النحلة معروفة ببذاءتها في كل البلدان الإسلامية، فإن بدوية أضفت عليها طابعاً مؤثراً ووقوراً. تتضمن هذه الرقصة حركات شبقية، وهي تُمارَس اليوم في قصور (باشوات) القاهرة و(باياتها). ففي البداية تفتح الراقصة عينيها ببطء؛ وفجأة يرتعش كل جسدها، فتلوي عنقها، وتحرك ردفيها بقوة. آنذاك تزداد وتيرة الموسيقى والغناء، وتصطدم الصناجات الموضوعة بالأصابع المتشنجة، وتصل النشوة الجسدية إلى ذروتها. بعد ذلك، يخيم الهدوء تدريجياً، وتنفخ (العالمة)- الواقفة دون حراك- صدرها، وترمي بجسدها، مصطنعة حالة الإغماء؛ لكنها تنهض مباشرة وتزم شفتيها وتقلد طنين النحلة التي لسعتها. فأين اختفت هذه النحلة القاتلة؟ ربما تحت سترتها؛ هكذا تنزعها،

(1) رأيت بدوية وهي ترقص في إحدى الأمسيات بكينش قرب الأقصر. وقد ولدت هذه المرأة المحبوبة والعفيفة والأبية- وهذا استثناء- بقرية قرب أسيوط.

(2) يطلق لقب (العالمة) على المغنية والراقصة؛ دون تمييز.

وترمي بها بعيداً؛ لكن النحلة ما زالت تصدر طنينها تحت (السروال) والقميص؛ عندما تقوم (العالمة) المومس بنزعها. ولما تصبح عارية تلقي بنفسها بين ذراعي المُشاهد الذي عدّته من أغنى الحاضرين؛ لأنه ألقى بين رجليها أكبر كمية من القطع الذهبية. ويستمر طنين النحلة في شعر الرأس. وهي لن تغادره إلا إذا ما غطيت بقطع ذهبية جديدة، توضع على جبين (العالمة) من الشخص الذي اختارته كمخلص لها. وطبعاً فنحن ندرك أن أكثر (العالمات) المصريات بذاءة لن تجرأ على تجسيد هذا الفصل الأخير من رقصة النحلة في هذه الليلة بقصر الخديوي.

من المؤكد أن بدوية المعتزة بنفسها كانت سترى في هذه الرقصة مساً بالفن التقليدي الذي تمثله. وإليكم كيف قامت بها، باعتبارها رقصة وطنية، وأنجزتها في صفائها بمساعدة تلميذاتها المتخوفات. فما إن بدأ طنين النحلة الخفية ينبعث من شفتي الراقصة؛ حتى شرعت (العالمات) الصغيرات في طقطقة الصُّنيْجات؛ وأحطن ببدوية، وقامت معهن برقصة دائرية وكأنها تريد التخلص من اللسعة القاتلة. وكان غناء أحمد وإيقاع الموسيقى قد هيجا أرجل الراقصات اللواتي كانت أصابع قدمهن تتوهج داخل الزربية الأرجوانية. وأمام الطنين الحاد للنحلة الذي يتميز من الموسيقى؛ صدرت عن الراقصات حركات متوجِّسة، بعد أن قمن بحركات سريعة. وشوهدت بدوية كأم خائفة من أن يقع مكروه لأبنائها وهي تنحني بذراعيها الممدوتين نحو الشابات الأربع وكأنهن بناتها من رحمها. وكن يطلبن عونها وقد بدا عليهن الخوف، وتشنجت سيقانهن وجذوعهن، وارتعشت صدورهن وانتفخت أوداجهن، واضطربت شفاههن، واحمرت عيونهن المفتوحة بسبب الدموع. ووضعن أيديهن فوق صدورهن، وفتحن قميصهن الشفاف، لكن الأم التي اعتقدت أن اللسعة المسْمومة أصابتهن؛ أحاطت كل واحدة منهن بذراعيها المرتعشتين، ومصت موضع اللسعة في الوقت ذاته الذي حلقت فيه النحلة الغاضبة فوق رأسها، وتسللت إلى حضنها. وصرخت بدوية، لكنها تمكنت من التحكم في قلقها، وانتصبت بشموخ مثل (نيوبي) (Niobé) الأسطورية المتحدّية لسهم (أبولون) (Apollon).

وكانت (العالمات) الصغيرات مثل أمهن؛ قد احتفظن في هذا المشهد بجمال فتيات (نيوبي) المرسومات بأروقة (فلورانسا). غير أن الرخام تحول لحماً؛ ولولا لمعان الزي المصري الذي يتناقض مع بساطة الملابس المطرزة؛ لاختلط الأمر على الناظر. فقد كانت كل راقصة تعكس

هذا الألم العميق من دون تقطيب للوجه ومن دون ذلك الالتواء المميز للتماثيل الإغريقية.

كانت أصغر الراقصات تتخذ هيئة مندهشة وساذجة، شبيهة بهيئة أصغر فتيات (نيوبي)، وهي تعاني الرعب البادي على أمها وأخواتها. وأمام أنين بدوية؛ سارعت نحو الحضن الأمومي، وأزالت بيدها الأثواب التي تغطي الجرح؛ وحجبت بدوية نهدها العاري بيديها المتقاطعتين بعفاف، وأرجعت رأسها إلى الوراء، وأسلمت الروح وكأنها صعقت. وصفق الحاضرون جميعهم؛ وبدل القطع النقدية التي تلقى بين أرجل (العالمات) المبتذلات؛ ألقى الخديوي بماسة ضخمة بين نهدي بدوية؛ مما زادها جمالاً. وبخفة، انتصبت هذه الفنانة الملهمة ووضعت الماسة الرائعة بشعرها فوق الجبين. وبعد أن حيت ولي نعمتها شكرته على هديته الثمينة؛ بأن قدمت رقصة السيوف التي كانت الراقصات المصريات القديمات يقمن بها أمام (الفراعنة).

هكذا، ناولها عبدان نوبيان صغيران سيفين مقوسين عظيمين، فأخذتهما، وجعلتهما متقاطعين فوق رأسها. استنار وجهها الجميل تحت هذا الإطار الفولاذي. ورفعت رجلها، ثم أرسلت بريقاً من عينها؛ عند ذلك، قام موسيقي من مصر العليا- مولود بقرية بدوية نفسها، ويتبعها في كل عروضها- بعزف لحن عسكري على الرباب، في حين كان صوت أحمد يصدح بأغنية حربية. وأرخت بدوية ذراعيها، ثم رمت إلى أحمد السيفين؛ وبدقة فنان كبير قامت بمشية عسكرية، جريئة ومزهوة. وقد قلدت بذلك نشوة الحرب وفرحة الفوز. هكذا، أشهرت سيف الانتصار، وأخذت تديره في الهواء، فامتزج لمعانه بلمعان حليها؛ وبحركة تجمع بين قوة المحارب ورشاقة المرأة، وضعت سلاح النصر على جبينها الأيمن. وبان رأسها مثل (الأمازونيات) الأسطوريات اللواتي لا يقهرن، كما تحكي الأسطورة.

وانتزعت جرأة هذه الراقصة وأناقتها التي لا مثيل لها؛ صرخات الإعجاب من الجميع، بحيث أن كل متفرج ود لو يحييها بقولة (عطيل) وهو يخاطب (ديدمونة): «يا محاربتي الجميلة!»، وتلقت بدوية كهدية؛ السيف الرائع بمقبضه المرصع بالأحجار الكريمة والذي كان من بين الأسلحة الخاصة للخديوي. فرفعته مرّة أخيرة فوق رأسها، واختفت كحلم تحت سطح المركب. وفوق الزربية الأرجوانية نفسها التي مازالت ترتعش بفضل الرقصة

البطولية؛ تقدم عربي طويل القامة وهزيل ذو ملامح متناسقة، لكنها ستتشنج فجأة بفعل القلق والرعب، حيث صدر عن عينيه البراقتين والمفتوحتين بشكل غريب؛ وميض كئيب انعكس على وجهه الحزين. وكان يلبس جلباباً أبيض يكاد يستر جسمه من تحت الإبطين إلى الركبتين. أما العنق والصدر والذراعان والساقان، فكانت عارية وكأننا أمام تمثال برونزي. وحول جذعه ومعصمه التفت ثلاث أفاعي ضخمة هي التي سماها (هيرودوت) بتماسيح الأرض. كانت تحرك ذيولها، وترفع رأسها، وتفتح فمها وقد أثارها لمس الجسد البشري، فعضت العربي الذي عضها بدوره. وتدفق الدم من الأعضاء المجروحة، على الجلباب الأبيض الذي أصبح أحمر على الفور. هكذا سنعرف أننا أمام أشهر حاوٍ في مصر.(1)

خيم علينا الرعب الذي أصبح حقيقياً بعد أن كان مصطنعاً؛ وأحسسنا بالقشعريرة وكأن السم البارد والقاتل يجري في عروقنا. وانقض طفلان في العاشرة من عمرهما على صدر أبيهما الحاوي؛ محاولة منهما لإبعاد الأفاعي، لكنها تمددت منزعجة، وأصدرت صفيراً، والتفت بجلدها البارد على الأجسام الثلاثة العاجزة عن إيقاف عضاتها.

(1) كان الحواة أو مروضو الأفاعي موجودين ببلاطات ملوك مصر منذ أقدم العصور؛ وقد ظهروا في أقدم الآثار، وشكلوا دوماً اتحاداً مستقلاً بذاته. وهم ينقلون معارفهم أباً عن جد، ويخاطبون الجمهور قائلين: «إن الأفاعي لا تطيع سوى الرجال الذين كان أجدادهم حواة».

وتتمثل معرفتهم في قطع الأنياب السامة للأفاعي الملتفة حول أذرعهم. لكن، لكي يقبضوا عليها، ويقوموا بهذه العملية؛ يتعين عليهم التوفر على مهارة وشجاعة كبيرتين.

طبعاً فإن الحواة المصريين- مثلهم مثل الحواة الهنود- يجذبون الأفاعي عن طريق الصفير الخفيف والأصوات الخافتة. وبذلك يصطادون الأفاعي وثعبان الأهرامات الذي يعدّ من أخطر ثعابين مصر وأيضاً الأفعى ذات القرون التي لا يختلف جلدها عن لون الرمال؛ مما يسهل عملية اختفائها. هكذا تقترب الثعابين بقفزات صغيرة، وتحدق بأعينها الدائرية في الحواة الذين يحدقون فيها بدورهم، ويستمرون في الصفير. وما إن تصبح في متناول أيديهم حتى يلقوا منديلاً فوق رأسها؛ فتتلقفه الزواحف بين أنيابها، عندها يجذبها الحواة، ويمسكون بها. وبحركة سريعة ودقيقة يكسرون النابين، فيبقى سمها بالمنديل.

ويقوم الحواة المهرة بهذه العملية في ظرف دقيقة. وعندما يحدث أن يتعرض الحاوي لعضة ثعبان، فإنه يضربه على رأسه، ويفتح فمه، ويكسر النابين بالمنديل نفسه، ثم يلف الثعبان الذي لم يعد خطراً، حول جسده؛ ويمتص الجرح، ثم يبصق الدم الممصوص.

وقد تحدث (هيرودوت) عن علم الحواة المشهورين في زمنه، وفسر طريقة جلبهم للأفاعي كما يلي: «إنهم يقلدون صوت الثعبان الخافت الذي ينادي على الأنثى أو صوت الأفعى الذي ينادي على الذكر. وهم يقلدونه بصوت جيد، إلى درجة أن الثعبان المخدوع يهرع عند سماع أصواتهم. وعندما يقترب منهم يكسرون بمهارة أنيابه المتضمنة للسم، ويمكنهم عندئذٍ تربيتها والقيام بمعيتها بكل الألعاب التي تدهش الجمهور».

وقد استحضرنا أمام أعيننا المرتعبة في تلك اللحظة مجموعة (لاوكون) (Laocoon). وربما شاهد الحاوي عند أحد (الإيطاليين) المقربين من الخديوي؛ نسخة من ذلك التمثال الرخامي القديم (تمثال لاوكون). فالتعبير اليائس على وجه الكائن (الطروادي) وعلى وجه أبنائه وتوتر العضلات المتصلبة وانتصاب الجسد الهائل الذي تحاول الكائنات المتوحشة خنقه؛ كل ذلك تم تقليده من قِبل العرب الثلاثة بشكل بارع. لقد ظل المتفرجون مشدوهين أمام هذا الاقتتال المريع. وفجأة تحرر الحاوي وابناه من الأفاعي، وابتسموا جميعهم كإعلان عن انتصارهم. كان يكفي البصق داخل الأفواه الدامية وإبقاؤها مفتوحة مدة ثانية واحدة؛ لكي تخمد الأفاعي وتصبح جامدة مثل عصي يتكئ عليها هؤلاء السحرة الشجعان. وبعد أن غطوا جسدهم المضرج بالدماء بجلباب بدوي طويل وأبيض؛ اختفوا كالأشباح وهم يجرون أكفانهم معهم. وكان تأثير هذه اللوحة ما زال قائماً؛ عندما اقترب منا أحمد برشاقة وحيوية وبسخرية شبيهة بسخرية (فيغارو) (Figaro)؛ وقد حمل معه (كماناً)، وجلس فوق الزربية الأرجوانية، ثم لعب بأوتاره، وصدح بصوته العذب، وغنى بحماسة كبيرة أغاني تركية وقحة، استطاع ملحها أو بالأحرى توابلها التغلب على لامبالاة المسلمين. وصفق (الباشوات) الأكثر وقاراً على هذه السفاهة التي تصف الممارسة الجنسية بدقة، كموضوع رئيسي ووحيد يردده المغنون الأتراك. والحال أن الأغنية العربية أكثر عفة، فهي تتضمن باقات شعرية وأنواراً مثالية واختلاجات روحية. أما (التركي) فقد ظل (تركمانياً)، ولم يأخذ من الشعوب التي تم غزوها سوى الجانب المادي[1]. أما عظمة الفن (الإغريقي) و(الموريسكي)؛ فلم تنر عقله. ونستطيع القول إن ما يثيره اليوم في الحضارة (الأوربية)، هو الجانب الحسي، وليست المشاعر؛ فهو يحافظ عبر أناقتنا وذوقنا الرفيع على سخرية عرقية وعلى فظاظة عفوية، تبدو منها شخصية (التتري) (Tartare). وقد عبر أكثر الحضور اشمئزازاً وتحفظاً عن غرائزهم الحقيقية من خلال ضحكهم الغاضب، حيث كانوا ينتشون بالمقاطع التي يغنيها أحمد مثل انتشائهم بالخمرة. وخاطبنا بعضهم ممن أقاموا بـ(باريس) بعجرفة همجية قائلين:

– عليكم أن تقرّوا بأنه لا القصر الملكي ولا مأكولاتكم تضاهي ترفيه هذه الأغاني.

(1) كره المؤلفة (للأتراك) له أسباب التاريخية المعروفة، وهو الذي أدى إلى تحاملها عليهم، وإدراكها الأشياء بخلاف ما هي عليه في الواقع. (المحرر).

ولأنهم اعتقدوا أننا أعجبنا بها؛ فقد ترجموا لنا عباراتها الأكثر إثارة. ومع ذلك، ظل ضحكهم مقبولاً بالمقارنة مع الضحكات المجلجلة وراء الشبابيك. ذلك أن نساء الحريم كن منتشيات أيضاً وكن يصدرن صرخات معلنة. واضطرب الخصيان، وزمّوا شفاههم الغليظة، وأداروا عيونهم الجاحظة. وبحركة آمرة تطالب بالصمت تجمعوا أمام شبابيك الحريم، فصمتت النساء المخفيات، وانتهى الانتشاء بالأغاني. ومن جانبه، أوقف أحمد المتألق سعادة وسخرية؛ هذا الفاصل الغريب.

وبدأت الأنوار تضعف فوق البِرْكة، بل أطفئت تماماً فوق المركب الذي كان مسرحاً لألعاب الشرق. وامتزجت أضواء الأَروقة بأنوار النجوم المنعكسة على صفحة المياه الصافية، وهيمن الليل والصمت تدريجياً على هذا المكان السحري. وكان الحاضرون يدخنون شيشة الوداع؛ وبعد آخر مصة انحنوا أمام الخديوي الجامد مثل صنم، ونزلوا الأدراج المؤدية إلى حدائق القصر. وعاد بعضهم إلى أماكن إقامتهم عبر المراكب (الموريسكية) الراسية بشاطئ النيل، في حين امتطى آخرون العربات. وكلف خادم التشريفات بإيصال الهدايا النفيسة الممنوحة من سيده إلى الشخصيات المهمة.

انتهت هذه الرؤية المتعلقة بالحفل (التركي) الحقيقي، وكان المغنون (الفرنسيون) ما زالوا يؤدون المقاطع النهائية لعرضهم الممل. هكذا، تخلصت بحلمي من واقع الملل، وقلت مع نفسي: ألم يكن باستطاعة عاهل مهم تمتيعنا بهذا المشهد المؤثر، بدل تعويضه ببرنامج تافه؟ لكن صوت قلبي أجابني قائلاً: احترسي! فخيالات الفكر غالباً ما تؤدي إلى إفساده. ولا يمكن تلبية متطلبات الخيال ومتطلبات الإنسانية في الوقت نفسه. فعندما يجعلك الانجذاب نحو المجهول تتأسف على بذخ البلاطات الآسيوية وعاداتها؛ اعلم بأنك تتنكر للعدالة. فهذه الأخيرة ممنوعة بالمجتمعات الهمجية التي يكون فيها شرف بعض الناس، أو لنقل: ترف شخص واحد مبنياً على عرق الشعب ودمائه. لم تمجد مثل هذه المجتمعات سوى المادة القذرة، فكم من الأعمال الشاقة أنجزت ومن الدموع سالت من أجل ثوب مذهَّب من الحرير، فوق جسد سيد منحط! وكم من الأحجار الكريمة، المشعة على جبين بليد، كان ثمنها آلاف الضحايا الأذكى والأجمل من هؤلاء المستبدين المتغطرسين. فحتى الحب يرتوي عندهم من الموت، فهو يفرض بالعنف والعذاب، ويمارس بالألم، ويؤدي إلى التخلي السريع

والوحشي. وكل الذين لطخهم هذا الحب انطفؤوا داخل المتع العابرة للحريم. وليس هناك من يجرؤ على إحصاء عدد العبيد الشباب من الجنسين الذين يموتون كل سنة في البلدان الإسلامية. ولكي تتم إزالة هذه الفظاعات يتعين اعتماد الشعر والفن وتفضيل ما يكرس العطف والأخلاق على ما يثير ويغري.

في الغابات المدارية بـ(أمريكا) تتوالد الحيوانات المفترسة والزواحف السامة وسط نباتات غير معروفة لدينا وأشجار ممتلئة بالفواكه اللذيذة. ولم يعر المعمرون الجريئون الأوائل الذين اخترقوا هذه الغابات الموحشة اهتماماً لعطرها الزكي. طعم الفواكه وزقرقة العصافير التي كانت تحوم فوق رؤوسهم مثل أحجار كريمةٍ طائرةٍ، والأنوار المتموجة التي تخترق النباتات الكثيفة، لم تنل من عزيمتهم. لقد كان هدف هؤلاء العمال الشجعان؛ هو غزو هذه الأماكن الرائعة وإبعاد الوحوش عنها وحرث الأرض؛ لكي تصبح مغذية ورؤوفاً. هكذا دمَّر الجمال البدائي لهذه المناطق المتوحشة، التي فقدت ما هو طبيعي فيها، لكنها ربحت الأمان. واليوم، فإن قطعان الماشية ترعى فيها، والحبوب تنضج بأراضيها، وكل المزروعات الأخرى تنمو في ربوعها. وأصبح الإنسان يقتات منها، ولم يعد بئيساً ومهملاً كما في الماضي. لقد أصبح أفضل وأقوى بفضل العمل الذي يعدّ المحرِّر الحقيقي والوحيد للإنسانية.

استفقت من حلمي بسبب الحركة الصاخبة والسريعة للمستمعين بعد انتهاء الحفل الغنائي. وتتبع الحاضرون الخديوي الذي تأبّط ذراع (دوقة) (أووسط) واجتاز قاعة الحفلات، متجهاً صوب الرواق الذي سيقدم فيه طعام العشاء. وتذكر الطاولات الفاخرة بالحفلات (الإمبراطورية): فكل شيء كان (فرنسياً)، من (الشمعدانات) إلى الأواني الفضية والخزف والبلّور والأطعمة والخمور وقائمة الطعام المطبوعة بحروف ذهبية والخدم بلباسهم الأحمر. ولن تجد خادماً عربياً بعمامته البيضاء ولا طبقاً (تركياً) ولا حتى حلويات (قسطنطينية) اللذيذة في مجملها.[1] كانت (الشمبانيا) تتلألأ باستمرار في كؤوس بخارى، بالمقابل كان من المستحيل الحصول على القلل المعروفة (وهي كذلك لأنها مفيدة ومنعشة)، التي تصفى بها مياه النيل وتحافظ على برودتها.

وعندما طلبت كأس ماء من رئيس الخدم الذي كان يملأ صحني بالمصبرات الباريسية

(1) نذكر من بينها (اللوكوم)، وهو عجين مخلوط بماء الورد و(الفانيلا) وأزهار البرتقال أو الليمون.

النادرة، قدم لي قنينة رائعة ممتلئة بماء عكر. ولما طلبت منه قُلَّة؛ أجابني بوقار قائلاً:

– كيف تعتقدين يا سيدتي أنني سأتجرأ على عدم احترام سموه؛ وذلك بتقديم هذه المصنوعات الفخارية غير المتقنة التي تساوي خمسة وعشرين (سنتيماً)؟

فردَّ البستاني الذي كان قريباً مني والذي كان يحتسي الشمبانيا:

– أحسنت القول يا سيدي؛ لنعمل على (فرنسة) القاهرة، ولندعم صناعاتنا وخمورنا وعاداتنا.

وبينما كنت أراقبه؛ أقبل نحوي رجل بطربوش مصري، يحمل فوق سترته وسام المجد الضخم، المرصع بالماس. وكانت سلسلة ساعته ممتلئة بالحلي الرنانة، وأصابعه مزينة بالخواتم اللامعة. وخاطبني الرجل قائلاً:

– ما الذي حصل يا سيدتي العزيزة، ألم تتعرَّفي إلي؟

وبينما أنا أحملق فيه مندهشة؛ ذكر لي اسمه. لقد كان (برلمانياً) (صقلّياً) قديماً، التقيته سنة 1861 بـ(نابولي) عند صديقي الشهير (كارلو بويريو) (Carlo Poerio)، وكان قد غادر (إيطاليا) منذ سنوات، وجاء إلى مصر بحثاً عن الثروة، وقال لي: إنه يشغل منصباً سامياً ببلاط الخديوي. وكان الأشخاص الذين يمرون بجانبنا يحيونه بلفظ «صاحب السعادة».

تأبط ذراعي، ثم قادني إلى قاعة صغيرة محجوزة، حيث كان الخديوي يتناول العشاء رفقة (دوق) (أووسط) و(دوقتها). وكان هذا المكان الضيق فاخراً ومؤثثاً على الطريقة الأوربية ومضاء بأنوار الثريات المنعكسة على المرايا الضخمة المثبتة بالجدران. وكان ثمَّة حاجز من القماش السوري المذهب يحيط بالمكان، ويعدّ تحفة وسط (الصالون). وكل الآنية كانت من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة؛ وكان غطاء المائدة والمناشف (التركية) مطرزة بشكل بديع ومرصع باللؤلؤ. وقد بلغ البذخ الشرقي أقصى حد بفضل الأبَّهة التي أضفاها الخديوي عليه، وذكرت رفيقي وأنا أبتسم بالبساطة البطولية لـ(غاريبالدي) والغرفة المتواضعة التي كان يسكنها بعد انتصاراته، سواء في (نابولي) أم في (كازرتي). وأردفت قائلة:

– لقد كانت هذه العظمة الأخلاقية تثير حماستك حينها؛ وهي مازالت بالنسبة إلي أفضل

من العظمة المستعارة التي يلجأ إليها كل حكام العالم. فهذا البطل صنع لكم وطناً؛ وأنا أتعجب اليوم، كيف أنك غادرت (إيطاليا) التي تحررت بفضله إلى أرض مصر.

فأجابني بسذاجة مشوبة بالسخرية:

- إن (إيطاليا) فقيرة؛ ولو بقيت فيها ما كنت سأغتني بسرعة، كما هو الشأن هنا.

ولكنني بادرته بالقول:

- إن أضخم ماسة لن تكتسي قيمة لدي؛ مقارنة بأبسط نجمة لـ(غاريبالدي).

وقاطعني (الصقلي) بشكل مسرحي قائلاً:

- لقد ظلت هي نجمة قلبي، وسأبرهن لك على ذلك غداً، عندما سأتناول الغذاء برفقتك بالفندق الملكي؛ حيث سأرفع نخب هذا الرجل العظيم أمام كل مواطنيك (الفرنسيين) الذين يشتمونه منذ موقعة (منتانا) (Mentana).

في تلك اللحظة التفَّ المدعوّون حول السيد (دولسيبس) فانمحت سلطة الخديوي أمام سلطة الفكر؛ إذ كان الرجل العبقري هو شعاع تلك الأمسية.

عند الساعة الواحدة صباحاً؛ بدأت القاعات تفرغ من الضيوف، وسلم الخديوي على كل واحد منا بأدب، ورافقني سعادة (الإيطالي) إلى غرفتي، وقال لي وهو يحييني:

- إلى الغد يا عزيزتي، ويحيا (غاريبالدي)!

وعندما كنت أجتاز الشوارع والساحات التي تفصل قصر النيل عن القاهرة، شاهدت مجموعة من الفلاحين البؤساء نائمين تحت الأشجار، وكان البعض منهم واقفين وهم يحركون المشاعل؛ كي تضاء الطريق المؤدية إلى ميدان الأزبكية. وأضفى القمر وآلاف النجوم هدوءاً كونياً على القاهرة الصامتة والنائمة تحت الأضواء الخافتة.

الفصل السادس

المساجد الرئيسية بالقاهرة، تناول طعام الغداء بالفندق الملكي مع (الصّقلّي)، نخب (غاريبالدي)، إعلان السيد سليمان موعد إبحارنا في الغد باتجاه مصر العليا، جولة في شبْرا، مقابر الخلفاء.

أحسست صباح الثلاثاء 19 (أكتوبر)- بعد الأمسية الاحتفالية على الطريقة الفرنسية عند الخديوي- بتعب ذهني شديد وبالرغبة العارمة في التجول وحدي بالقاهرة. وكنت متحرِّقةً للابتعاد عن أجواء الأشخاص المبتذلين الذين تكتسي لديهم الأشياء السخيفة والوضيعة أهمية أكبر من الأشياء العظيمة حقاً؛ فقد كنت في حاجة إلى عواطف أرقى مستمدة من الفن والطبيعة. وعند السابعة صباحاً أخذت العربة؛ وكان ترجماني موجوداً بجانب الحوذي وقد أمره بالتوجه بنا صوب أشهر المساجد. وهناك ثلاثمئة مسجد [ومثلها تقريباً من الكنائس المسيحية]، لكن أجمل هذه المساجد وأغلبها- باستثناء مسجد محمد علي- أصبحت متداعية وفي حالة من الإهمال الشاهد على لامبالاة المسلمين وتهاون العلماء. وأقدم مسجد بالقاهرة وكل البلدان الإسلامية هو مسجد عمرو، الذي بناه عمرو بن العاص، أحد قواد الخليفة عمر بن الخطاب؛ وذلك سنة 642م. ويوجد خارج الأسوار بالقاهرة القديمة المسماة بالفسطاط، وقبل زيارتي لهذه المعلمة قمت بإلقاء نظرة على أبرز المساجد الموجودة داخل القاهرة؛ هكذا زرت مسجد (طولون) الذي يعدّ أقدم بقرن من الزمان على باقي المساجد الأخرى الموجودة بداخل المدينة.

وعند اجتيازنا للحي التجاري؛ تراءت لنا عن يميننا وفوق أسطح المنازل الرؤوس المسننة لأسوار مسجد ابن (طولون)، ويتم ولوجه عبر مدخل ممتلئ بالأزبال، ويحيط به المتسولون ذوو النظرات المخيفة من كل جانب. ولا يتخلص المرء منهم إلا بتوزيع قطع النقود؛ وهذا أفضل من وضع النعال الوسخة، كما هو الحال عند مدخل مسجد محمد علي.

ويعدّ مسجد ابن (طولون) ملجأ للبؤساء والمعوقين؛ فقد تم التخلي عن هذه المعلمة الجميلة المشيدة سنة 877م للمتسولين العرب؛ كي يعيشوا بداخله رفقة عائلاتهم؛ حيث بنوا أكواخهم تحت الأقواس المنقوشة والمزينة بالفسيفساء التي تركوها كما هي. وتبدو باحة المسجد شبيهة بساحة المعجزات الشرقية. وكان الأطفال يلعبون داخل المسجد تحت المنبر الرخامي؛ أما العجزة فكانوا يتوضؤون بمنبع مائي؛ وكانوا نحيفين جداً وذوي صوت أجش! وملابسهم أسمال بالية، بهتت ألوانها، بحيث امتزجت بأجسادهم؛ وشكلت شيئاً

واحداً، يجمع بين الكائن الآدمي والتمثال. وبأحد الجوانب المبلطة بالرخام؛ كانت النسوة يهيئن الطعام، أما على الجدران وفوق النوافذ فترى آيات قرآنية منقوشة على خشب الأرز. وعند مروري تحتها سقطت خشبة بالقرب مني، فقلت لترجماني علي:

– لماذا لا نحملها معنا؟

فأجابني:

– لأن الأشخاص الموجودين هنا، لن يقبلوا بهذا الاستفزاز؛ فهم يعتقدون أن المسجد في ملكهم، لذلك يحترمون ما تهدم منه، ويحتفظون به.

ولست أدري عدد السنين التي امتلك فيها هؤلاء البؤساء العرب مسجد (طولون)، لكنني متأكدة من أنه كان يكفي أقل من ربع قرن للمتسولين (الفرنسيين)؛ كي يهدموه عن آخره. فالأخشاب التي نقشت عليها الآيات القرآنية؛ كانت ستُسْتخدم لطهْي طعامهم، والمنبع المائي لغسل أسمالهم، والمنبر الثمين لنشر غسيلهم وللتحريض على النهب والسرقة. بالمقابل، فإن العربي الصامت والساكن لا يشتم أحداً، ولا يهدم شيئاً؛ فهو يكتفي بمعاينة الأشياء التي تسقط وتفسد، دون أن يفكر في أخذها وترتيبها. هذا الشعب يبدو وكأنه مشلول داخل دينه الإسلامي الذي لم يعد رافعة، بل أداة تكرِّس خضوعه[1]، حتى لو استعمل هذه الأداة أذكى الأشخاص. وإن المرء ليغادر هذه المعلمة الرائعة وهو منقبض القلب، خصوصاً عندما يطَّلع على ما قاله كاتب عربي بشأن مؤسسها، حيث أكد أن أحمد بن (طولون) بنى الطريق المحيطة بالمسجد؛ بالعنبر المعجون كي تنتعش أنوف المصلين بعطره.

أما مسجد السلطان حسن الذي زرْته بعد ذلك؛ فيعدّ من أكبر مساجد القاهرة وأجملها، لكنه آيل إلى السقوط؛ وهو يرمم حالياً. ويتم ولوجه عبر سلالم مكسرة، وتبدو في دهاليزه مصطبات حجرية يستلقي فوقها أفراد الأسر الفقيرة. وبدل إعطائي نعلين؛ لفت قدماي بخرق وسخة من القماش الأزرق، وعقدت بخيط. ودخلت إلى الباحة المقدسة التي يبلغ طولها مئة وخمسين متراً. وقد شيد مسجد حسن سنة 1356م ويعدّ بصومعته البالغة علو

(1) يوجد البؤساء من البشر حيث يوجد الظلم والطغيان، ولا علاقة لذلك بالدين، وبؤساء (فيكتور هوجو) ليسوا مسلمين، والمسلم خضوعه لله وحده، وليس لبشرٍ مثله. (المحرر).

ثمانين متراً رائعة من روائع الهندسة العربية. فقبته شيدت بشكل بديع، وجدرانه وجنباته زينت بالرخام المتعدد الألوان، يتناغم فيها الأحمر والأخضر والأزرق والذهبي على الحجارة الملساء التي امتلأت بالفسيفساء وبالآيات القرآنية المنقوشة بحروف بارزة. ويعدّ العمل الذي أنجز على الشبابيك والأبواب والنوافذ غايةً في الروعة؛ فهو عمل متقن ودقيق بشكل لا يتصور.

ويرتفع القبر المبجَّل للسلطان حسن وسط باحة فارغة من المصلين. وطلب ترجماني منحه فسحة من الزمن للصلاة في أحد أقدس المساجد قبل مغادرته. وعندما قلت له: «صلِّ إذا كنت مؤمناً حقاً، أجابني وهو يبتسم: «إنها العادات والتقاليد».

وتذكرت الفلاحين الطيبين بـ(كازرتي) (Caserte)، الذين اقترحوا علي عدم الذهاب إلى قُداس الأحد إذا ما أعطيتهم قطعة نقدية (كارلينو) (Carlino) لتناول الشراب في الحانة التي يشاركهم فيها الكهنة الشرب؛ بعد انتهاء القُداس.

وبعد هذين المسجدين العظيمين، زرت جامع الأزهر الذي لن أطيل عنه الحديث. فقد شيد سنة 967م، وخضع لإصلاحات عديدة حتى القرن الثامن عشر؛ لذلك فإن هندسته العربية البديعة والقديمة فقدت بريقها. وهذا الجامع قبلة للعلم كمعهد إسلامي، لا يدرس فيه القرآن فقط، بل أيضاً التاريخ والشعر والنحو والفقه والقانون المدني والجنائي. ويقصده آلاف الطلبة من كل جهات مصر ومن (تركيا) وحتى من فارس، حيث يتلقون العلم، ويقيمون فيه مجاناً. وتشمل مؤسسة العلم الشرقي هاته مآوي للمكفوفين وغرفاً شاسعة يستقبل فيها الحجاج المتوجهون إلى مكة المكرمة. ولم نتمكَّن في ذلك الصباح من حضور درس في اللغة العربية؛ لأن الجامع كان فارغاً عندما دخلناه. وبعد مغادرته، درنا حول القلعة، ومررنا عبر باب القرافة ذات الأبراج الفخمة والقديمة، ثم عرجنا على ضريح الإمام الشافعي، أحد أحفاد[1] الرسول، الذي يرعى ببركته المقبرة الممتدة من جنوب القلعة حتى الصحراء، وبها دفنت جثامين المماليك الذين قتلوا بالقلعة المذكورة؛ حيث تختلط المقابر العديدة بالقبب والصوامع. وأغلب هذه القبور شيدها المماليك الذين حكموا مصر باسم

(1) الإمام الشافعي قرشي النسب يجتمع نسبه مع المصطفى صلى الله عليه وسلم في عبد مناف؛ وهو بذلك ليس من أحفاده، ولذا وجب التنبيه. (المحرر).

سلاطين (قسطنطينية) بعد غزو سليم الأول للأراضي المصرية سنة 1517م.

ووسط بنايات عصرية؛ يوجد مسجد صغير وكذلك المقبرة التي دفن بها محمد علي وابنه إبراهيم باشا الذي يرقد بقبر من الرخام المذهّب والمصبوغ بألوان فاقعة. ولكم كنا نتمنى أن يكون قبر هذا البطل أكثر بساطة. أما البنايات المذكورة؛ فإنها مأهولة بعدد كبير من الأمراء والأميرات من أسرة الخديوي الحالي. وعندما فتح أمامنا باب المقبرة؛ شاهدت أسوار الحريم بنوافذها المشبكة، وكانت بالسطح ثلاث زنجيات يطبخن، ويتابعننا بنظراتهن. ففي الشرق- كما في (اليونان) و(روما) القديمتين- كانت المساكن موجودة بجوار المقابر، وكانت الحياة تجاور الموت دون رهبة أو اشمئزاز.

ودخلت ضريح خديوي مصر، الشبيه بضريح القديس (دوني) (Saint Denis) (الفرنسي)؛ ولم أتمالك نفسي من الابتسام. وعليكم أن تتصوروا أكواب الحلوى الفخمة المعروضة بشارع (لومبار) (Lombards)، وهي أكواب من الورق المذهب والمصبوغ بألوان فاقعة؛ متراصة جنباً إلى جنب؛ فالأحمر والأزرق والذهبي هي الألوان المهيمنة على الرخام؛ دون ذوق ولا أسلوب. وشتان بينها وبين الفسيفساء والنقوش الرائعة بمسجد حسن!

هناك لم يعد الفن العربي العظيم يكتسي أي أهمية. ولا يمكن للمرء أن يخلو بنفسه أمام هذه القبور المزينة وهذه الشبابيك اللامعة. وكان من الممكن أن أرثي لمقابر الأطفال وللتوابيت الضيقة لنساء الحريم المنسيات؛ لولا الألوان الزاهية المصبوغة على القبور. وفي الحقيقة، فإن هذا اللمعان يعدّ شتيمة في حق الموت؛ لأن الذوق المزيف سخرية همجية. واجتزت القرافة وأنا أنظر بإعجاب إلى القبور المبنية بالحجر الأبيض والمنتشرة تحت السماء الزرقاء حتى الطريق، بل وحتى مشارف الصحراء.

عدت إلى مقر إقامتي وأنا مغتبطة بهذه الجولة الصباحية عبر المساجد والمقابر. وأخبرني علي بأنني سأغبط أكثر عند زيارتي لقبور الخلفاء؛ وهي الزيارة التي جددنا موعدها في صباح اليوم التالي [الأربعاء]. وفي الطريق اشتريت نعالاً وتحفاً فنية من بعض (البازارات)، كما حصلت على آلة (مندولين) مصنوعة من خشب النخيل ومرصعة باللآلىء؛ بستة (فرنكات).

وبالفندق الملكي الذي وصلته حوالي منتصف النهار وجدت سعادة (الإيطالي) ينتظرني

بغرفة الطعام. وأبدت مديرة الفندق اهتماماً خاصاً بهذه الشخصية المهمة، فزادت في كمية الطعام المقدم؛ للاحتفاء بأحد المقربين من الخديوي. وعندما سمع البستاني البدين وزوجته (بيشيت) أن هذا الموظف السامي يسأل عني؛ قابلاني بأجمل تحية وابتسامة عند دخولي القاعة. وخاطبني (الصقلي) المتفتح قائلاً:

– صباح الخير يا عزيزتي؛ كما ترين فإنني وفيت بوعدي! ولو علمت بأنك ستستيقظين باكراً، بعد حفلة البارحة؛ لكنت قد جئت بعربتي لأرافقك في تجوالك.

فأجبته قائلة:

– أفضّل في هذه الجولات الفنية الوحدة على مرافقة ألطف المرشدين وأعلمهم؛ لكي يرى المرء الأشياء بدقة، ويقيمها، ويصفها دون تحيز، عليه أن يكون وحيداً حتى تكون انطباعاته صادقة.

وأردف (الصقلي):

– لقد أحسنت فعلاً إذن؛ عندما قررت المجيء حين وقت الغداء. فلنجلس إلى المائدة مادامت السفرة قد هيئت.

وبالتلقائية الناجمة عن اللقب والثروة الممنوحة بمصر؛ جلس برأس الطاولة على المقعد الشرفي، وأجلسني على يمينه، ثم قال لي:

– لقد طلبت من مضيفتنا إحضار (الشمبانيا)؛ وأتمنى أن يكون هذا الشراب ملائماً للنخْب الذي نريد أن نرفعه.

فأجبته قائلة:

– معك حق، خصوصاً أن هذا الشراب هو المفضل لدي على كل خمور الدنيا.

وانتهز البستاني الضخم الفرصة للتقرب من أحد أفراد حاشية الخديوي قائلاً:

– وأنا أفضل خمور (فرنسا) الغنية كلها؛ فإذا كان النَّخب سيرفع على شرف عاهل مصر المجيد، فإنني سأشرب عشر مرات بدل واحدة نخب مضيفنا الرائع، حليف بل صديق

(إمبراطورنا) العظيم (نابوليون) الثالث، وهو الذي سيستقبل في الأيام القليلة المقبلة (إمبراطورتنا) (أوجيني) الجميلة مثل ربات الأساطير.

فقلت له وأنا أضحك بصوت عالٍ:

– حذار يا سيدي، فقد انسقت وراء مشاعرك! لأن النخب الذي سيرفعه سعادته، المقاوم (الإيطالي) السابق؛ يخص بطل بلاده.

وتدخل (الصقلي) المرح، وملأ الكأس بـ(الشمبانيا)، وصاح بصوت رنان:

– إلى (غاريبالدي)! إلى البطل الذي أعاد الروح لـ(إيطاليا). إنني أتوجه بكلامي إلى (الفرنسيين) الأذكياء الذين يسمعونني؛ وسأرفع مثل هذا النخب على مائدة الخديوي نفسه. وأنا أعلن أمام الملأ بأنه أمير (ليبرالي) ومن أكثر الحاكمين تنوُّراً في العالم. وإذن أيها السادة، لنرفع نخب (غاريبالدي) الذي أعدّه أباً روحياً وأيضاً نخب إسماعيل باشا؛ وليُّ نعمتي الذي قرَّر تحرير شعبه وتمدينه عبر المناداة على كل المفكرين المتنورين المحدثين واستدعاء كل الرجال العظماء لهذا التدشين الرائع بغض النظر عن مذاهبهم؛ فهذا الأمير المتنور، الفريد من نوعه يبرهن لكم أيها السادة على صدقه. وهو لا يخشى ملاحظاتكم وأحكامكم؛ لأنه مصلح مقتنع وعازم على التقدم إلى الأمام؛ وهو يجمع حوله الهيئة التي استعمل على تقويم أعماله. وإذن أيها السادة، لنرفع كؤوسنا نخب إسماعيل باشا.

وعندما رأيت أن الكؤوس قد رفعت؛ أضفت:

– ونخب (غاريبالدي) أيضاً.

واستدار البستاني جهة (الصقلي) متملّقاً وراغباً في التقرب منه أكثر، ثم قال وهو يفرغ كأسه في جوفه:

– وفي صحتكم أنتم أيضاً يا سيدي؛ فبكلماتكم الطيبة هدأتم النفوس، بدل إثارة النعرات.

ودخل السيد سليمان (بيه) فجأة، فتوقف البستاني المحرج عن الكلام. وبعد أن قبل يد السيدة (بيشيت)، وحياني بحرارة؛ أخبرنا بأن سفرنا إلى مصر العليا حدد بعد الغد على الساعة التاسعة مساء، وسيركب المدعوون المقيمون بالفندق الملكي السفينة البخارية

(الجيزة)، وهي إحدى السفن العديدة التي ستبحر في النيل. وطلب منا أن نتعرف مقصوراتنا المحجوزة ابتداء من الغد؛ أما أنا؛ فكنت عاقدة العزم على القيام برحلة مزدوجة إلى كل من مقابر الخلفاء والنخل المتحجر.

وكم كنت مغفلة عندما اعتقدت أن وعد السيد سليمان بحجز أفضل مقصورة لي على سفينة (الجيزة) هو من الأمور المحسومة. ولأنني كنت المرأة الوحيدة مع (بيشيت) بهذه السفينة؛ فإنه بدا لي من المستحيل ألا أتوفر على غرفة مريحة. لكنني سقطت مرّة أخرى في وهم ما ينبغي أن يكون، وهو غير كائن في الواقع. ونسيت مرّة أخرى الأنانية والغرور المتحكمين في العالم والمتهكين للمشاعر الطبيعية. ومن هنا يبدو الاندهاش الساذج والبليد للعقول الطيبة والمستقيمة التي تحتكم إلى العدالة في الأمور الحميمية والعظيمة. ولأن العدالة غائبة عن أغلب الأفعال الإنسانية؛ فإن ما تجنيه العقول المستأمنة هو الخداع الدائم. ومن بين هذه العقول، يستسلم الضعفاء، وينتفض الأقوياء، ويحتجون دون إخفاء احتقارهم لما يقع. وسيقول عنهم ذوو الطبائع المستسلمة والقلوب التي عُوِّضَت حماستها بالخنوع: إنهم عراكيون ولا اجتماعيون.

وعندما قلت: إنني متأكدة من أن الإخلاص التلقائي الذي لمسته منذ حلولي بالإسكندرية سيستمر بمصر العليا؛ قوبلت بابتسامة مندهشة. وطلبت من (الصقلي) التدخل بشأني، فبادر بمطالبة سليمان بالسهر على إقامتي بسفينة (الجيزة). وفعلاً، انحنى سليمان أمام (الصقلي)، الأعلى منه مرتبة، ورد ثلاث مرات: سأسهر على راحتها، فهي صديقتي.

لقد قال (صموئيل بيكر) في كتابه حول مصر العليا والذي لن أملَّ من الاستشهاد به: إن (اليونان) لو أصبحت دولة عظمى فستكون مطالبة بتمدين مصر. ولأن فرضية توسُّع (اليونان) تحتاج إلى سنوات لتحققها؛ فإنني أعتقد أن (إيطاليا) التي أصبحت قوة عظمى، هي المؤهلة للتأثير في مسار الأحداث بمصر. وكما قلت، فإن أبناءها موجودون بكثرة بهذا البلد، وهم يعملون في كل فروع الإدارة. ولأنهم أذكياء ونشيطون وأكثر دراية بالأمور السياسية والعملية من (اليونانيين) و(الأرمينيين)[1] الذين لا يفكرون سوى في الاغتناء بالإسكندرية عن طريق التجارة والبنوك، فإن أبناء (إيطاليا) المتحررة سيساهمون أكثر من

(1) لقد ازداد عدد الأرمن بالإسكندرية والقاهرة، منذ أن أصبح نوبر باشا وزيرا أولا.

أي شعب في استقلال مصر وتقدمها وتحررها؛ بمساعدة بلدهم (إيطاليا) طبعاً.

ولأنني اتكلت على (الصقلي)، وبالتالي على السيد سليمان؛ فإنني قررت استغلال اليومين المتبقيين بالقاهرة، لمتابعة جولاتي المنفردة. وكان جميع المدعوين من الفرنسيين وغيرهم والذين تجمعوا على ظهر سفينة (لوموريس)، منذ انطلاقتها من (مرسيليا) إلى الإسكندرية؛ قد تشتتوا بالقاهرة في مختلف الفنادق؛ وكانوا يكادون يلتقون في أثناء ركوبهم العربات التي تقلهم بحسب أهوائهم ورغباتهم الفنية؛ إذ كان كل واحد يفكر في نفسه كإنسان أناني أو مشغول، لا يسمح له الوقت برؤية كل شيء أو التمعن في كل الظواهر، أما أعضاء المعهد والشخصيات المهمة والرسمية؛ فقد اجتمعوا فيما بينهم، وخططوا؛ لكي يشكلوا مجموعة واحدة خلال الرحلة إلى مصر العليا.

وبما أنني كنت غير مطلعة وغير مهتمة بما يحاك بعد الغداء بالفندق الملكي، الذي طال حتى الثالثة بعد الظهر؛ تركت الضيوف على المائدة في أثناء تبادلهم الحديث، وغادرت القاعة دون إشعار (الصقلي)، الذي لن يغفر لي سلوكي هذا؛ وركبت العربة وأنا مشتاقة إلى فضاء أوسع. وتوجهت إلى شبْرا التي تعدّ من أجمل الأمكنة بالعالم، وهي ممتلئة بأشجار (الجميز). وتمتد من محطة القطار إلى الضفة اليمنى للنيل. ويتوفر فيها الباشوات والأغنياء والمحظوظون على (فيلات) جميلة، محاطة ببساتين مظللة؛ كما أن الخديوي وأفراد عائلته يمتلكون بها قصوراً ذات هندسة غربية، نصفها عربي، ونصفها الآخر أوربي. وتقطن دوقة (أووسط) التي جاءت إلى القاهرة لاسترجاع عافيتها منذ عدة شهور في أحد أجمل هذه القصور.

وكما هي العادة في حدائق (فلورانسا) أو في غابة (بولوني) (Bois de Boulogne) بـ(باريس)، فإن أفراد المجتمع الراقي بالقاهرة، الذين يتجولون فيها مدة ساعة، يختارون مكاناً محدداً للقاءاتهم. هكذا تبرز النساء من عرباتهن، آخر (موضة) (باريسية)؛ أما الرجال فيدورون حول العربات؛ راكبين الجياد أو بعض الحمير الغالية الثمن. ويتم تبادل الحديث وتناقل أخبار الساعة؛ أما نساء الحريم الملتفحات بنقابهن فيظهرن مثل الأشباح العابرة.

وعند نصف الممر يدور الجميع نصف دورة. ويصعب على أي حوذي عربي مدرب، تجاوز هذا الجزء من الممر الذي تلتقي فيه الطبقة الراقية.

وقد حاولت دون جدوى أن أتجاوز بعربتي الحد المرسوم بشْبرا، ولولا أوامر صادرة من أعلى؛ لما تمكنت في المساء التالي من التجول في الممر برمته بمناظره الرائعة.

وفي اليوم الموالي [الأربعاء 20 (أكتوبر)]؛ كنت على استعداد منذ السابعة صباحاً لزيارة قبور الخلفاء. وهو الاسم غير الدقيق الذي أطلقه (الأوربيون) على أعظم مقبرة في العالم، حيث دفن ملوك الأسرة الحاكمة (الشركسية) من المماليك، من 1382 إلى 1517م.

وفوق هضبة بشرق القاهرة، وعلى مساحة ممتدة من شمال القلعة حتى الصحراء؛ توجد سبعة إلى ثمانية مساجد رائعة ومهجورة، دُفنت بها جثامين الملوك المذكورين، وأصبحت تعرف بقبور الخلفاء. ومنظر هذه القبور مهيب، وهي متفرقة بين هذه المساجد. ويلاحظ المرء ارتفاع قببها وصوامعها وبروز نقوشها تحت نور الشمس.

إن هذه البنايات الضخمة الموجودة وحدها بالصحراء تؤثر على نحو كبير في الوجدان. فهي جميلة ومقفرة مثل أطلال الساحات العامة الرومانية ؛ وإن كانت أوسع وأضخم منها وأكثر كآبة بسبب بعدها عن المدينة والبشر وأيضاً بسبب النسيان والإهمال اللذين نالا ذاكرة هؤلاء السلاطين المتميزين الذين لم تبرز أسماؤهم كما يجب؛ في هذه المقابر الرائعة. فرياح الصحراء تهب عليها، وتؤدي إلى تآكل جدرانها التي كانت آية في الهندسة العربية، غير أنها ستدفن يوماً ما تحت الرمال المحيطة بها، وكأنها أكفان قُدِّر عليها الدفن.

وعند دخولي لأجمل مسجد من بين هذه المساجد المهجورة؛ قلت لنفسي: إنه يتعين علي كتابة حوالي عشرين صفحة؛ لوصف القبور الموجودة فيه والمحاطة بأعمدة دقيقة وأيضاً وصف جنباته الرخامية البديعة ونوافذه ذات الشبابيك المتنوعة المكونة من حلقات ذات لون أخضر مائل إلى الصفرة تلمع مثل الياقوت الأصفر.

وأردت حمل حلقة من هذه الحلقات معي، لكن ترجماني لم يتمكن من نزعها، وعوضني بحجرة حمراء قديمة، منزوعة من أحد القبور الملكية. ولاحظت- وأنا أغادر الساحة التي تم تدنيسها أن بعض الجنود بسترات بيضاء يحرسون باب أحد المساجد، غير أن عليّاً أخبرني بأن هذا الأخير قد تحول إلى مخزن للبارود! فيا لسخرية القدر من المحاولات اليائسة التي يقوم بها الإنسان للبقاء! الموت يأخذ معه الحياة، والزمن يمحو أجمل الأضرحة، تراب على تراب

وعدمٌ فوق عدم! لكن لا يهم، فهذه الأشياء المعدومة التي تقاوم، وتحتج تجعلنا مرتبطين بها. وأنا لا أستطيع وصف انبهاري بهذه المقبرة الرائعة في هذا الفضاء الفسيح؛ وأفكر في تلك الأيام التي كان فيها صوت المؤذن يرتفع من الصوامع الصامتة الآن؛ ليبارك مئات الآلاف من الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة. ففي باحة مقابر الخلفاء كان هؤلاء الحجاج يجتمعون، ويقيمون صلاتهم، ويطلبون من الله عودة ميمونة. وكم كانت الحركة كبيرة داخل هذه القافلة المكونة من رجال ونساء محجبات وإبل وجمال وحمير وعبيد وعرب راكبين الجياد في مقدمة الموكب. أما اليوم؛ فإن الحج إلى مكة يتم من دون بهرجة ومن دون احتفال تقريباً.

وعادة ما يغادر القاهرة ما بين عشرة آلاف واثني عشر ألفاً من الحجاج، أغلبهم من الناس الطيبين الذين سيبتهلون للرسول طمعاً في حياة أفضل [كذا!!]؛ ومن الحريم السعيدات بالتخلص مؤقتاً من الملل القاتل والوحدة داخل الأسوار التي عمل تعدد الزوجات وهيمنة التقاليد الفاسدة على تكريسها لدى هؤلاء البئيسات. فكم هو عدد المسْكينات اللواتي يؤثثن حريم (الباشوات) الأغنياء واللواتي لم يلتقين سيدهن سوى مرّة واحدة في حياتهن، ومنهن من لم تحظَ ولو بنظرة منه!.

والحريم لدى هؤلاء الرجال المتخمين الذين ماتت حواسهم؛ مجرد ترف أو بستان تنمو فيه أزهار بشرية يقطفونها، أو يتركونها دون اهتمام بإمكانية تعرُّضها للتَّلف. وكل تحرك هو فأل خير بالنسبة إلى هاته النسوة الخاضعات أو البائسات؛ بحسب طبيعتهن. فالحج إلى مكة المكرمة هو أعظم ترفيه في حياتهن البئيسة.

ومن هضبة مقابر الخلفاء، يبدو جهة الشرق، الجبل الأحمر الذي يستغل حالياً لإقامة بنايات جديدة بالقاهرة. ويجب المرور بسفحه للتوجه إلى غابة النخيل المتحجر؛ الموجودة بقلب الصحراء. وأمرت علياً باستخدام العربة، كما اتفقنا في الليلة الماضية، لكن الحوذي رفض تماماً؛ زاعماً أنه لا يمكن التوجه إلى الغابة المذكورة إلا بعربة مجرورة بأربعة جياد قوية. ودعم علي موقفه، فبدا إلحاحي بلا طائل. ولكي يهدئ من روْعي؛ أقسم بالله العظيم؛ إنه سيحضر لي العربة الملائمة في الساعة الثانية بعد الظهر. ولكي أستغل ما تبقى من الصباح؛ توجهت إلى القاهرة القديمة. هكذا، وبعد اجتياز شوارع القاهرة الجديدة؛ مررنا فوق قنطرة

جميلة مبنية بالحجارة تطل على الخليج. وتختلف الروايات حول اسم باني هذا الخليج، هل هو (تراخان) (Trajan) أم (أدريون) (Adrion)؟ ويلتقي الخليج القناة الكبرى التي يتدفق منها النيل في البحر الأحمر. وبعيداً عن القنطرة، مررنا تحت أقواس الساقية الضخمة التي تمد القلعة بمياه النيل، وعددها 289. وبعد ذلك، دخلنا إلى القاهرة القديمة التي كانت تسمى (بابيلونيا) في الماضي والتي سيطلق عليها العرب فيما بعد اسم الفسطاط؛ وقد كانت عاصمة مصر في عهد عمرو بن العاص (640م)؛ لكن مدينة الفسْطاط ستتراجع أمام مدينة أخرى شيدها ابن (طولون) سنة 876م بجانبها، وهي التي ستصبح- قرناً فيما بعد- العاصمة النهائية لمصر تحت اسم مصر القاهرة.

وتمتلك مصر القديمة كما الجديدة قلعتها المسماة بقصر النور، وكانت فيما مضى مقر إقامة الأمراء المسلمين الأوائل الذين حكموا مصر. وتعدّ هذه القلعة المعلمة الأثرية الوحيدة المتبقية من بابيلونيا القديمة؛ وتتوفر على الحارات والأسواق؛ وهي مأهولة أساساَ بـ(الأقباط) و(اليونان) الذين يمارسون تجارتهم بكل أمان.

أخذتُ شارع (البازار) بالقاهرة القديمة والذي يمتد بشكل مواز للضفة اليمنى للنيل. وترى عدداً كبيراً من القوارب التجارية راسية بشاطئه. وبالضفة المقابلة تبدو أهرام الجيزة. وأثارتني نظافة القاهرة القديمة التي ترجع على ما يبدو إلى قرْبها من النهر. فالمنازل لامعة، وأسمال السكان البالية ليست متسخة. ولاحظت بمنزل أحد تجار الحبوب مدخلاً من الرخام الأبيض، نقشت عليه عناقيد العنب وكأنها تحفة من الفن (الإغريقي). ويعدّ مسجد عمرو من أبرز عجائب القاهرة القديمة فهو «جدُّ» مساجد العالم الإسلامي كلها. وقد أسس- كما قلنا- سنة 642م، من قِبَل قائد الخليفة عمر بن الخطاب. وهو نموذج للفن البدائي العربي، ورغم كونه آيلاً إلى السقوط؛ فإنه يحتفظ بعظمته وبساطته في آن. فقد جلبت أعمدته المصنوعة من (الغرانيت) والصخور البركانية من مدينة (ممفيس) (Memphis) القديمة. وبحسب المؤرخين العرب فإن آيات القرآن جميعها نقشت بحروف من ذهب على اللوحات الرخامية الموضوعة بجدران المسجد، لكن كل أثر للنقوش والزخرفة اختفى الآن، ولم يحترم الزمن سوى الأعمدة المذكورة التي تمتد بالساحة على ثلاثة صفوف. وتوجد من بينها ثلاثة أعمدة أطول وأضخم. وبالباحة يقطن فلاحون بؤساء، حولوها إلى مصنع للقلل الفخارية

التي يوجد الكثير منها عند مدخل المسجد. وقد اشتريت قلتين بقرش، بعد أن وزعت (البقشيش) على الصناع البؤساء غير المبالين بسمعة مسجد عمرو. ورجعت إلى الفندق للاستراحة والاستعداد لجولة ثانية مدتها ساعتان بغابة النخيل المتحجرة.

الفصل السابع

جولة بغابة النخيل المتحجّر، عظمة الصحراء في ليلة مقمرة، رياح الخماسين، حوادث، رواية ترجماني، تفاصيل عن موت الخديوي الرهيب عباس، جمال مقابر الخلفاء تحت ضوء القمر، الرجوع إلى الفندق، زيارة السيد ((شارل بلان))، عذاب اليوم التالي، جولة بالجانب المقفر من شبرا.

عند الساعة الثانية بعد الزوال دخل عليٌّ إلى غرفتي معلناً بأنه تلقى وعْداً بالحصول على عربة تجرها أربعة جياد. ومرت ساعة دون أن تصل العربة، فأرسلت ترجماني الخدوم لاستطلاع الخبر. وطال انتظاري حتى الرابعة والنصف، حينها وصلت العربة. لكن برز عائق جديد، فقد أخبرنا الحوذي، وهو نوبي شاب، جميل الملامح، بشعر مجعد غزير تكثر خصلاته عند مقدمة الرأس؛ بأن التجول ليلاً بالصحراء أمر خطِرٌ نظراً لوجود البدو قطاع الطرق والقتلة. اعترضت عليه قائلة: إن الظلمة لن تكون تامة؛ لأن البدر في ليلة تمامه. وحاول علي التفاوض معه، فتدخل ترجمان آخر مسلحٌ مقترحاً مرافقتنا. آنذاك اطمأن الحوذي، وقرر الانطلاق مصْدراً صوتاً قوياً؛ وانهال بسوط على ظهر الجياد الأربعة المحاطة بسائسين قويين. ووجدتُ نفسي منخرطة في مغامرة؛ تحت رعاية خمسة عرب لا أعرفهم. وأنا أحب هذه المصادفات التي تحرك الوجدان، وتشعرنا بالحياة. ورأيت من جديد قبور الخلفاء المنورة على نحو رائع؛ تحت الأشعة الذهبية والأرجوانية لشمس المغيب.

وفي البداية، قطعت العربة طريقاً عبَّدها العمال الذين يشتغلون بمقالع الجبل الأحمر؛ لكن بعد ذلك، غمرت الرمال الطريق، وغاصت الجياد فيها، وبدأت تتحرك بصعوبة؛ واختفت الشمس، فظهر القمر الذي انتشرت أنواره اللطيفة والهادئة في ذلك الفضاء الفسيح. ومنحتني الوحدة وصمت الصحراء العظيمة المنفتحة أمامي؛ جرعة مخدِّرة مثل الأفيون، جعلتني هادئة في البداية، ثم أوحت لي برؤى غريبة؛ ولم أعد أشعر بالسُّعال يمزق صدري ولا بالجياد والرجال الذين يتحركون أمامي.

وفجأة انتزعتني زمجرة ريح ساخنة من تأملاتي، وأحاطت بي زوبعة رملية، فتوقفت العربة وامتلأت الطريق بالرمال؛ ولم تقْوَ الجياد التي عميت أبصارها على التحرك. فنزل (العربتجي) من مقعده، وكذلك فعل المترجمان، فقد كان على الرجال القيام بدفع الحيوانات. وعندما رآني علي الشهم أسعل بشدة؛ اقترب مني، وناولني القلة الممتلئة بالماء المحلى قائلاً:

– اشربي يا سيدتي، وثقي بأني– رغم كل هذا التعب– سأقودك إلى غابة النخيل كما وعدتك بذلك.

ثم استدار جهة العربة؛ ليشارك في الدفع، وليخلص الجياد، مشجعاً الرجال الآخرين بكلمات مرحة. وعند معاينتي للمجهود الجبار الذي يبذله هؤلاء المساكين؛ شعرت بالندم. فربما عرضت حياتهم للخطر تلبية لنزوة شاعرية ومن أجل الإحساس بشيء جديد. وعندما منحت (العربتجي) والسائسين كل النقود التي كانت بحوزتي ازدادت حماستهم، وصرخوا من الفرح، وأجبروا الجياد على التحرك، في حين كنت أفكر في قرارة نفسي، وأقول: «إنني أعرض بشراً مثلي للخطر». وكنت أشعر بالخزي؛ لأنني أعطيتهم قليلاً من المال، وبالحزن الناجم عن رغبتي الأنانية في الاستمتاع؛ ولعنت داخلياً كل أشكال الطغيان أينما وجدت. وازدادت قوة الريح، فاقشعر بدني، وارتفعت حرارتي، فسقطت دون حراك، وناديت علياً. وعندما قدم ليبشِّرني بأن العربة قد تخلصت من الرمال وبأننا سنتابع السير؛ خاطبته قائلة:

– سنموت هنا يا علي!

فرد علي صائحاً:

– كلا! بالله عليك، انظري إلى تلك الهضبة السوداء، إنها غابة النخيل؛ وسنصلها في نصف ساعة. هيا، تشجعي. ومدَّ لي القلة مرّة أخرى، فاستعدت بعضاً من حيويتي، وقلت له:

– لنترك الرجال والجياد هنا؛ كي يأخذوا قسطاً من الراحة، ولنذهب معاً على الأقدام إلى غابة النخيل.

ونزلت من العربة؛ قاصدة الهضبة السوداء ومتكئة على ذراع ترجماني الأعور. وبعد مسار متعب؛ بلغنا جذوع الأشجار المتحجرة. فمنذ عشرين سنة خلت؛ كانت أشجار النخيل شامخة وكان سعفها يرتفع نحو السماء؛ وهو منظر طبيعي هائل. لكن العديد من الرحالة الإنكليز الذين مروا من هنا قضوا على الغابة؛ لأنهم قطعوا أشجارها بكثافة، حاملين معهم سعفها. ولقيت بعضاً منها، وحمل علي هذا الكنز إلى العربة، وكان شغلنا الأساسي هو العودة بأمان. استغرقت عملية الرجوع ثلاث ساعات؛ وإن كان الحوذي قد أقسم أمام علي إنها لن تتعدى ساعتين. وحرر جوادين من العربة، وكلف السائسين بامتطائهما والتحرك أمامنا. أما علي والترجمان الآخر؛ فإنهما جلسا أمامي داخل العربة.

وهدأت الريح، وظهرت النجوم المحيطة بالقمر. فشكرت علياً ورفيقه على مساعدتهما

لي، وأبديت إعجابي بحيوية الحوذي والسائسين المراهقين، وتساءلت: كيف يمكن لعرق بهذه القوة أن يخضع للاضطهاد منذ قرون؟ فأجابني علي:

– العرب يصبرون على العذاب، لكنهم لن يتحرروا أبداً ما لم يبعث لهم الرب بقائد عظيم.

واعتذرت لهما عن التعب المضاف إلى رجال لا يرتاحون طوال اليوم؛ فقال لي الترجمان الثاني:

– ليس الخطأ خطأك يا سيدتي، فلو كنا قد انطلقنا عند الساعة الثانية بعد الزوال، كما طلبت منا ذلك؛ لكانت الرحلة أسهل؛ لأن ريح الخماسين كانت ستهب بعد رجوعنا إلى القاهرة. ولأن رئيس الحوذيين كان بالسجن؛ فإنه كان يستحيل علينا؛ أنا وعلي الحصول على عربة بأربعة جياد في الساعة المذكورة.

وسألته:

– لماذا أدخل رئيس الحوذيين السجن؟

– لأنه لم يقدم معلومات عن مصير سائس يرافق إحدى عرباته.

– هل ارتكب هذا السائس جريمة ما؟

– لست أدري؛ وبحسب رأيي المتواضع فإن العقيد هو المذنب.

– عن أي عقيد تتحدث؟

– من الصعب رواية هذه القصة، ومع ذلك فهي معروفة لدى الجميع، وهي موضوع الحديث في المقاهي العربية.

– أرجوك، احْكِ لي هذه القصة.

فانحنى الترجمان أمامي، وقال لي:

– سمعاً وطاعة؛ إنني أعرف أن الأجانب– وخصوصاً (الفرنسيين)– يريدون معرفة كل شيء. وعلى ما يحكى، فإن هذا العقيد كان ثملاً، فركب عربة مفتوحة، وتوجه في جولة إلى شبْرا. وفجأة نادى على أصغر السائسين، وطلب منه الجلوس بجواره. ولن أجرؤ على سرد ما فعله العقيد بعد ذلك. فقد قيل لي يا سيدتي: إن مثل هذه الأمور تثير الاشمئزاز بـ(فرنسا)، لكنها تعدّ هنا عادية لدى (الأتراك). والمصيبة هي أن إحدى زوجات الخديوي التي كانت تتجول بشبرا في الوقت نفسه؛ شاهدت العمل الشنيع الذي كان يقترفه العقيد، فاشتكته إلى سموه على الفور، عندها هرب العقيد، وتبعه السائس أيضاً. وعُدّ رئيس الحوذيين مسؤولاً عن هرب المراهق، وفي هذه اللحظة التي أكلمك فيها؛ فإنه يضرب بـ(الكرباج) كي يقول الحقيقة.

وسمعت حكاية الترجمان وأنا مشدوهة، وقلت له:

– لكن العقيد هو الذي يستحق الضرب.

فرد علي قائلاً:

– إن العصا موجودة من أجل الفلاحين الفقراء، وهي لا تمس أبداً (البايات) و(الباشوات).

وذكّرتني هذه الحكاية بنوع من المديح قرأته في الليلة الماضية بجريدة «التقدم المصري» بالإسكندرية، والتي أقتطف منها المقطع التالي:

«عندما عدت البارحة إلى القاهرة؛ أدركت لماذا عاقب الله سُدوم وعمورية. ولن أندهش إذا ما أخبرني أحدهم بأن (ماني) (Mani) و(طيسل) (Thecel) وفارس (Pharés) قد ظهرت أسماؤهم بحروف من نار على جدران بعض القصور».

وتابع الترجمان روايته قائلاً:

– لحسن الحظ أن الأمير الذي يحكمنا يشمئز من هذا السلوك، فهو لا يشبه الخديويين

الآخرين. فقد كان آخرهم؛ وهو سعيد[1] رجلاً طيباً وعطوفاً رغم سلوكاته المشينة هاته، أما عباس الذي حكم قبله، فكان وحشاً فظيعاً؛ وليس موته الرهيب سوى عقاب إلهي على ما اقترفه من مناكر. وربما بلغتكم أخباره في (فرنسا).

فقلت:

– نعم، عموماً؛ ذلك أن الجرائد قدمت بعض التلميحات، كما تفعل مع كل الفضائح، لكنها لم تقدم أي تفاصيل.

– عندنا هنا تصمت الجرائد، فهي لا تنشر سوى الرسائل (التلغرافية) والبيانات التجارية. أما بخصوص ما يجري داخل الحريم وعن شطط من يحكموننا؛ فلن يجد المرء لذلك أثراً في جرائدنا؛ ومع ذلك، نحن نعرف أعمالهم الخفية كلها. فالخدم الكثيرون المحيطون بهم يفشون أسرارهم بالمدينة. ونادراً ما يحتفظ الخصيان الذين يشهدون على كل جرائم السادة الكبار؛ بهذه الأسرار. فما إن اغتيل عباس؛ حتى عرفت القاهرة كلها بظروف اغتياله. لقد طعن بخنجر اثنين من أعز غلمانه اللواطيين. وكان يقيم بقصر بنْها قرب رصيف الميناء؛ رفقة حريمه المكون من الغلمان الذين يتبعونه أينما حلّ وارتحل.

ثم إن اثنين من غلمانه المحظيين– وهما شركسيان سبق أن عاقبهما بـ(الكرباج) مدة ثمانية أيام حتى كادا أن يلقيا حتفهما– قرّرا إن ينتقما منه في أول ليلة يستدعيهما فيها. وكان لهما ما أرادا. فما إن استغرق في النوم؛ حتى بادرا بالهجوم عليه، وطعناه بخنجر أسفل البطن أربع مرات. فأصدر عباس البدين حشرجة، ولم يتمكن من الصراخ؛ مختنقاً في نزعه الأخير. ولم يسمع الحارس النائم بالباب أي شيء، وبذلك تمكن القاتلان اللذان يعرفان القصر جيداً من الفرار دون أن يثيرا الشكوك.

وعند الثامنة صباحاً، وهي ساعة استيقاظ عباس؛ اندهش الجميع من الصمت المخيم

---

(1) سعيد باشا، هو الذي كان يلقب (بفرنسا) الملك الرذيلة (Roi-Vice) بدل نائب الملك (Vice-roi)؛ وكان فاسداً مثل عباس، لكنه لم يكن دموياً. وتميز بكرمه وتبذيره، وظلت ذكراه طيبة لدى المصريين.
ويمكننا أن نشبهه بـ(فالوا) (Valois) عندنا، والذي كان مبذراً ومحبوباً. ونلاحظ بالمناسبة أن الظروف المخففة لا تطبق إلا على الرؤوس المتوجة، وذلك في احتقار صريح للتاريخ؛ وكأن الأعمال الفظيعة لا تعدّ كذلك عندما تلطخ هؤلاء الأمراء المتوجين.

على الغرفة، فدخلها العبد المكلف بالحراسة ليجده أمامه جثة هامدة وباردة. وكان القاتلان قد فرا منذ عدة ساعات. وعلى الرغم من معرفة اسميهما، فإنه لم يتم أبداً معرفة البلد الذي لجأا إليه[1].

---

(1) لقد أثارتني رواية الترجمان، فعملت على إتمامها عند رجوعي من مصر العليا وإقامتي بالقاهرة مدة ثلاثة أشهر؛ وذلك بالاستماع إلى روايات الشخصيات المهمة التي عاشت في فترة حكم عباس. وكانت التفاصيل المقدمة لي حول تهتكه وقسوته تذكرني بحكايات (سويتون) (Suétone) و(طاسيت) (Tacite) المتعلقة بحياة أكثر القياصرة دناءة. فقد كان كاليغولا يعدّ جواده عضواً بمجلس الشيوخ الروماني؛ أما عباس فإنه رقى أصغر غلمانه وأكثرهم جهلاً إلى مرتبة (جنرال) وقاضي القضاة؛ وهذا لم يكن يمنعه من ضرب غلمانه بـ(الكرباج) لأسباب واهية. وكان حريمه الدنيء الذي تتزايد أعداد الغلمان فيه؛ يتبعه إلى كل القصور التي شيدها بضواحي القاهرة وبالصحراء.

وكان يفضل القصر الموجود بهذه الأخيرة؛ لأنها تعجبه مثلما تعجب النمور. لكن الغلمان البئيسين الذين يلوثهم لم يظفروا بالثروة، كما سيكون الأمر بالنسبة إلى خلفه سعيد؛ بل بالموت العنيف والسري. ونحن نشك في كون كائنات منحطة بهذا القدر، تتوفر على الشجاعة الكافية للتخلص من هذا السيد الممقوت؛ لو لم تكن مدفوعة إلى ذلك. ففي البلدان الإسلامية، تنمي الرذيلة لدى من يمارسها الدناءة والكسل؛ ويساهم وَهْم الاستفادة من ثروات السيد في إزالة الشعور بالندم لدى هذه النفوس الدنيئة. وقد أكد لي الرواة المذكورون أن الغلامين اللذين اغتالا عباس ما كان باستطاعتهما تنفيذ الجريمة التي خلصتهما من الاستعباد الشنيع، وخلصت مصر من تلك الهيمنة الممقوتة من دون مساعدة (نسلي هانم) التي سلحتهما، وأجزلت لهما العطاء. وهي ابنة محمد علي وعمة عباس؛ وكانت أميرة متهتكة ودموية مثل ابن أخيها الذي حاول قتلها في أثناء حكم محمد علي. وعندما اعتلى عرش مصر نفاها، واستولى على كل أملاكها. فقررت وهي بمقر إقامتها بـ(قسطنطينية) التخطيط لقتل عباس. هكذا، اختارت عبدين (شركسيين) جميلين، وأطلعتهما على خطتها، ووعدتهما خيراً إن نجحا في تنفيذها، كما توعدتهما بموتة عنيفة؛ إن هما فشلا. وأرسلتهما إلى بازار القاهرة وهي متأكدة من أنهما سيباعان إلى حريم عباس. وذلك ما حصل فعلاً؛ فقد فهمت العمة المتهتكة منطق الرذيلة مثل ابن أخيها.

وهرب القاتلان بعد اقترافهما للجريمة؛ لكنهما لم يسلما من العقاب كما اعتقد الترجمان. فعباس الذي كان يكره النساء، ويقتلهن بعد مضاجعتهن، كان له ابن بالصدفة يسمى علامي باشا، سيصبح صهرا للسلطان فيما بعد. وحدث أن التقى هذا الابن أحد قتلة أبيه بـ(قسطنطينية)، وأرداه قتيلاً بطلقة من مسدسه. أما القاتل الآخر فيجهل مصيره.

وقد ابتهج أفراد عباس بمقتله، إذ كان أقاربه وندماؤه الحميميون يخشون على حياتهم ما بقي في الحكم. وبعد موته اكتشفوا أنه لغم إحدى قاعات قصر القلعة التي كان من المقرر أن يجمع فيها أفراد عائلته وحاشيته في مأدبة فاخرة، حيث خطط للانسلال وإشعال النار في البارود وتفجير القاعة بمن فيها.

وقد أكد المقربون منه هذه الواقعة. وربما كانت هذه الشهادات حول (نيرون) المصري؛ هي التي جعلت العديد من المحظيين لديه يعاملون بنوع من التسامح إسماعيل (باشا)، خليفة عباس؛ والذي لم يمس ثروتهم، بل إن الكثيرين ما زالوا يمارسون وظائفهم بالبلاط.

وعندما سألت أحد أقرباء الخديوي الحالي عما إذا كانت المعلومات المقدمة لي من أحد الموظفين القدامى حول موت عباس صحيحة؛ أجابني قائلاً: «إنها صحيحة تماماً، بل إن هؤلاء الموظفين كانوا يعرفون كل شيء؛ لأنهم كانوا بهذا القدر أو ذاك غلمان عباس».

وعندما كان الترجمان على وشك إنهاء روايته؛ سمعت صوتاً مدوياً، فقد سقط أحد السائسين من فوق ظهر الجواد. وكانت الدابة تجره من الركاب؛ وفجأة سقطت فوقه، فأطلق المراهق صرخات فظيعة اعتقدت معها أن إصابته بليغة. وطلبت من الترجمانين الإسراع بتخليصه من الجواد وحمله إلى العربة، لكنه وقف فجأة وهو يضحك بصوت عال. فقد شاهد رفيقه الآخر وهو يتدحرج من فوق ظهر حصانه؛ وكان ذلك هو سبب قهقهته؛ إذ عدّ سقطة رفيقه الأقوى منه بمنزلة مرهم لجروحه.

هكذا يمكننا أن نقيس درجة بؤس هؤلاء الفلاحين بمدى القسوة التي يواجهون بها آلامهم وآلام الآخرين. وبعد أن ركب السائسان جواديهما بحيوية؛ بلغنا قبور الخلفاء دون مشاكل، حيث بدت لي كمآثر من المرمر، ذات جمال أخاذ تحت نور القمر. وكانت النجوم تلمع مثل ماسات كبيرة فوق بياض القبب والصوامع. ووصلت إلى الفندق الملكي عند الساعة التاسعة والنصف ليلاً، فوجدت السيد ((شارل بلان)) في انتظاري. واعتذر عن عدم استدعائي للعرض الجماعي لما قبل الليلة الماضية عند الخديوي؛ واستطرد قائلاً:

- لقد كان ذلك العرض مرتجلاً.

ونبهني على أننا سنركب غداً الخميس (فاتح (أكتوبر)) عند منتصف الليل السفنَ التي ستقودنا إلى مصر العليا. كما أخبرني بأن كل واحد حجز مقصورته وأنه تم تصنيف المدعوين على نحو فئوي، وتم إقصاء بعضهم الآخر. ولأنني كنت متعبةً جداً، فقد فضلت النوم، وأنا واثقة من رعاية سليمان اللطيف و(الصقلي) الظريف. وفي الصباح انزويت بغرفتي لتهييء حقائبي وكتابة رسالة ثانية إلى جريدة «القرن»، يوجد مضمونها في الفصول السابقة.

وعند الرابعة بعد الزوال شعرت بدوار شديد وبحمى قوية وباختناق داخل غرفتي الحارقة. فركبت العربة مجدداً صوب شبْرا. وطلبت من الحوذي هذه المرة اجتيازها بالكامل وعبور الممر الطويل الممتلئ بالأشجار المحيطة بـ(الفيلات).

هكذا تجولت بضفاف النيل، وفرحت لوجودي وحيدة في أحد أجمل الأماكن وأهدئها بالقاهرة. واختتمت جولتي بمشاهدة شبه جزيرة صغيرة، يحيط بها النهر، وتكسوها أشجار النخيل و(الميموزا) بأزهارها الصفراء. وفي تلك الفترة، كانت المياه الهادئة، الذهبية

والأرجوانية بفعل أشعة شمس المغيب؛ تعكس صورة تلك الأشجار مثل مرآة ساطعة، حيث تجلت أغصانها وتسنُّناتها بكل وضوح. ومن بعيد؛ برزت أهرام الجيزة التي تتجاوز قممها أشجار النخيل، وترتفع عالياً نحو السماء.

ونسيتُ نفسي أمام هذه اللوحة العظيمة الهادئة. كان الفلاحون عائدين إلى حقولهم وقراهم؛ ممتطين الجمال. وكنت المتجولة الوحيدة المتأخرة في هذا الممر الطويل بشبرا الذي بدأ الليل يلفه بظلامه. فقد استهواني هذا المكان الجميل، وتخيلت أنني سألتقي في أثناء رجوعي إلى القاهرة أميرتين (تركيتين) شابتين بين الأشجار، أخفى الحريم جمالهما ومشاعرهما وذكاءهما.

الفصل الثامن

انطلاق الرحلة؛ رفاقي في السفر، ركوب السفينة بميناء بولاق، الأوساخ المنتشرة بالسفينة البخارية (الجيزة)؛ السادة (بولانجي) من «جريدة باريس» و(كميل (بيلتان)) من جريدة «التذكير» و(أوجين طاربي) من جريدة «الغالي»، الدكتور والقبطان، آلام الأيام الأولى، شبح منسي، عذاب على ظهر سفينة (الجيزة).

ساهمت الجولة بشبْرا في التخفيف من حدَّة الحمى التي ألَّمت بي؛ لكن ما إن وصلت إلى الفندق الملكي؛ حتى عاودني الألم، وأصبت بنوبة شديدة من السعال، اضطررت معها إلى شرب قلة من الماء المثلج؛ قبل أن أستخبر عن موعد السفر إلى مصر العليا.

وعندما ولجت غرفة الطعام؛ كان المدعوون قد أنهوا عشاءهم. ولاحظت من بينهم ضابطاً مدرباً برتبة قبطان وطبيباً عسكرياً. لم يسبق لي الحديث عن هذين الشخصين العاديين، إن لم نقل: الضعيفين، اللذين يتوفران على معرفة سطحية ومحدودة؛ ففكرهما مصطنع مثل كتابتهما الشبيهة بكتابة خطاط والتي سجلا عبرها انطباعاتهما الموجهة إلى أفراد عائلتهما، وهما ينويان نشرها؛ لأنها قد تهم الجمهور الواسع. وكان الدكتور طويل القامة، جميل المحيا ومبتذلاً، يعدّ نفسه باحثاً هاوياً؛ كما يدعي عند رجوعه من زيارته للمعابد القديمة والمدافن التحتية؛ بأنه سجل عدة أخطاء ارتكبها (شمبوليون) (Champollion) أو علماء آخرون وأن باستطاعته تصحيحها!

أما صديقه القبطان، وهو رجل قصير القامة نحيف وغضوب؛ فيبدي معارضته للنظام (الإمبراطوري) الذي لم يعترف- على حدِّ تعبيره- بكفاءاته. ويتلخّص طموحه في أن تحظى يوميات السفر التي يحررها بعشق- ساعة بعد ساعة- برضا زوجته. ولقد وجدا الدكتور والقبطان؛ لكي يتفاهما؛ ولكي يكمل بعضهما بعضاً، وهما أنيقان ولائقان من حيث المظهر، وعند مجادلتي السابقة للبستاني البدين على المائدة كانا يتخذان موقف الضباط المدربين الذين يحسمون ذاتياً في القضايا المطروحة.

وعندما يستعمل زوج (بيشيت) عبارات غير لائقة؛ فإنهما يطلبان منه تحسين ألفاظه؛ ويخاطبه الدكتور قائلاً:

- المهم أولاً وقبل كل شيء هو أن يكون المرء مهذباً!

ويضيف القبطان الصارم من جهته:

- وقبل هذا وذاك، عليه أن يكون غير متحيز.

وعندما دخلت ذلك المساء إلى غرفة الطعام، مجْهدةً وشاحبةَ الوجْه؛ جس الدكتور نبضي. وكان قد لاحظ إصابتي بالحمى في الصباح، وأخبرني باستحالة سفري إلى مصر العليا. وسألته:

- هل سنسافر حتماً هذا المساء؟

فأجابني القبطان:

- لم تبق إلا ساعة؛ فالعربات التي ستقودنا إلى ميناء بولاق موجودة بباب الفندق.

وأردف الدكتور:

- أتمنى ألا تجازفي بركوب السفينة.

فكان جوابي:

- سأجازف بالتأكيد؛ لأن أمتعتي جاهزة؛ وقد حملت معي جرعة دواء من (باريس)، أتمنى أن تيسر لي نوماً هادئاً ومريحاً. فما يريده العقل بإصرار ينفذه الجسد. وقال الدكتور:

- هذه قاعدة فنان يكذِّبها العلم.

فأضاف القبطان ملاحظاً:

- إنك لن تقنع السيدة، فهي لها مزاج شاعرة، مثل زوجتي. وسألتهما:

- هل تعرفان اسم السفينة التي سنركبها؟

فأجاب الدكتور بلهجة مفخَّمة:

- اسمها (الجيزة)، وهو اسم الأهرام وبشارة خير على أنها ستكون متينة.

وسألتهما مجدَّدا:

- هل حجزتُما غرفتكما؟

- نعم، حجزت غرفة لي ولعزيزي القبطان، فقد وعدت زوجته بالسهر عليه.

- أعتقد أنه قد حُجزت لي أيضاً غرفة جيدة؛ وسيأتي بعض الأصدقاء لمرافقتي.

وصدرت عن (بيشيت) ابتسامة ساخرة. فخاطبت زوجها متسائلة:

– هل ستستقل زوجتك أيضاً سفينة (الجيزة)؟

لكنه أجابني بلهجة منتصرة:

– لقد حجزنا أنا وزوجتي مقصورتنا بسفينة أخرى. وقال لي الدكتور وهو يشير إلى أحد جلسائنا على المائدة، وهو محرر سابق بجريدة «الدستوري» وملحق حالياً بالجريدة الرسمية:

– إلى حد الآن، فإن هذا السيد وأنت سيدتي والقبطان وأنا، وحدنا الذين سنستقل سفينة (الجيزة)، وستكونين مرتاحة على ظهرها بكل تأكيد.

وأردف القبطان وهو ينظر إلى ساعته:

– لم يبق لدينا سوى خمس دقائق؛ لنشرب نخب سفرنا قبل الساعة الثامنة؛ لأننا سنحتاج إلى ربع ساعة للوصول إلى بولاق.

وأضاف الدكتور:

– تشجّعي يا سيدتي إذن؛ ما دمت قد اتخذت قرارك المجنون هذا بالسفر.

وبينما كان مرافقاي القويان يستمدان حيوية جديدة بشربهما لقنينتين من (الشمبانيا)؛ أفرغت في جوفي كأساً أخيرة من الماء، وكتبت إلى ابنتي الرسالة التالية:

«21 (أكتوبر) 1869

ابنتي العزيزة،

سنغادر القاهرة في ربع ساعة المقبلة، وسنعبر النيل متوجهين إلى مصر العليا. حلقي يؤلمني، وفقدت صوتي، ومع ذلك قررت السفر. وأنا أراهن على بنيتي القوية؛ لأقاوم التعب؛ ولكني أراهن قبل كل شيء على طاقتي المعنوية. فالانجذاب القوي والحيوي نحو الأشياء المجهولة يدعمني، مثلما سيساعدني على الموت عندما سينقضي أجلي. لذلك، فأنا أجعل من هذا الانتقال من الحياة إلى الموت شيئاً غريباً ومؤثراً.

وإنني أهتم حالياً بكل إحساس جديد؛ فمن سطح قلعة القاهرة تبدو لك مناظر لا شبيه

لها في أي جهة أخرى من العالم. وتعدّ (روما) شيئاً بسيطاً مقارنة بقبور الخلفاء ملوك مصر القدماء؛ الموجودة عند مدخل الصحراء. وعند رجوعي البارحة من هذه الرحلة، اشتريت لك من السوق حزاماً وعقداً ونعلين؛ و(لإميل) [صهري] طربوشاً و(نرجيلة)، دون أن ننسى بعض الهدايا اللطيفة لطفليكما الجميلين. أقبلكم وأبارككم جميعاً من كل قلبي.

إنهم ينادونني الآن؛ فرفاق السفر ركبوا العربة. إلى اللقاء، وليس وداعاً».

ركبت مع الدكتور والقبطان بالعربة نفسها؛ ووضعت أمتعتنا بعربة أخرى تسير وراءنا. ولبلوغ ميناء بولاق؛ اجتزنا أزقة عربية غريبة، يرجع بناؤها إلى أقدم مراحل بناء القاهرة. كانت المنازل شبه مهدمة ومأهولة بالصباغين والخياطين. ولها نوافذ مشبكة وأبواب منقوشة، يبدو من دقة نقوشها وجمالها وكأنها سرقت من مسجد ابن (طولون).

وصاح الدكتور الذي كان مرتدياً أبهى الملابس:

– يا له من زقاق وسخ!

فقلت له:

– قد يكون وسخاً! لكنه يتضمن بكل تأكيد مآثر رائعة من الفن (الموريسكي). ولو قُيِّض لي العيش بالقاهرة؛ لاخترت السكن بأحد هذه المنازل الموجودة في ركن من أركان الزقاق، بدل السكن بأحد قصور الأزبكية ذات الطابع (الأوربي) والتي يشوى فيها المرء تحت الشمس الإفريقية.

وردّ القبطان بلهجة مفخمة:

– السيدة تنتمي إلى المدرسة (الرومانسية)، زوجتي تقدس (فكتور هوجو) هي أيضاً؛ ولا أنكر أن لدى هذا المجدّد العظيم أشياء جميلة.

لكن المحرر السابق لجريدة «الدستوري»؛ صاحب الآراء القطْعيَّة حول المدارس الأدبية اعترض قائلاً:

– كلا، فالسيدة تنتمي إلى المدرسة (الكلاسيكية)؛ ولو من باب الامتنان (للأكاديمية)

(الفرنسية) التي توجتها مرات عديدة.

ووصلنا إلى شاطئ النيل الذي كان مغطى بضباب كثيف، مثل نهر (التايمز) بـ(لندن). وكان الندى الذي يحمله الغسق دوماً في مصر يخترق أجسادنا، فتقشعر مفاصلنا. وخاطبت الجميع قائلة:

– لست سوى امرأة ضعيفة في حاجة إلى رعايتكم.

وكان السعال الذي أحاول كبته، يقطع كلماتي. فصاح الدكتور وهو يمسك بالقارورة التي جلبتها معي:

– خذي جرعة من دوائك الذي لا أعترض عليه.

فأطعته بشكل آلي، قبل أن يضيف:

– والآن، تشجّعي، ها قد وصلت أمام سفينة (الجيزة)، يجب علينا أن نركب القارب للوصول إليها.

وكانت قوارب عديدة ملطخة بطين النيل راسية بضفته، فتكدَّسنا بأمتعتنا عند أول قارب. وكان الظلام قد حل بالمكان سريعاً، وبدأت آلاف النجوم تلمع في السماء. وبالقارب المجاور كانت (بيشيت) وزوجها، اللذان غادرا الفندق بعدنا، تتحدث مع السيد سليمان الذي بسط زربيته للسماح لها بالجلوس. فناديته:

– يا سليمان (بيه) الظريف، أتمنى أن ترافقني بسفينة (الجيزة).

لكنه لم يجبني. وبعد بضع دقائق صعدنا على ظهر السفينة التي سأعاني فيها كل العذابات، مدة شهر تقريباً. وما إن وضعت رجلي عليها حتى رأيت باندهاش (أوجين طاربي) المرح الذي لم ألتقيه منذ فراره بالإسكندرية. ولم يكن صديقه (دارجو) بجانبه؛ ولاحظت اكفهراراً على ملامح محرر جريدة «الغالي»؛ رغم امتلاء خَدَّيْهِ. وصاح عند رؤيتي:

– آه يا سيدتي، كم أنا سعيد بلقائك؛ ستشجعينني كما حدث في سفينة (لوموريس).

وسألته:

- هل فقدت صديقك (دارجو)؟

- انظري، إنه يصعد على ظهر السفينة البخارية (بني سويف) التي ستنطلق قبلنا؛ رفقة البستاني وزوجته. وقد وعدني بتسجيل ملاحظاته بخصوص المقالات التي يتعين علي إرسالها إلى جريدة «الغالي». أما أنا فأتردد في الذهاب، وأريد انتظاركم بالقاهرة، كما فعل (ثيوفيل غوتيي) بحكمة. وقال له (كميل (بيلتان)) ساخراً:

- قلْ: مجبراً، يا (طاربي) البدين! فشاعر من طينة (ثيو) لا يتخلى عن الرحلة إلى مصر العليا بسبب احمرار العينين. فرد عليه (طاربي) ضاحكاً:

- لكنني مهدد بمرض العيون.

وتدخلت قائلة:

- وأنا مهددة بـ(أنفلونزا) حادة تخنق صوتي. لنترك الحديث إلى الغد، فأنا أريد الذهاب إلى مقصورتي كي أنام. لكن (بولانجي)، محرر «جريدة (باريس)»، الذي كان يصعد السلالم في الوقت الذي كنت أهم بنزولها فيه، قال لي:

- لن تنجحي في مهمتك يا سيدتي. فمقصورات (الجيزة) هي أوكار للأزبال، فضلاً عن الروائح الكريهة المحيطة بها، ومن الأفضل قضاء الليل في العراء على ظهر السفينة.

فأجبته:

- قل تحت الندى القاتل؛ فهذا الندى الذي بلل ملابسنا سيولد التهاب الرئة وأمراض العيون وأمراضاً قاتلة أخرى.

لكنه رد علي وهو يقفز إلى فوق بينما كنت أنزل إلى تحت:

- لا يمكنها أن تكون أسوأ من الاختناق الذي ينتظرك في الأسفل.

واستقبلني المكلف بالغرف، وهو (إيطالي) مهذب أطلق علي لقب أميرة دون أن يتردد في إدخال (سموي) إلى إحدى المقصورات الوسخة الموجودة قرب مرحاض جماعي. وكانت كلمة (مرحاض) مكتوبة بحروف كبيرة على الباب. وعندما اشتكيت (للإيطالي) هذا الجوار

غير المقبول رد علي قائلاً:

– أيتها الأميرة، كنا نتوقع مجيئكم وباقي الركاب صباح الغد، وقد أعطينا الأوامر للفرّاش بأن ينظف المقصورات والمرحاض في الساعات الأولى من الصباح. لذلك أطلب منك أيتها الأميرة أن تصبري هذه الليلة؛ وغداً ستكون (الجيزة) لامعة ونظيفة.

وأدخلني إلى مقصورة رديئة، بجدرانها الوسخة التي كانت مذهبة فيما مضى. وأشعل شمعتين ورديتين ثم قال لي وهو يهم بالخروج:

– هل أقدم لسيادتكم فنجان شاي أو كأساً من الشراب الفاتح للشهية؟

فأجبته:

– لا أريد أي نوع من هذه المشروبات؛ لكنني أرغب في شربة ماء حالا، داخل قلتين باردتين، وبملاءات بيضاء فوق هذا السرير الذي سأنام عليه.

– فوراً!

وسمعته ينادي:

– (غايطانو)! Gaetano، (غايطانو)! الأميرة في حاجة إلى ماء بارد وملاءات نظيفة. وبلمحة بصر؛ أدركت الوسخ والإهمال السائدين في المقصورة المخصصة لي. فقد كانت تحتوي على سريرين، وضعت أمتعتي فوق أحدهما. أما الثاني فكان مغطى بملاءة متجعدة وملطّخة بقطرات من الخمر. وكانت الأرضية ممتلئة بفتات الخبز وقشور البرتقال وبقايا اللحم المقدد. حيث غطت بقع الصابون ومراهم كل متاجر العطور بـ(أوربا) إناء الماء المصنوع من الخزف الصيني والمغسل الخشبي بقشرة سوداء لا تزول. وكانت (الجيزة) سفينة ترفيهية، اشتراها سعيد باشا بثمن باهظ؛ أما اليوم فإن ما تبقى من أبُّهة أصبح منفِّراً بسبب الأوساخ العالقة به، مثل ملابس مومس بئيسة، زال لونها الأصلي.

وأول شيء قمت به هو إغلاق الباب؛ حتى لا تتسرب روائح المرحاض الكريهة إلى الداخل؛ وفتح النافذة التي ينفذ منها هواء النيل. وفجأة اندفع سراب من الناموس من الفتحة، وتحلق حول نور الشمعتين قبل أن يهجم على وجهي وذراعي ويدي. وبدأ سرب

آخر من الذباب في التحرك؛ واجتاحت فئران من النوع المسمى فئران الحِراج غرفتي، واختبأت تحت السرير.

شعرت باليأس وأنا أتوقع ليلة العذاب التي سأقضيها. وفي تلك اللحظة بالذات، سمعت طرقاً على الباب. وكان مصدره هو (الفرّاش) (غايطانو)، وهو شاب من (البندقية) جميل الوجه، قوي البنية، سأتحدث عنه لاحقاً. ودخل حاملاً معه رشاشة ممتلئة بماء عكِر وقلة. وعندما طلبت منه الملاءات والمناديل أجابني:

– لكن يا صاحبة السعادة، لقد غيَّرناها البارحة.

– من المحتمل! لكن أحداً غيري استعملها في الليلة الماضية؛ وأنا أنتظر منك تبديلها بأخرى.

وبينما كنت أتحدث معه؛ ألقيت بالملاءات والمنادل فوق بقايا المأكولات، مستعينة بمظلتي، وطلبت من (غايطانو) دفع كل ذلك جهة الممر لجلب الفئران الكبيرة التي لم أكن مرتاحة لوجودها معي. وبعد أن وعدته ببقشيش مهم عند نهاية السفر؛ قرر تنفيذ أوامري فوْراً.

هكذا صدح صوته بأغنية من أغاني بحارة (البندقية)، وعاد بسرعة؛ حاملاً ملاءات نظيفة؛ واقترح أن يهيئ لي فراشي، وينظف الغرفة. ولأنني لم أقوَ على التَّحمّل أكثر؛ قلت له:

– كفى! كفى!

وأجلنا التنظيف إلى الغد، وبينما كنت أغلق باب غرفتي الشبيهة بفرن، حيث كانت الحرارة تبلغ 32 درجة في هذه الليلة من 21 (أكتوبر)؛ سمعته يردد:

– ليلة سعيدة يا أميرة!

نزعت ملابسي، ثم اغتسلت بالماء البارد أو بالأحرى الفاتر بسبب الحرارة. بعد ذلك؛ دهنت أعضائي بمسحوق الأرز وبماء (الكولونيا)، ورششت بهما السرير، ووضعت منديلاً من الكتان فوق المخدة؛ وبعد أن دهنت وجهي بزيت (الغليسرين) غطيته بحجاب من الشف الأزرق، سبق أن استعملته في القاهرة؛ وقاية من الناموس والذباب. فهذه الحشرات البغيضة بـ(شوكاتها) الطويلة وأجنحتها الشفافة؛ شكلت حولي غطاء كثيفاً آخر، بحيث يبدو

وكأن الناموس تحول إلى خرقة. وقد ساعدني الزيت المطلي بوجهي على مقاومة عضات هاته الحشرات، لكن طنينها جعل أعصابي متوترة. وأطفأت النور كي لا أراها، إذ يكفيني سماعها والإحساس بها فوق وجهي. وضاعفت- دون جدوى- من جرعتي المخدرة المألوفة، بحيث لم أتمكن من النوم. ولم تكن الساعة تتجاوز التاسعة ليلاً، في حين حدد انطلاق السفينة عند الفجر؛ لأنه لا يمكن الإبحار ليلاً فوق النيل؛ بسبب تعرجاته وأيضاً بسبب مجراه. لهذا كان يتعين أن تقف سفينتنا في النقطة التي يسقط فيها الظلام. وفضلاً عن ذلك، فقد حددت سبع محطات للتوقف بأهم مدن مصر العليا؛ للتزوُّد بالمؤونة والفحم؛ كما حددت محطات أخرى لزيارة المآثر القديمة.

وكان من الممكن تلافي هذه الليلة الأولى بالسفينة الراسية ببولاق، إذ كان يكفي دعوتنا للإبحار عند الصباح واستغلال هذه الساعات لتنظيف المقصورات وتهييء أحسن ظروف الراحة وأفضل المؤن، كما أرادها الخديوي؛ لكن بسبب جشع المضاربين لم تتحقق هذه الرغبة الطيبة، لا بالسفن ولا بفنادق القاهرة. فلا شيء تم تهييئه لضمان راحتنا بالسفينة ولمواجهة بعض الأمراض التي قد تصيب الراكبين؛ ولا واحدة من السفن التي أقلتنا تتوفر على صيدلية محمولة، وهو أمر جارٍ به العمل؛ وحتى لبْخة الخردل لم تكن موجودة، باستثناء خردل سائل جلب من (ديجون) (Dijon) لتقديمه على مائدة الطعام. وينطبق الأمر نفسه على كل المشروبات المنعشة والمهدئة. بالمقابل، كثرت أنواع الخمور والتوابل والمملحات وعجائن (إيطاليا) ذات الرائحة النفاذة والمعلبات من كل الأنواع ذات الجودة المشبوهة واللحوم والطرائد والأسماك والخضر والكبد الدسم، التي تقدم في قائمة طعام العشاء؛ بحيث ما إن يتم إخراجها من العلب القصديرية حتى تصبح سائلة ومائعة، وقد لا تمد الجسم بـ(الفيتامينات) الضرورية.

لكن، لنترك هذا الأمر جانباً. وبما أنني كنت أجهل سبب توقف (الجيزة) في ميناء بولاق المزدحم والنتن؛ أردت الحصول على معلومات من رفاقي في السفر، الذين كنت أحس بوقع أقدامهم على ظهر السفينة. وحاولت القيام، لكنني سقطت على السرير ككتلة جامدة. وأقنعت نفسي بعدم تحرك السفينة؛ أملاً في التخفيف من الحمى التي ازدادت حدتها مقارنة باليوم السابق. وانتابتني هلوسات غريبة لمدة ساعات، وبرزت أمامي صورة شخص محبوب تُوفِّي في مرحلة شبابي الطائش، ودفنته بقلبي منذ أكثر من عشرين سنة؛ فسيطرت علي بقوة.

وانحنى فوقي شبحه الضخم وكأنه يريد أن يتلقفني بين ذراعيه. وبصوت لطيف وبارد مثل الهواء المنبعث من مقبرة مغلقة لعدة قرون خاطبني قائلاً: «احترسي! فلم تعد لديك القوة على مقاومة العذاب، الذي تسببت لك فيه من قبل، وقد تضيعين جسدك كما ضيعت قلبك، وتركته أطرافاً عندما حاولت استلطاف قلبي القاسي مثل الحديد الذي تشكل بين مطرقة العلم وسندان التهتك».

أجبته بلا مبالاة وقد اختنق صوتي من الألم: «ماذا تريد مني؟ وماذا يهمني من قلبك؟ أنت لم تعد تؤثر في، وشبحك غاص في عدمية الأشياء التي مرت».

لكن الكتلة المعاندة، الكثيفة والثقيلة، الشبيهة بكتلة حيوان؛ جثمت فوق صدري الملتهب. وكانت الفتحة الدائرية التي تلمع عبرها نجمتان كبيرتان؛ تشكل وجهه بعينين وجلتين وبراقتين تارة، ومنطفئتين داخل الظلمة تارة أخرى. أغمضت عيني كي لا أراه؛ لأنني منذ مدة لعنت هذا الشبح القبيح الذي عمل ظهوره دوماً على إنهاك قوتي الحيوية، وشلَّ كل حركاتي. ورغم أنني لم أعد أراه؛ فقد أحسست بوجوده القاسي وغير المرغوب فيه. أو ليست يداه هما اللتين تخنقان حنجرتي المبحوحة؟ ألا يقوم فمه الملوث بعض جسدي المنهك؟ وسمعت فوق رأسي حركة دائبة، شبيهة بأقدام تخبط على الأرضية. وبعد عملية العض؛ بدأت عملية الحك المنفرة؛ وكأن أظافره تمزق بشرتي. وأصدرت صراخاً يعبر عن الألم أكثر من الرعب؛ لأنني لا أومن بالأشباح. وجلست فوق فراشي، وأشعلت إحدى الشَّمعتين الموضوعتين قرب وسادتي. وشاهدت فوق قميصي الأبيض تلك الحشرات الرهيبة التي تسمى الصّراصير، وهي تتحرك مثل سرطانات سوداء؛ وكان بعضها الآخر يتحرك ببطء بالجنبات المذهبة للمقصورة. ووقفت وأنا مرتعبة، ونفضت الصراصير العالقة بثيابي، وسحقتها بنعلي، فانبعثت رائحة كريهة من هذه الحشرات اللزجة. عندئذٍ تناولت قارورة عطر موجودة بحقيبتي، وسكبتها فوقها. وفجأة قفز فأران من الحقيبة التي تتضمن بعض الحلوى؛ فضحكت عند رؤيتي لهذين (اللصين) اللذين ذكراني بـ(كوكو) و(نيني). ولَكم تمنيت- في تلك اللحظة- رفقةَ اليهودية وطفليها في المقصورة اللطيفة بسفينة (لوموريس) النظيفة والصحية!

أشعلت الشمعة الثانية؛ لأنني كنت مرتعبة من فكرة الخضوع لهجمات الفئران والصراصير والناموس والذباب في الظلام. وكيف سيكون شعوري، لو تصورت في تلك اللحظة جحافل البق والبرغوث والقمل الأبيض التي ستظهر بشكل مريع في الأيام المقبلة؟ ونظرت إلى ساعتي؛ وكانت عقاربها تشير إلى الثانية صباحاً؛ وكان علي أن أنتظر أربع ساعات أو خمساً قبل بزوغ الفجر وانطلاق (الجيزة). وساد صمت رهيب بالخارج، فربما خَلد الركاب والبحارة إلى النوم أو أنهم استسلموا لأرق صامت.

ولم يعد بإمكاني الهدوء، وأدركت أن السبيل الوحيد للتخلص من غزْو هذه الحشرات والحيوانات، هو تحريك جسدي وذهني معاً. وتابعت سحقي للحشرات والحيوانات ومطاردتي للفئران وأنا أفتح الحقيبة التي تحتوي على كتبي ويوميات سفري.

ووضعت دفتري وريشتي فوق المغسلة. وكلما واجهت باب المرحاض في أثناء تحركي داخل المقصورة، سجلت انطباعاتي حول هذه الليلة الطويلة. وقد وجدت صفحة تكاد تقرأ، جاء فيها ما يلي: «ما الداعي إلى ظهور هذا الشخص المنسي على نحو مفاجئ؟ ببساطة، إن حضور هذا الشخص المنسي لا ينطوي على أي جانب خارق أو مثالي. فمن بين الأسباب التي شجعتني على المشاركة في هذه الرحلة إلى مصر العليا؛ رغبة عجيبة راودتني البارحة في التقاء إحدى العالمات» المثيرات مثل مومياء حية؛ لأنه توخى ذكرها في يوميات سفره بغرض إهانتي. ومن هذه الفكرة، تولَّد الكابوس الذي أزعجني قبل قليل والذي لم يثر عطفي كما لم يوقف مشاعري الميتة التي أصبحت رماداً. اللهم إذا ما كان التفكير فيه ناجماً عن رؤية قبر أثري خلال النهار.

لقد مرت الآن عشرون سنة على تلويثه بيديه الخشنتين لمقعد الحب الموجود داخل معبد مجهول، جميل وطاهر ونادر، مثل معابد (اليونان) القديمة التي ظلت سليمة ومخفية على مدى قرون. مرت عشرون سنة على فتحه لأبواب هذا المعبد أمام الثعابين المقرفة وغبار الطريق الذي يفسد الرخام الرباني. لقد انتهك سر الهوى المقدس، والتجليات الطاهرة للعقل واحترام الأشياء الخالدة المتعلقة بالحب والعبقرية والصراحة. وقد طرد نفسه بنفسه من هذا المكان المقدس؛ لأنه لوَّثه بتهتك الجسد، والأدهى من ذلك؛ بتهتك الروح وبالدناءة

والغرور.

لكن، كيف تتخوفين من ظهور الشبح، أنت التي حافظت دوماً على شباب فكرك وحيوته؟ من المستحيل أن يؤثر فيك؛ وبالتالي أن يرعبك. فهو الذي سيشعر بالخوف عندما يشع ضميرك. ومع ذلك! انظري إلى نفسك في المرآة؛ كم أنت شاحبة ومنهارة وشبه محتضرة! هل ذكراه هي التي حطمتك، وجعلتك مثل شبح؟ كلا، إن الأمر يتعلق بحزن عميق على معتقداتك التي ضاعت، وهدمت، وانتهكت من قِبله.

لكنه لم يتغلب على روحك التي ظلت قوية مثل روح (باروس) (Paros) العنيدة التي انتظرت (فيدياس) (Phydias) الوضيع. عليك أن تقاومي الفساد. إنك ستعيشين بفضل قوتك، وليس بفضل حماسته المغرورة. فأنت تسيطرين على هذا الغرور بهدوئك الصامت داخل وحدتك. تسيطرين عليه بفضل حبك للعدالة واحتقارك للنذالة واقتناعك بالسذاجة العظيمة وتعاطفك اللامتناهي مع كل آلام الإنسانية. فموت الأخلاق الذي حاول أن يحيطك به لم يؤثر فيك؛ لأن الحياة تتحرك بداخلك وتتحداه؛ وبينما الموت يسكنه، ويقضي عليه من خلال تحركاته داخل المجتمع الراقي. وتعاطف الجرائد الفاسدة معه لن يكون له صدى في المستقبل؛ وهو يشعر بذلك، ويخاف من المآل الذي ينتظره. لقد تلقيت كل الإهانات كضحية؛ وهو عرف كل الأمجاد كجلاد. لكن ساعة الإصلاح قد أزفت، ولن يفلت من العقاب.

تذكّري هذا المثل العظيم «إذا ما ارتكب إنسان جريمة قتل في الخفاء؛ فإن نبات الحقول سيفضحه». إن هذا النبات العادل الذي داسه بقدميه دون حياء، في هذه الصحراء الإفريقية التي انجرفت فيها روحك؛ سيقبض على قاتل شبابك، وسيفضح همجيته المنفِّرة.

تغلبي على هذا العذاب السري المتمثل في المُتع التي سرقها منك هذا اللص الفاسد؛ فمن سرد عذابك ستخرج إدانة هذا الشرير. وهو وإن كان قد انتصر اعتماداً على سلاحه الثلاثي المكون من التفخيم والسخرية والقساوة، فإن دمعة منك يمكنها أن تكون أحد من السيف. عليك أن تكوني مؤثرة، وستنتصرين. ومن بين أعمال (والتر سكوت) (Walter Scott) العديدة وغير العميقة، والتي ينهل منها المراهقون؛ لم تترسخ في ذاكرتي سوى صورة امرأة

تسبح في ضباب اسكتلندا الباردة، الذي تدفئه الأنغام الحارة لـ(دونزيتي) (Donizetti). فهذه الموسيقى التي هي تاج الروح ومجدها؛ انبثقت من الصرخة الحزينة لـ(كالب) (Caleb) العجوز، عندما هرعت (لوسي) (Lucie) استجابةً لإشارة عشيقها، وسقطت في الفخ القاتل؛ معتقدة أنها سقطت بين ذراعي حبيبها. وقد صاح العجوز الولهان قائلاً: «لقد طُبخ الحَمل في حليب أمه!»، وهو نحيب ساذج ومعبر، فوق حفرة دموية. المرأة هي دوماً ذلك الحمل المعذب بسبب الحب؛ غير أن الحمل المطعون غدراً؛ بإمكانه الشفاء من جراحه، وسيتعافى، ويتحول شبلاً يعض القاتل الذي أفلت من العقاب، وهكذا سيصبح أداة بيد العدالة الخالدة.

«أيها الكائن العابر الذي ستصبح تراباً في الغد، لماذا تتحدث عن هذا الانتقام التوارتي؟ فلتهدأ داخل سكينة سلام كوني! فالوداعة هي للروح بمنزلة الأفيون للجسد». وكانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي كتبتها في تلك الليلة. ويا لسخرية القدر! فقد تكسرت إرادتي نتيجة سعال قوي، وارتميت على سرير عذابي. وعندما عدت إلى واقعي الحالي؛ لم أفكر سوى في شيء واحد؛ وهو النسيان! نسيان الألم. وكررت مع نفسي، نعم النسيان. وانسقتُ مع غريزة الحيوان المريض، فشربت نصف دوائي المخدر، أي ما يعادل ثلاث مرات كمية الوصفة المحددة. وبدا أن الانفعال الكبير المؤثر في الأعضاء؛ قد غير من مفعول المخدر أو أن الطبيعة الخيرة ساعدتني، كما فعلت معي في مثل هذه الأزمات التي يصبح فيها الجسد عائقاً أمام الفكر. فآويت إلى الفراش، ونمت على الفور نوماً عميقاً من دون أحلام ومن دون شعور بالحياة ومن دون إحساس يذكر. فلم أعد أشعر بتمزقات الوجود، وتساءلت: وهل الموت شيء آخر؟

وبدأ نور الصباح يلوح بمقصورتي؛ عندما استيقظت فجأة على أصوات عديدة بالممر. وتعرفت من بينها صوت (أوجين طاربي) و(كميل (بيلتان). وكان الأول يشكو بنوع من الأنين قائلاً:

- لا أريد الموت على هذه السفينة الوسخة.

فردَّ عليه (كميل (بيلتان) ساخراً:

- أسرع بتوديعها؛ لأنها ستنطلق، ومن الأفضل رؤيتها من السطح.

وجعلتني هذه الكلمات الأخيرة أقف بسرعة وكأن مزماراً نبهني. وفرحت لكون نومي العميق لم يكن له تأثير سلبي في جسدي ولا في أفكاري. ارتديت على عجَل سترة بقلنسوة غطت رأسي بكامله؛ ولم يظهر من الوجه سوى العينين والأنف. وخرجت من المقصورة؛ وفي أثناء صعودي السلالم أوقفني (أوجين طاربي) الذي كان يرتدي ملابس بيضاء، ويغطي رأسه بقبعة خضراء تظلل خديه المتوردين، وقال لي:

– ما ستشاهدينه أو بالأحرى لن تشاهديه، ليس هو النيل، بل التايمز؛ بسبب الضباب الكثيف والبارد. وقد كنت البارحة متخوفاً من ضربة شمس، أما اليوم فإنني أخشى إصابة بالصدر.

وتدخلت مقلدة بيتاً شعرياً (لأطالي) (Athali):

–إنك تخاف من كل شيء يا عزيزي، أو ليست لديك مخاوف أخرى؟ وبالمناسبة، هل ذهبت مخاوفك من الإصابة بمرض العيون في أثناء النوم؟

– النوم! النوم! وهل يمكننا النوم ونحن نشم دخان الفحم الذي جعل لوننا أحمر، وأعمانا؟ وقبل أن تتهكمي علي، انظري إلى هذا.

ونزع قبعته مشيراً إلى جفونه الثقيلة التي اختفت تحتها عيناه البراقتان. فقلت له:

– لكن الناموس هو الذي لسعك! فبشرتك الطرية تثير هذه الحشرات.

وعلَّق السيد (بولانجي)؛ وكان قد غادر مقصورته ووجهه مغطى بقماش الشف الأخضر:

– السيدة على حق؛ فرغم أن بشرتي أقل طراوة من بشرتك إلا أن الحشرات ملأتها جروحاً.

ورفع الغطاء عن وجهه، فظهر مثل غربال من كثرة اللسعات التي تعرض لها. وأردف (طاربي) قائلاً:

– هذا طبيعي، فقد نمتما على ظهر السفينة؛ أما أنا الذي نمت بالمقصورة؛ فإن ألمي داخلي، وسأهلك، وأفقد بصري. ويا له من مصير بديل!

واحتج (بولانجي) قائلاً:

– النوم قرب هذا المرحاض النجس؛ هو مشكل لا حل له.

فقلت ملاحظة:

– ومع ذلك، فقد وجدت الحل، بما في ذلك طرد الحشرات بوساطة الدواء.

ثم أزلت القلنسوة من فوق رأسي، وأظهرت لهم وجهي الشاحب والهزيل، لكن السليم.

وقال (طاربي):

– هذا صحيح! هل ستمنحينا الدواء؟

– نعم سأناولك إياه عندما تنطلق سفينتنا.

لكن (طاربي) صاح بتردد:

– من الأفضل– على ما أظن– أن نأخذ قارباً، ونعود إلى القاهرة. وبالنسبة إلي شخصياً؛ فإن الأمر مسموح به، وسأهيئ أمتعتي.

فخاطبته معاتبة:

– إنك لن تقوم بهذا السلوك الجبان. فتشْ في حقيبة الزينة فوق فراشي، وستجد قارورتين من هذا الدواء؛ إحداهما تشمل زيت (الغليسرين) التي ستخفف من آلام جفنيك، والثانية تتضمن مخدراً يسمح لك بالنوم.

– إذا كان الأمر كذلك؛ فإنني سأكون من أخلص خدامك! فعقَّبت عليه ضاحكة:

– هاها! مثلما كان الشأن في الإسكندرية! خذ القارورتين على أي حال، فأنا أسمح لك بذلك.

واختفى في آخر الممر؛ في حين صعدت السلالم متأبطة ذراع السيد (بولانجي) وأنا أستنشق نسيم الصباح البارد. وبلغت سطح السفينة، فجلست على أول مقعد تراءى لي؛ ولم أتمكن من المقاومة كما رغبت في ذلك. وجاء (الفراش) (غايطانو)، ووضع أمامنا صينية عليها فناجين قهوة ساخنة وزجاجة (كونياك) وكؤوس صغيرة. وسألني (كميل (بيلتان)):

- ماذا يفعل (طاربي)؟

فأجبته:

- إنه يغط في النوم، إن لم يكن قد حزم أمتعته للعودة إلى القاهرة.

فصاح (كميل) بعصبية وهو يضرب سطح السفينة برجليه:

- يا له من بليد!

فقال السيد (بولانجي):

-لا يتوفر الجميع على أعصابك الفولاذية.

ورد عليه (كميل (بيلتان)):

- العضلات تتقوى بالإرادة. البارحة، عندما ذهبت لتوديع (ثيوفيل غوتيي)؛ لاحظت علامات الحزن بادية عليه لعدم تمكنه من مرافقتنا إلى مصر العليا التي كان سيصفها هذا الشاعر الكبير على نحو جيد، فوعدت نفسي بالقيام بالرحلة؛ حياً أو ميتاً.

فقلت له:

- إنني قمت بالوعد نفسه.

- وإذن، عليك أن تتشجعي، وتقوي رئتيك.

ثم أردف ساخراً عندما رآني أرتشف جرعات من فنجان الشوكولاته الذي قدمه لي (غايطانو):

- يا له من سائل لزج! إن النوابض المرتخية بالآلة الإنسانية لا تتمدّد إلا بفعل المشروبات الروحية. فعلقت على فكرته بالقول:

- لكنها تكسرها في وقت مبكر، مثلما وقع لـ(ألفرد دوموسي).

- المسألة هي معرفة ما إذا كنا نفضل العيش حتى الثمانين داخل جسم بأعضاء مرتخية وعقل متعب، أو الموت في سن الأربعين بجموح وحماسة، حيث ما تزال ذكريات الشباب

عالقة بالذهن. والنصيبان معاً، يتضمنان الألم والقلق كميراث لدى كل كائن. ولأننا لا نستطيع إزالة الألم؛ فعلينا أن ننساه. ويجب ألا نسمح للمجهول- هذا الطاغية الغامض- بالاستمتاع بنحيبنا.

صباح الخير يا دكتور، صباح الخير أيها القبطان، صباح الخير أيها الصديق الأمين والمنضبط! ها قد أتيتم دون إصدار أي شكوى، كما يليق بأشخاص رسميين يشكلون الموكب الشرفي للجنازة. فـ(طاربي) قد مات، والسيدة تحتضر، أما أنتم فتقدمون مثالاً عن الوقار واحترام الواجب. وبينما كان (بيلتان) يحيي بكلماته هاته مقدم رفاقنا الثلاثة الحليقي الوجوه والأنيقين؛ توجه الدكتور نحوي، وقام بجس نبضي، ثم أخرج ساعته، وبدأ يحسب دقات قلبي، وصاح غاضباً:

- يا لك من متهورة!

- تمهَّل أيها الدكتور الطيب، ولا تقدم لي نتائج مقلقة، فالقاضي يعفي المحكوم عليه بالإعدام من تعداد الساعات المتبقية من حياته. وأنا أريد أن أنتهي بالمصادفة، مثلما عشت.

فقال لي:

- لكنك لم تنامي.

- ليس بأفضل منك! وهو ما يبدو من ملامحك المرتاحة وعينيك اللامعتين.

- لم ننم، أنا والقبطان كثيراً؛ وقد قمنا عند استيقاظنا بتسجيل انطباعاتنا حول السفر. فالنظام هو شعارنا، وتلك فضيلة عسكرية.

وسأله السيد (بولانجي):

- هل حظيتما بمقصورة نظيفة؟

فرد القبطان وقد انتصبت قامته القصيرة:

- إن الحياة العسكرية تجعل المرء غير مبالٍ بالتعب.

وأضاف الدكتور:

- والجنود الحقيقيون يكتفون بالقليل.

فأردف السيد (بولانجي):

- لكن يجب ألا يكون هذا القليل عذاباً؛ فالمقصورة التي خُصِّصت لي ظلماً، تضيف إلى كل (محاسنها) كونها منحنية السقف، ولا يمكن الوقوف بداخلها.

وقلت محتجة:

- وأنا يا سيدي، كنت مضطرة للانحناء مثله؛ لكي أدخل مقصورتي، وأخرج منها.

وأضاف (بيلتان):

- هل تعلمون بأن كتفي ورجليّ الطويلتين استخدمت كدعامات للسقف؛ وأنني لو نسيت أن لي رأساً؛ لكنت قد صدمتها بهذا السقف، وشققتها كرمانة. وأنت يا صديقي الطيب والصامت، هل أنت متيقن من أنك لم تترك بقايا من دماغك بجنبات مقصورتك؟ ليكشف كل واحد منا عن آلامه مثل جوقة (التراجيديا) القديمة، ثم لنصمت بعد ذلك؛ لأن الحديث عنها لا يبهج النفس.

وأردف محرر جريدة «الدستوري» قائلاً:

- ولنجرؤ على القول: إن هذا الحديث سيكون غير لائق تجاه الخديوي الذي أكرم وفادتنا.

وصاح الدكتور:

- يا له من كلام حكيم!

وأضاف القبطان الصارم:

- وسأسجل هذا الكلام؛ لأنه قاعدة يجب اتباعها.

تركنا، ثم اتجه إلى مقدمة السفينة مرفوقاً بالدكتور، في حين انخرط (بيلتان) في حديث مع الربان، بعد أن ضاق ذرعاً باحتجاجاتنا. فقلت للسيد (بولانجي):

-أعترف لك بأنني لم أعد أفهم؛ فأنا لا أتصور أننا نعبر عن عدم احترامنا للخديوي،

لمجرد أننا تحدثنا عن وسخ سفينة (الجيزة) وتلوثها؛ اللهم إلاّ إذا ما كنا مطالبين باحترام خدام سموه الذين كان عليهم أن يسهروا على نظافة السفينة.

ورد علي قائلاً:

– كان بإمكانهم القيام بذلك؛ لو أن ضابط التشريفات الذي يرافقنا إلى مصر العليا قام بمراقبة السفينة (الجيزة) البئيسة مثلما فعل مع سفينة (البحيرة) البخارية الكبيرة التي ستكون في مقدمة السفن كما ترين. فهي تحمل على متنها أعضاء المعهد؛ (ميلر) و(كاثرفاج) و(شارل بلان) إلخ... وشخصيات رسمية، فرنسية وأجنبية وبعض الصحفيين المحظوظين مثل (لامبير دولاكرو) من جريدة «المعلم الكوني» و(أبلوطون) من «الصحيفة» و(لالو) من جريدة «الكوني». وفي صباح البارحة قيل لي: إن (يونغ) من جريدة «النقاش» و(كمبفين) من جريدة «الزمن»؛ قد حجزا غرفتيهما بهذه السفينة. فتوجهت إليها في الرابعة بعد الزوال؛ حاملاً أمتعتي وحجزت مقصورة نظيفة جداً. وعندما رجعت في الساعة السابعة مساء إلى (البحيرة)؛ أخبرني ضابط التشريفات بأنه كان مضطراً لمنح غرفتي (للدوق) (طاء)، وبالمقابل فإن مقصورة أفضل تنتظرني بسفينة (الجيزة)، وقد أعطى أوامره لنقل أمتعتي إليها. فأبديت احتجاجي، وطلبت إرجاعي إلى القاهرة. لكن الضابط حاول إقناعي بأنه ليس في الأمر أي محسوبية وأنه إذا كان قد ألغى حجزي للمقصورة؛ فلأن (الدوق) (طاء) كان مريضاً جداً ومحتاجاً إلى أصدقائه ومواطنيه الموجودين بسفينة (البحيرة). ولكي أقتنع بأن (الجيزة) مريحة؛ أكد لي أنه هو الذي حجز مقصورتك بها.

لم أتمالك نفسي، وصرخت: «يا للخائن!»، وقلت للسيد (بولانجي):

– إن الشيء غير المفهوم هو أن رفيقيْنا في السفر اللّذين يتوفران على ألقاب بفضل انضباط مواقفهما وآرائهما واللذين كان بإمكانهما السفر على ظهر «بحيرة» المحظوظين قد اكتفيا بمكان بسيط بعوامة (الجيزة).

– لكن هذا المكان هو صالون السفينة الذي يستعمله عادة جميع الركاب؛ بيد أن هؤلاء السادة استولوا عليه، وأصبحوا يشتغلون، ويبيتون بداخله. وقد اتضحت لي الأمور جيداً بخصوص هذه المصادفة المزعومة التي جمعتنا بهذه العوامة المتسخة. فأنت يا سيدتي مراسلة

جريدة «القرن» و(كميل (بيلتان) هو الكاتب المشاغب بجريدة «التذكير» وأنا محرر بـ«جريدة (باريس)». وهذه الجرائد الثلاث مهمشة (الإمبراطورية). وحتى (طاربي) المرح عوقب بإرساله إلى هذه السفينة؛ بسبب مقالة مستقلة- على ما قيل لي- بعثها إلى جريدة «الغالي».

تابع السيد (بولانجي) قائلاً:

- أنا مصر على عدم تقبل هذا العقاب المصري، وسأقدم غداً احتجاجي بمحطة المنيا، التي ستكون أول توقف لنا؛ وإذا لم يقبل فإنني سأستقل القطار إلى القاهرة، وسأكون بـ(باريس) في غضون عشرة أيام. فلو لم يختف قارب (البحيرة) الذي أقلني بأمتعتي إلى هنا في أثناء احتجاجي؛ لما كنت سجيناً بـ(الجيزة).

فصحت محتجة:

- لا يمكن أن تكون سجيناً!

- حاولي أن تسمعي صوتك لهؤلاء العرب وأن تحرزي منهم على مركب من دون علم شيخهم وقبوله.

- أعترف لك بأن هذا الوضع الإكراهي يثيرني؛ ورغم أنني حرة في الرجوع إلى القاهرة فإنني لن أقوم بذلك. وعليك أن تتخيل المشهد العجيب الذي ينتظرنا.

الفصل التاسع

انطلاق السفن، ضفاف النيل، مناظر جميلة، القصور والحريم، فيضانات النيل الدائمة، التأثير الإيجابي للنور الإفريقي، الفيوم، سعة اطلاع القبطان وثرثرته؛ خلوة مع النفس وصمت مطبق، الحقيقة التي يكاد يكون قولها لمعاصرينا أمراً مستحيلاً.

صاح (كميل بيلتان) الواقف قرب الربان:

- انتباه!

ومثلما يرتفع ستار المسرح فجأة، اخترق شعاع الشمس الحارقة بسهامه الذهبية بياض الضباب الذي كان يخفي مياه النيل. وظهرت أمامنا الضفتان في الأفق، فاندهشنا، وظلت أعيننا تحدق في كل الجهات؛ علَّها تسجل في الذاكرة تفاصيل هذه اللوحة العظيمة.

ورفعت (الجيزة) المرساة، ثم تحررت من زحمة القوارب التي يمتلئ بها ميناء بولاق، وسارت على الخط الذي رسمته قبلها (البحيرة). وتعدّ هذه الأخيرة من أكبر السفن المبحرة ،وتحمل على متنها اثنين وأربعين من الركاب المتميزين، وهي تجر وراءها (النسر)؛ وهو مركب كبير يدعوه العرب (دهابيش). وقد أثث بشكل جيد، بحيث كلف صانع مفروشات قاهري بتأثيثه بالأرائك والزرابي والستائر. وتوجد بهذا المركب أختان، إحداهما غير متزوجة رغم كبر سنها؛ أما الكبرى فهي زوجة (برجوازي) (باريسي) كبير حظي بالسفر إلى مصر؛ لكونه مقرباً من البلاط. وفضلاً عن الزوج، يحيط بالمرأتين أربعة ركاب آخرين.

كانت (الجيزة) تسير وراء هذا المركب؛ ويمكن للمرء أن يرى من ظهرها علامات البذخ البادية عليه. وكم تبدو سفينة (الجيزة) بئيسة بالمقابل؛ علماً بأن هذا المركب لا يُقِل سوى سبعة أشخاص كما قلنا، وتوجد به مقصورات عديدة، لكنها فارغة. أما سفينتنا البخارية الوسخة فإنها تجر وراءها مركب (البلزوني) (Le Belzoni)، وتأتي وراءها السفينة البخارية (لوفيرو) (Le Fereux) التي اجتمع فيها المدعوون (الألمان) و(السويديون) و(النروجيون) الذين رافقونا من (مرسيليا) إلى القاهرة على ظهر (لوموريس). ويعدّ (البروسيون) الأغلبية؛ ومن بينهم يوجد العالم الشهير (لبسيوس) (Lepsius) و(البارون بورسكورف) (Burskorf) صهر (مايربي) (Meyerbeh)؛ الضابط المرافق لولي عهد (بروسيا)، و(البارون تغليوني) (Taglioni)، ابن أخ الراقصة الشهيرة، الملحق بسفارة (بروسيا) بـ(باريس).

ولأن هؤلاء (الألمان) الحذرين اشتكوا مما تعرضوا له من سخرية بسفينة (لوموريس) على

يد بعض (الفرنسيين)؛ فقد وفرت لهم وحدهم السلطات المصرية السفينة البخارية الرائعة (لوفيرو). وهي سفينة جديدة ونظيفة ولامعة؛ وستحافظ طوال مدة السفر إلى مصر العليا على مظهرها البهي الذي لا غبار عليه؛ وهو ما سيدعوه (الإيطاليون) بسخرية إبان استيلاء (النمسا) على (البندقية) «مظهر العسكري (تديسكو) (Tedésco)». وقد سبق أن زعم (بلْزاك) أن للأسماء هيئة وأن التناغم الصوتي للكلمة يميز البشر والأشياء.

إن كلمة (لوفيرو) باردة وقاسية، وهي تعطينا فكرة حول هذه السفينة المتينة التي لا زخرفة فيها ولا تأنق، بل إن كل شيء فيها وُجد لتحقيق الفائدة والراحة؛ فالنحاس والأخشاب كانت تلمع، كما كان الشأن في السفن الحربية القديمة. وفي المساء، عندما يصعد الركاب على سطح السفينة لاستنشاق الهواء؛ فإن ملامحهم تعكس الصرامة العسكرية والتعالم الجامعي. ومهما يكن؛ فقد شعرنا بالغيرة منهم عندما التقيناهم في الصباح. وكانت نظراتنا تعبر عما يلي: «من المؤكد أنكم نمتم جيداً داخل هذه المقصورات المضيئة، وأكلتم من دون اشمئزاز فوق هذه الموائد اللامعة».

هل يتعين علينا التفكير فقط في النوم والأكل؛ هذه الوظائف الحيوانية التي تقتطع النصف من حياتنا القصيرة؟ لنتحكم في إكراهات المادة! ولنقضِ عليها من أجل التحليق بعيدا! وإلى حين وفاتنا؛ لنعش من أجل الفكر!

كانت سفينة (لوفيرو) تجر مركب (إبيس) (ibis)؛ وفي آخر الأسطول الصغير هناك سفينة بخارية جميلة؛ وهي (بني سويف) التي استقلتها (بيشيت) وزوجها ورسام (الكاريكاتور) (دارجو) و(فلوريان فرعون) الطبيب ومحرر جريدة «الشمال» وزوجته اللذان سبق أن التقيتهما في حفل الخديوي والمهندس العجوز (هاء)، وهو رجل رائع ذو خصال حميدة، لكنه كان مهووساً برفع نخبه على شرف الخديوي «مضيفنا الرائع» في كل وجبة طعام.

وأنا لم أقم بتعداد هذه السفن إلا من أجل إشباع فضول بعض القراء. وفي تصوري، فإن المناظر المتغيرة للضفتين ومظهر القاهرة المتدرج على شكل قواعد مثيرة حتى قمة القلعة كانت أكثر أهمية من رؤية بعض السفن التي تطفو فوق مياه النيل. فقد كنت أعدّ سفينة (الجيزة) شبيهة بمقصورة مسرح، أطل منها على هذا المنظر الجديد وغير المتوقع بالنسبة إلى

(أوربي). وكل من لم يسبق له النزول بالبسفور والدردانيل في البحر الأسود؛ سيظل مشدوهاً أمام آلاف البنايات ذات الهندسة (الموريسكية) والموجودة على ضفتي النيل. هكذا تبرز الفيلات والمساجد والقصور، وتنعكس أشعة الشمس على الأبواب وعلى الصوامع العالية التي يتعاقب ظهورها مع أشجار النخيل.

ومررنا بجانب حدائق قصر علي فاليدي الذي تسكنه أم الخديوي الملقبة بفاليدي أفراد الحاشية، وهو لقب أم السلطان بالقسطنطينية أيضاً. ويوجد هذا القصر بجوار قصر النيل الذي رأينا فيه إسماعيل. ومن الضفة اليسرى للنهر تبدو أهرامات الجيزة التي تملأ المكان وتلتقي مع سلسلة الجبال الليبية. وقد عاهدت نفسي بأن أقوم خلال العودة بزيارة قصر علي فاليدي الذي يمنع على الرجال الاقتراب منه؛ بل إن بعض الأوربيات القليلاّت هن اللواتي دخلن إليه؛ وأيضاً بزيارة متحف بولاق الذي تصل مياه النيل إلى نوافذ شرفاته. وتتناقض هذه النوافذ مع شبابيك الحريم الموجودة بالقاهرة القديمة. ووراء هذه الشبابيك المحاطة بالأزهار توجد نساء بئيسات ونفوس مجهولة تهتم بها نفسي مع ذلك.

وتركنا وراءنا جزيرة الروضة، المشهورة بآلة قياس ارتفاع مياه النيل وبحدائقها الممتلئة بالأشجار والأزهار والفواكه اللذيذة. وقبل بلوغ الشاطئ الذي تظهر فيه الأهرام الثلاثة وكأنها انبثقت من وسط بحيرة؛ مررنا بالقرب من الضفة، على قصر الجزيرة الذي بناه سعيد باشا والذي يعدّ من أجمل قصور الخديوي؛ فهندسته شرقية، لكن أثاثه جلب من أفخر المحلات الباريسية؛ حيث زينت الغرفة المخصصة للإمبراطورة (أوجيني)، وهيئ لجلالتها سرير رائع من الجوخ الإنكليزي. وكان الخديوي قد توجه في هذا اليوم ذاته لاستقبالها بالإسكندرية.

فيما وراء حدائق هذا القصر؛ يمتد السهل الذي قاد فيه الجنيرال بونابرت حملته، حتى سفح الأهرام. وتظهر مجموعة من الفلاحين المنهمكين في أشغالهم حول القصر؛ وهناك آخرون يحملون صناديق كبيرة ممتلئة بالأزهار التي ستزين الصالونات. وعلى مسافة أبعد، يتراءى لنا حشد أكبر من العاملين على حفر السواقي؛ تفادياً لفيضانات النيل. وكان الماء يغمرهم حتى البطن، وهم نصف عراة؛ لأنهم رفعوا قمصانهم البيضاء إلى أعلى. وبين الفينة

والأخرى؛ كان العجزة والأطفال يتكئون على جذوع النخيل المنغمرة بالمياه أيضاً والتي ترتفع عروشها نحو السماء؛ وعندما مررنا بجانبهم؛ حدقوا فينا بأعين ملتهبة.

تجاوز الأسطول الصغير أهرام الجيزة؛ وكان من المفترض التوقف عندها، كما هو مبين في «مرشد الضيوف» الموزَّع علينا، لكن فيضانات النيل التي كانت أقوى هذه السنة من فيضانات السنوات الفارطة؛ جعلت هذه الجولة مستحيلة. وسنواجه الخيبة نفسها مع أهرامات (سقارة) و(دهشور) و(ميدوس) الأكثر عدداً والأصغر حجماً من أهرامات الجيزة. وظهرت هذه الأهرامات أمامنا وهي تطفو فوق المياه، وتومض تحت نور الشمس؛ متحدية فضولنا بعظمتها الخالدة. واجتزناها وكلنا أمل في التمكن من زيارتها في أثناء رجوعنا. ومررنا بالقرب من قرية تدعى (طامو)، وهي كما يروي الأقباط المكان الذي واجه فيه نبي الله موسى النيل. بعد ذلك، اجتزنا ميناء بردشين الذي تتوقف به المراكب للسماح للزوار بالذهاب إلى سقارة. وكنا سنقضي به ليلتنا الأولى؛ لو تمكنا من زيارة مقبرة (سقارة) الشاسعة التي تعدّ من أكبر مقابر (ممفيس) القديمة وأجملها.

وسط النيل- الذي ارتفعت مياهه بسبب الفيضان- بدت على طول الضفتين سلسلة جبال الشام المرتفعة كقلاع والتي تتراءى لنا من بعيد وكأنها متموجة كنهر؛ وأيضاً المزروعات الخضراء المنتشرة على جنبات هذه الجبال والقمم البيضاء للجبال الليبية المحاذية للأراضي المغمورة بالمياه والتي تتراءى فوقها قمم الأهرامات وأشجار النخيل. وتعبر هذه المقابر القائمة منذ زمن سحيق عن هشاشة الإنسان وفنائه، كما تعبر الطبيعة المزدهرة باستمرار تحت زرقة السماء اللامعة عن خلودها.

وفوق قمم الجبال العالية؛ بدا في الأفق نسر وعقاب وهما يطيران بسرعة، ويخترقان هذا الفضاء الأزرق. وتراءى لنا فلاح بئيس وهو يجمع بعض حزم الذرة أو قصب السكر؛ وفلاح عجوز آخر ذو بشرة (برونزية)، تتلاعب رياح الصحراء بشعيرات رأسه؛ وهو يملأ بئراً صغيراً بمياه النيل، مستعيناً بدلوين مشدودين إلى ناعورة بدائية. وكان العجوز المسكين يحرك هذه الآلة البدائية بكل ما أوتي من قوة. وحوله كان أطفال سمر صغار وعراة، يقفزون ويتابعون ما يبذله من مجهودات. وكانوا يستلقون على بطونهم فوق رمال الشاطئ، ويشربون

من مياه النيل بغريزة حيوانية؛ قبل أن يتوجهوا نحو الصخور الحارقة يتبعهم سراب من الذباب، في حين ظل العجوز منهمكاً في عمله.

لقد أصبحت هذه الأحداث البسيطة المرتبطة بجمال المناظر تثير فضولي؛ في وقت كانت فيه (الجيزة) تصعد النيل بسرعة ضد التيار. وبقيت وحدي على ظهر السفينة، ناسية رفاقي في السفر. لكننا كنا جميعاً مرهقين بفعل الحرارة المفرطة، إلى درجة أننا لم نسمع جرس الغداء؛ مما اضطر رئيس طباخي السفينة إلى التوسل إلينا؛ لكي نتذوق المعكرونة اللذيذة المطبوخة بجبنة (بارما) (Parme) التي هيأها لسعادتنا قبل أن تبرد. وأثارت هذه الكلمة الأخيرة ضحكات العديد منا؛ فقد كانت جباهنا تقطر عرقاً وخدودنا حمراء بفعل حرارة الصباح التي بلغت 33 درجة، مما جعل كلمة «تبرد» بمنزلة مبالغة ساخرة. لكن رئيس الطباخين (الإيطالي) لم يكن يقصد السخرية في أثناء حديثه عن المعكرونة التي هي من أبرز الأطعمة الوطنية المشرفة لبلده. وحاول القبطان إقناعي بأنه سيكون من التهور إثارة استياء المكلف بتغذيتنا؛ لأنه المتحكم في أطعمة السفينة، غير أنه لم يستطع منعي من التعبير عن اشمئزازي من المعكرونة بالجبنة قائلة: «إن رائحة المعكرونة شبيهة برائحة المرحاض!»

ولم يخْفِ رئيس الطباخين- الذي سمع هذه الملاحظة- غضبه، فرفع يديه، وأقسم بالمسيح؛ أن الأميرة قد شتمته. فقال لي القبطان بصرامة:

- سوف لن يغفر لك هذه الإهانة؛ واسمحي لي يا سيدتي بأن أقول: لك إن هذه العبارة في غير محلها.

فابتسمت، وقلت لهذا القبطان المدرَّب الذي كان مختصاً في فن الخطابة:

- أرجو أن تعمل على الحد من غضبه بإقناعه عن طريق حججك الدامغة بأن اشمئزازي يتعلق بالمعكرونة عموماً، باستثناء معكرونة (الجيزة) الهرمية التي هيأتها يداه الوسختان.

فعلق (الدكتور) قائلاً:

- احذري يا سيدتي إنك اختصاصية في التهكم؛ وعليك أن تستجيبي لدعوة هذا الرجل الرائع الذي قمت بشتمه مجاناً؛ لكي يهدأ غضبه.

فأردفتُ:

– مجاناً! مجاناً! هل نسيت فظاعات مقصوراتنا والمرحاض؟

وقاطعني القبطان وهو يرمقني باحتقار:

– أما زلت مصرة على ذلك؟

وأضاف (الدكتور):

– إذن، هل ستستجيبين للدعوة؟

– سألحق بكم بعد المعكرونة.

وتمدَّدتُ فوق المقعد الذي كنت جالسة عليه من قبل محتميةً من أشعة الشمس بمظلة؛ وبدأ النعاس يغلبني. وبين اليقظة والنوم؛ كنت أرى الجبال الشامية العظيمة بمنحدراتها الصعبة التي تغطيها الشمس، فتبدو كصفائح فضية منغمسة في مياه النيل الباردة؛ عاكسة على السفينة وميضها الجهنمي. وأحسست وكأنني مهدَّدة ومدفونة تحت هذه الصخور الملتهبة مثل امرأة نائمة وسط حريق، أفاقت بعد سقوط جدار محترق فوقها. وكنت أحس بالخمول، ولم أتمكن من فتح عيني وكأن الموت جعلني جثة هامدة. وفوق الحجاب الموضوع على وجهي، كان سرب من الذباب الأسود والمقرف يطن ويشكل قناعاً كثيفاً. أصابني الإحساس الرهيب بتحلل جسدي في القبر بفعل نهش الديدان؛ غير أن يقظة فكري وإدراكي احتجت على هذا العذاب الأليم، فحركت عضلاتي، وفتحت جفني للتحرر من هذا الكابوس القبري.

وبالجهة الأخرى من السفينة، شاهدت (الفَرّاش) (غايطانو) مقبلاً نحوي وبيده وردة جميلة تبدو نضرة وذات رائحة زكية؛ وقد قطفها هذا الصباح من إحدى حدائق القاهرة القديمة، قبل انطلاق (الجيزة). ولأنها ظلت محمية داخل عنبر السفينة وموضوعة في طين النيل؛ فإنها حافظت على الندى الموجود فوق أوراقها. ومنحني (غايطانو) الوردة باسم رئيس الطباخين الذي أخبرني بأن آثار المعكرونة قد اختفت من الطاولة وأن سعادة المدعوين ينتظرون الأميرة قبل تقديم عجة البيض والسمك.

طبعاً، كانت السخرية باديةً وراء الوردة والكلمات المنقولة، لكن تلك الوردة كانت جميلة

ومنعشة إلى درجة أنني لم أبالِ باليد التي مدتها لي، فأخذتها، ولمست بها جبيني.

وقد أحسن رئيس الطباخين فعلاً بهذه الهدية الرقيقة التي أخرجتني من كابوسي الرهيب. وسارعت بتلبية طلبه، وتوجهت متبوعة بـ(غايطانو) إلى قاعة الطعام.

وعند نزولي الأدراج وجدت العبارة التالية: (Stanza di pranzo) (قاعة الأمير) مكتوبةً في باب يعدّ أكبر من أبواب المقصورات الأخرى. فتحتها لأدخلها، لكن (غايطانو) أخبرني بأن الدكتور والقبطان المحترمين- اللذين يمثلان الجيش (الفرنسي) في مصر- قد اختارا هذه القاعة الموجودة بمقدمة السفينة للنوم؛ وقد كانت من قبل (صالوناً) وقاعة للأكل. وأضاف (الفراش) أن القاعة التي يتناول فيها الخدم طعامهم؛ هيئت لاستقبال سعادتنا، وأشار إلى مدخل الممر الذي توجد به المقصورات قائلاً:

- سنصل من هنا.

ودون أن أجيبه؛ قررت تعرّف مقر إقامة الدكتور والقبطان. دخلت إلى القاعة التي كانت مخصصة للجميع، فاستولى عليها ضيوف (الجيزة) المحبوبون دون أن يزعجوا أنفسهم، كما كان يفعل ضباط (الإمبراطورية) الأولى في البلدان التي يحتلونها.

في هذه القاعة توجد ست نوافذ متوازية وسقف عالٍ وطاولة للكتابة وأرائك واسعة ومرايا يمكن التزين أمامها.

لقد كان مسكن هذين السيدين يثير الحسد. ولن يجادل أحد في كون استيلائهما على هذه القاعة على حساب باقي الركاب الذين كان العديد منهم مرضى، ومن ضمنهم امرأة؛ هو سلوكاً غير لائق، شبه همجي، لن تكفي بلاغة هذين المسافرين لتحويله إلى فعل نبيل.

كانت غرفة طعام الخدم التي قدم فيها الغداء، قبواً داخل عنبر السفينة، يتم بلوغه عبر أدراج متفرقة؛ وتوجد به أريكة من القماش القطني الأصفر والأحمر.

وفي الليل؛ تستخدم للنوم من قِبل خدم (الجيزة)، بما فيهم رئيس المطبخ والترجمان، وهو شخص غريب سأتحدث عنه لا حقاً.

وكان السيد (بولانجي) الذي أصيب بالإغماء؛ ممدَّداً داخل هذا الوكر الشبيه بعش

الحشرات المختفية خلال النهار. ولم تكن هناك نوافذ، بل إن الضوء الوحيد كان ينبعث من الباب المفتوح الذي يتسرب منه أيضاً دخان الدهون المحترقة بالمطبخ. وكانت ريح الجنوب تساعد على انتشار كل روائح المطبخ، حيث يقوم طباخ بذراعين ممتلئتين بالدهْن والدقيق، بتهييء عجة البيض التي تنتظرني.

عبر هذه الرائحة الخانقة؛ نفذت مثل حربة همجي أشعة الشمس الحارقة التي يطن حولها سرب من الذباب المنجذب إلى رائحة اللحم المتعفن. فما يشمئز منه الإنسان يثير الحيوان، وكلما تطور الفكر؛ أصبحت حواسه رقيقة. ولأنني لم أقْوَ على الرائحة القوية للعجَّة (Frittata)؛ فقد تعثرت في الدرج الأخير، وكدت أن أسقط على الأريكة الفظيعة قرب السيد (بولانجي). وأصابتني نوبة حادة من السعال، فصاح (الدكتور) وهو يشير إلى مكان عن يمينه:

- يا للمرأة الضعيفة! اجلسي هنا؛ كي أتمكن من جسّ نبضك.

وأردف (طاربي):

- سأروح للبحث عن دوائك الشافي الذي منحني ساعتين من النوم العادي.

قال ذلك، وشرب على صحتي كأس (الشمبانيا) الذي ناوله إياه (الدكتور). وانحنى علي رئيس الطباخين، وأخذ يروّح عني بمنديله الملطخ بالدهون والنبيذ. فأبعدته بمرفقي، وطلبت منه أن يناولني قُلة، شربت كل الماء الموجود بها. فغمغم (الدكتور) بنبرة مفخمة:

- يا لَلمتهورة! ستلقى حتفها من جراء ذلك.

وكرر القبطان بصوت منخفض:

- متهورة وغريبة الأطوار.

واستدار نحو السيد (سين) بحركات من الوجه تعني ما يلي:

- لا يشرب المرء بهذه الطريقة أمام أناس محترمين.

وأصبح رئيس الطباخين أكثر رقة عندما رأى الوردة بحزامي وقد بدأت تفقد أوراقها.

وعرض على مسامعي المأكولات والخمور التي يمكنها أن تثير شهيتي. وفي تلك الأثناء سمعت نقنقة الدجاج في الأقفاص الموجودة بجوارنا، فقلت له:

– إذا لم أكن متوهمة؛ فهذا الدجاج يبيض.

– بكل تأكيد يا أميرة.

– وإذن، هيئْ لي في الحين قلة ماء بدل الخمرة، وبيضة طرية في طراوة وردتك الجميلة، بدل الجعة ومايونيز سرطان البحر.

وصاح (كميل بيلتان):

– هل تجهلين يا سيدتي أننا نوجد في بلد التّفريخ التلقائي، حيث تفرخ البيضة دونما حاجة إلى حضن الدجاجة؟ ولهذا، فبدل السائل المغذي الذي تنتظرينه؛ يمكن أن تخرج من البيضة رجل كتكوت تمزق حنجرتك.

واحتج رئيس الطباخين على هذه الدُّعابة التي لم يفهمها كلها، وخاطبني قائلاً:

– اهدئي يا سيدتي، فالبيضة ستكون في طراوة الوردة.

وخرجت من هذا الجحْر؛ متبوعة بالسيد (بولانجي)، الذي كان يشكو بعض الحمى، وبـ(أوجين طاربي) الذي أعادت له كؤوس (الشمبانيا) المقدمة من قِبل (الدكتور) كل مخاوفه. فقال لي والدموع في عينيه:

– إن هذا الخائن قد هيَّج آلام عيوني؛ وقراري الأخير هو العودة إلى القاهرة غداً.

وقال السيد (بولانجي):

– سأرافقك! فقد سئمت من (الجيزة) ومن وكيل الخديوي الذي يحكم على الشخص انطلاقاً من ألقابه، بل حتى من ملابسه. وعقَّبت على كلامه قائلة:

– عليك أن تقرَّ أننا إذا ما بقينا بصحة جيدة؛ فستتعامل بحكمة مع هذه السلوكات البئيسة؛ فهي تستفزني مثلك، لكنني لن أيئس. ورغم أنني لست شجاعة بما يكفي؛ فإنني أعدك بالمقاومة عبر اتباع حمية صارمة وصحية.

فرد (بولانجي):

- لكنها ستضيع عبثاً بسبب روائح المرحاض؛ إذ يستحيل النوم بجانبه.

لكنني شجعته قائلة:

- يجب أن نوحد كلمتنا عند أول توقف لإجبار السيد سليمان على إصدار أوامره بتنظيف (الجيزة) وتمكيننا من (الصالون).

- إن مقاومة الظلم والاستغلال ومواجهة أصحاب البدلات العسكرية، هما بمنزلة جنون الحالم والشاعر؛ وستفشلين في مهمتك يا سيدتي. عليك ألا تعتمدي على (بيلتان) ولا على السيد (سين)؛ فالأول لا مبالٍ، والثاني مذعور.

وأضاف (طاربي):

- ونحن مرضى؛ أما أنا؛ فلن أشفي غليل أعدائي بموتي هنا.

لقد كان الرجلان منهكين تحت تأثير المناخ الإفريقي؛ وانتفخ وجههما بسبب لسعات الناموس التي هي بمنزلة عذاب شبيه بما كان يتلقاه معذبو محاكم التفتيش. وها هي ذي الحشرات تطنطن من جديد فوق جروحهما في عز النهار، كما فعلت في الليل. فقلت لـ(طاربي) الذي كان يصفع وجهه أملاً في قتل الناموس المجتمع فوقه:

- عليك أن تضع طبقة من (الغليسرين) على وجهك بسرعة. لكنه أجابني قائلاً:

- للأسف، لقد استنفدت القارورة كلها هذه الليلة. لكنني تغلبت على جلادي بفضلك. فما العمل الآن يا ربات الشعر الحنونات، هل ستسمحْن بأن أُلتَهم حياً؟

ثم أضاف بطريقته المرحة التي رافقتنا على ظهر سفينة (لوموريس):

- سأدفع مئة، بل ألف فرنك ومعها (دارجو)؛ لمن يخرجني من هذه الورطة.

هكذا تحول ألمه إلى سخرية، فقلت له:

- ستحصل على الدواء مجاناً.

وناديت على (غايطانو)، وطلبت منه الذهاب إلى مقصورتي وجلب القارورة منها. فنفَّذ طلبي، وأخذ (طاربي) القارورة منه، ودهن وجهه وعنقه ويديه بالزيت الشافي، وصاح وهو يبتسم؛ والدموع الناجمة عن (الغليسرين) تتساقط من عينيه:

– والآن، ستتراجع هذه الحشرات.

فأضاف (بيلتان) الذي قدم لتوِّه:

– من القرف!

وبعد أن أخذت القارورة من (طاربي) المرِح، ناولتها إلى السيد (بولانجي) قائلة:

– من بعدك، إذا ما بقي فيها شيء.

فقبل شاكراً، وأضاف بمكر:

– لن أستعملها إلا في المساء. ولأنني لست قادراً على المرح؛ فإنني لست مستعداً للتَّرفيه على أي أحد.

وقلت له ملاحظة:

– علينا ألا نحتقر الضحك، فهو يخفف من الألم؛ لأننا لا نضحك عندما نكون سعداء، بل نختلي بأنفسنا.

أرجو من القارئ قَبول هذه التفاصيل البسيطة؛ لأنها تعكس آلامنا بسفينة (الجيزة) والحميمية التي نشأت بين ركابها. وتزداد هذه الحميمية تماسكاً، أو تنقطع فجأة؛ بحسب التعاطف أو النفور القائمين منذ البداية. فغريزة الاندفاع تظل دوماً حقيقية. ونحن نواجه الغريزة بسلوك الاحترام، سواء كعادة أم كتملق؛ والحال أن الاحترام لا يحتاج إلى المشاعر؛ لأن هذه الأخيرة تحدد بما هو أقل داخل الشخص المحبوب.

منذ ركوبي (الجيزة)؛ توقعت الضربات من تحت الحزام التي تنتظرني. أي مودة وأي رعاية وأي سعة صدرٍ يمكن أن ننتظرها من هؤلاء الأشخاص الرسميين الذين جعلتهم وظيفتهم وأمزجتهم خاضعين للمراتب وللمظاهر؟ لقد أدركت خلال مجالستهم على مائدة

الضيوف بالقصر الملكي، طبيعة تفكيرهم الخاضع لوسطهم؛ وهو بالنسبة إلى التفكير الراقي مثل العبودية بالنسبة إلى الحرية. إن العقول التي تتحاور مع الإنسانية، وتستلهم الحقائق الخالدة؛ غير مقبولة عندهم؛ لذلك فإن أي تواصل مع هؤلاء الرَّسميين يعدّ مستفزاً، وكل نقاش معهم هو بمنزلة مخدر، بل هو انتهاك للمسائل المتعلقة بالفن والسياسة. فهم يتوفرون على آراء تعكس وجهة نظر من هو أعلى منهم شأناً؛ ولا يستخدمون سوى كلمات مستعارة؛ لأن عباراتهم لا تكشف عن عمق الذكاء والمشاعر. وبإمكاننا الاعتزال باليابسة واتخاذ مسافة إزاء هؤلاء الأشخاص المزعجين للنفس. لكن، كيف يمكن الابتعاد عنهم على ظهر سفينة نُشاركهم فيها كل ضرورات الحياة؟

لقد أزال لقاء (طاربي) و(بيتان) و(بولانجي) الذي تعاطفت معه سريعاً؛ عبئاً عن كاهلي. وطبعاً فأنا أميز بين هؤلاء الصحفيين الثلاثة، على مستوى المزاج والموهبة. لكنهم يحتلون مكانة خاصة لدي؛ لأنهم يمثلون روح الشباب والحماسة واستقلالية الفكر؛ وسط الجمود الذي كان يتهددني. كانوا ثلاثة أشخاص حيويين، أما الآخرون فهم كائنات محنطة. وأتمنى أن أساهم في تفادي الجو الخانق الذي يحيط بنا نحن الأربعة.

إن المرأة- مهما بلغت من العمر- تظل مخلصة للأمومة، وتحافظ دوماً على شباب القلب الذي يهيئها للمساعدة والدعم والتكرم على كل غريب تلتقيه عن طريق المصادفة؛ فإذا كان مريضاً أو تعيساً؛ فإنها تهتم به كأخ.

قلت لـ(كميل بيلتان) الذي استمر في حركاته المرحة:

- أيها الشاب، عليك أن تكون جدّياً بعض الشيء. ألا ترى أن الوقت قد حان لوضْع حدٍّ لاستغلال هذه الرخويات التي أجبرتنا على تناول الغذاء داخل قبو؟

فرد (بيلتان):

- إن (سين) المسكين لم يستغلنا، فهو ضحية مطيعة وصبورة ومذعورة؛ ويمثل الاتجاه المسالم بالجمعية العمومية الذي يسمح للعنيفين بالسيطرة.

- إنها عبارة مبالغ فيها، لقد تحول السيد (سين) إلى جوقة شرف. وفعلاً فهو- بحضوره

الآن- يدعم ظلم حارسيْ (الإمبراطور).

- هذه صور مجازية كثيرة. لنقل باختصار: إن (الدكتور) والقبطان قد حتَّما علينا باستيلائهما على (صالون) (الجيزة) تناول الغذاء داخل مكان قذر.

فأردفتُ قائلة:

- صحيح أنه مكان منفِّر، وقد تلمست تأثير ذلك الجو النَّتن فينا.

- لقد حرّرت ملتمساً ودّياً، تَمَّ تبنيه- إن صح القول- من قِبل من دعوناهما بالطاغيتين.

وسألته:

- كيف؟ هل قرّرا التخلي لنا عن (الصالون)؟

- نادراً ما سجل التاريخ تنازلاً من هذا القبيل. لقد اختارا المكان، وسيظلان فيه؛ وسواء تم ذلك بإرادتهما أم تم منحه لهما كتشريف، مثلما منح العرش للرجل الطيب (لوي فيليب) (Louis-Philippe)؛ فإننا لن نجني شيئاً من مواجهة واقع قائم نجم عنه حقٌّ في التملك.

وسألته مرّة أخرى:

- هل هذا معناه أننا لن نحصل على (الصالون) غداً؟

فأجاب:

- سنحصل على ما هو أفضل من ذلك. لقد تقرر وضع مائدة الطعام صباحاً ومساء تحت هذه السماء الرائعة، عند الفجر وعند غروب الشمس الإفريقية.

وصاح (طاربي):

- يا له من ملْتَمس! لقد كان عليك المطالبة في الوقت نفسه، بأكثر عذابات الصينيين فظاعة! فعند الزوال، عندما تكون الشمس وسط السماء؛ ستتعرض أجسام الركاب للسعات الذباب حتى الموت.

وأضاف السيد (بولانجي):

– وعند المساء، ستتعرضون للعذاب نفسه مع تنويع للحشرات. حتى من دون تنويع، وهذا هو الأسوأ. ها هو ذا نواح الصباح قد بدأ بالإيقاع نفسه. وإذا ما كنا في حاجة إلى نغمة حزينة للتنفيس عن آلامنا؛ فأنا أقترح أنشودة الصفصاف (لديدمونة).

أردف (طاربي):

– وأنا أقترح أنشودة الذهاب التي ستواكب في الغد توديعي لسفينة (الجيزة)، كما ستخيف الطغاة.

وقال (بيلتان):

– لا أصدق هذا الخروج الخاطئ وهذا التهديد المصطنع.

فرد السيد (بولانجي) بجدية:

– فيما يخصني، أقسم لك يا سيدي أنني سأغادر (الجيزة) هذا المساء إن أمكن.

وقلت له:

– اللهم إلا إذا قمنا قبل ذلك بثورة (راديكالية).

فردَّ على ملاحظتي قائلاً:

– تعلمين يا سيدتي بأنني لست من أنصار الثورات العنيفة، فهي تقوم بأعمال تحاسب عليها آجلاً أو عاجلاً. فلنكنْ معتدلين إذن.

لكنني علقت على كلامه بالقول:

– الاعتدال هو خداع المستضعفين؛ فلا يمكن تحريك العدالة إلا إذا ما تم قلب من يعرقلها. لكن، لنعمل بسرعة على صياغة برنامج عمل، بدل الحديث فقط. وإذا ما قبلته الأغلبية؛ فإن الأقلية ستكون مطالبة بقبوله. وإذن، فإننا نطالب بتنظيف كامل للسفينة؛ من عنبرها إلى ظهرها وتطهير المرحاض وإصلاح مصْفاة الماء لكي نحصل باستمرار على مياه النيل، والعناية التامة بالمقصورات والقضاء على الحشرات بوساطة مختلف الأدوية والمبيدات، وتوفير أقمشة واقية من الحشرات بكل سرير، وملاءات بيضاء ومناشف تستعمل للتنظيف

وكأغطية للطاولات، ويتم تغييرها بانتظام؛ وأن يكون لنا الحق في المراقبة اليومية للمؤونة ولوجبة اليوم حتى لا يتم إطعامنا لحوماً فاسدة وعَطنة، تحت أسماء فاتحة للشهية ومصطنعة. وأخيراً، استعادة صالون (الجيزة) في هذه اللحظة بالذات ونزعه من الضابطين اللذين استوليا عليه.

– سيكون البرنامج رائعاً لو أمكن تطبيقه؛ لكن محاولة تحريك رئيس الطباخين ومساعديه من دون إذن صادر عن أحد ضباط الخديوي ستكون من دون جدوى. أما استرجاع (الصالون)؛ فيمكنك المحاولة، لكنك لن تظفري من الضابط المعني بتنفيذ أمر الإخلاء؛ بعد أن منح القاعة لممثلي الجيش الفرنسي. ولا تنسيْ أننا نوجد في بلد الامتيازات، حيث يعدّ الجاه حقاً مقدساً والمساواة حلماً مجنوناً وأمراً شاذاً يتنافى والتقاليد السياسية والدينية، أي إنه مستحيل التحقُّق. وقال السيد (بولانجي):

–إن السيد (بيلتان) على حق، فنحن لن نحصل على أي شيء بهذه السفينة، ولن يستجيب وكيل الخديوي لطلباتنا؛ لذلك أرى أنه من الأفضل والأريح عدم الجهر بشكاوينا.

وما إن انتهى من كلامه؛ حتى أغمض عينيه، وغطى رأسه بمنديل، وتمدد فوق مقعد من دون حراك. وظهر الرفيقان وكأنهما أحسا بمؤامرتنا. وكانت البهجة بادية على ملامح الطبيب أكثر من ذي قبل، كما أن حركاته كانت لطيفة مثل حركات أمير يسعى إلى امتلاك الشعبية. واقترب منا نحن الثلاثة [(بولانجي) و(طاربي) وأنا]، وجسَّ نبضنا الواحد تلو الآخر. وعلق قائلاً: إن حالتنا أفضل، ثم وصف لنا دواء من الممكن تهييؤه بالمنيا، وهي مدينة مهمة بمصر العليا، يتمنى أن يوجد بها صيدلي. فرد عليه السيد (بولانجي) بجفاء قائلاً:

– سنجده بكل تاكيد عندما نرجع إلى القاهرة بوساطة القطار. فقال (طاربي):

– آمين!

وأضاف (بيلتان):

– إنها فكرة مجنونة.

فأردف (الدكتور):

– ستتبخر بفضل عشاء جيد في الهواء الطلق ونوم هادئ.

واعترضت قائلة:

– إنه وهمٌ مزدوجٌ وخادعٌ.

وعقَّب (طاربي) الذي كانت أشعة الشمس تمنعه من النظر:

– عليك أن تقولي بصراحة: إنها مزْحة مزدوجة.

– لقد طلبت من رئيس الطباخين أن يشرف– من الآن إلى حلول الليل– على تنظيف كل المقصورات وأن يقدم لنا عشاء صحياً ونظيفاً على ظهر (الجيزة).

فقلت ضاحكة:

يا للعجب! إن برنامجك أيها (الدكتور) الطيب هو نفسه الذي اقترحته على هؤلاء السادة، باستثناء نقطة واحدة. وسألني (الدكتور) بنبرة قلقة:

– وهل بإمكاني معرفة نقطة الخلاف هاته؟

– ألم تسمح لك تجربتك الطبية المتبصّرة، بإدراك أن تناول الغذاء تحت الشمس الإفريقية الحارقة عند الزوال وتناول العشاء تحت الندى المصري [دون أن ننسى عذاب الذباب والناموس] سيعرض الجميع لضربات الشمس ولأمراض العيون، وهما آفتان قاتلتان؟ ألم يكن من الأفضل تناول الطعام بغرفة «الأمير» التي دخلتُها مصادفة في الصباح، معتقدة أنني سأجد الركاب متحلقين حول المائدة، لكنني وجدت هذا (الصالون) المهوّى وقد تحول إلى قاعة للدراسة وغرفة للنوم؟

فرد الدكتور (محتجاً) بلهجة صارمة وهو يحاول إقناعي:

– نعم إننا نقيم بهذه القاعة، لكن ذلك لمصلحتكم جميعاً وأنت الأولى يا سيدتي قبل الآخرين؛ رغم اعتقادكم أننا استولينا عليها عنوةً. في البلدان الأجنبية وخصوصاً مصر؛ يعدّ الانتماء إلى الجيش (الفرنسي) أمراً مهيباً، ويجب علينا الحفاظ على هذه الهيبة بمظاهر مميزة، تحظى وحدها بالاحترام في البلدان الإسلامية. وهو ما فكرنا فيه عندما زرنا (الجيزة)،

ووضعنا كتبنا وملابسنا بهذه القاعة التي كان بإمكانها أن تكون مقراً للقائد، لو كان لهذه السفينة البئيسة قائد فعلاً. وإذا ما أردتم الحديث عن استيلاء؛ فإنه لا يتعدى يا سيدتي سلطتنا التي تحميك وباقي الركاب؛ لأن هذه السلطة ظاهرية أكثر منها واقعية، تسمح لنا بإصدار أوامرنا إلى كل خدم (الجيزة)؛ كي يلبوا مطالبكم، قدر الإمكان. وفضلاً عن ذلك، للسهر على صحتكم وراحتكم؛ جعلنا القاعة رهن إشارتكم مدة ساعة أو ساعتين في اليوم. وبإمكانك يا سيدتي الجميلة أن تكتبي مراسلاتك وأن تتزيني أمام المرآة التي هي أكبر من المرآة (الميكروسكوبية) الموجودة بمقصورتك.

– شكراً جزيلاً لك أيها (الدكتور) اللطيف؛ إنني أحب المساواة، ولهذا لن أقبل عروضك؛ فأنا لا أريد أي امتياز، لكنني أضع بين يديك هذا الملتمس (الديموقراطي) المتواضع، وهو أن هذا (الصالون) في ملك الركاب كلهم، ويلزم أن يُعاد إليهم جميعاً.

صدرت عن (الدكتور) ابتسامة ظريفة، تعكس تجربته الطويلة في الغزل، ثم غمغم قائلاً:

آه من النساء! لكمْ هن عنيدات!

وأردفتُ:

– ومخلصات.

وقال القبطان بنبرة مفخَّمة، مدعِّماً رأي صديقه:

– غداً على أكثر تقدير، ستُطرح المسألة على الوكيل المصري الذي سيصدر قراره.

فصاح (بيلتان) وهو يدور برجل واحدة:

– يا للمعجزة!

وكانت نظراته باتجاهي توحي السؤال التالي: هل توقعت بدقة نتائج مجهوداتك غير المجدية؟

وخاطبت الركاب الثلاثة الذين عوَّلتُ على مساعدتهم، وقلت لهم بنبرة هادئة:

– هل يحتج أحدكم على هذا الاقتراح؟

فردّ (طاربي):

– سترين غداً.

وكرر السيد (بولانجي):

– نعم، سنرى غداً. ففعل واحد هو أجدر من مئة كلمة غير موثوق بها.

لكن (بيلتان) الهائج صاح قائلاً:

– أما أنا فأحتج. إنني أحتج على طغيان النيل المثير للغضب على نحو مغاير لطغيان (الإمبراطورية) التي لا أكن لها كما تعلمون أي مودة. لقد وعدونا بأن هذا النهر المستبد سيكون هادئاً؛ أي سيكون في وضع يسمح لنا أن نكتشف بحرية الآثار الموجودة بضفتيه. لكن النزوات التسلطية للنهر حافظت على حصارها للمعابد والمقابر؛ ولقد استمتع بمنعنا من الرحلات الثلاث التي وعدنا بها إلى أهرام الجيزة و(سقارة) و(بردشين). والآن ها هو ذا يسخر منا، بحيث تحول إلى بحيرة ثم إلى محيط. انظروا، إن الفيضانات تبدو من بعيد؛ وحدها قمم النخيل والصوامع تتطلع إلى السماء. فهل بإمكاننا النزول إلى (أبيدوس) أو (دندرة)؟ إني أشك في ذلك، فهذا السفر هو خدعة، اللعنة على النيل الخصب الذي باركته العامة.

وأعجب القبطان بهذا الاستطراد، وقال وهو يتفحص الشاطئ من جهة الجبال الليبية بمنظاره:

– ما زلنا بعيدين عن (أبيدوس) و(دندرة)؛ وربما بلغنا بني سويف هذه الليلة؛ وهو مرفأ صغير سيظهر أمامكم قبل الواحة الخضراء الموجودة بصحراء ليبيا. وتسمى هذه الواحة بالفيوم، وعدد سكانها ستون ألف نسمة، وهم يزرعون أراضيها الخصبة التي تمد القاهرة بالفواكه والأزهار.

ومدينة الفيّوم التي كانت معروفة في القديم تحت اسم مدينة التماسيح Crocodilopolis، توجد على الحدود من الصحراء الليبية؛ وهي المدينة الرئيسية بوسط مصر. وكانت تسمى أيضاً (أرسينوي)؛ وهو اسم أخت (كليوباترا) التي نفتها هذه الملكة، وقتلها (أنطوان) إرضاء لحبيبته الملكة. ومن بين أطلال مدينة (أرسينوي) تجد آثار المتاهة الشهيرة.

وقاطعته قائلة:

- لكنها أقل شهرة من متاهات (كريت) التي ذكرتْها كتب التاريخ وحدها دون غيرها.

- لست مطالبة يا سيدتي بأن تعرفي أن مصر كانت لها متاهتها، وكان لها (الأبيدوس) أيضاً؛ وهما متميزان عما يوجد لدى (الإغريق).

ثم ختم ملاحظته بالقول:

- الحفريات علم ليس في متناول النساء.

وأنهى خطابه المحفوظ عن ظهر قلب حول الفيوم.

وقال السيد (سين) بتواضع جمّ؛ وكان يرمق القبطان بإعجاب:

- يا لك من علاّمة! إنني معجب باتساع معارفك.

فرد القبطان وهو يمطط ساقيه:

إنني أحتاج إلى هذه المعارف؛ بفعل مهنتي كمدرس، فأنا أستاذ بمدرسة عسكرية؛ وقد آليت على نفسي أن أكون دوماً على اطلاع. لقد أصبحت صرامة الامتحانات التي أجريها على تلامذتي نموذجاً يقتدى به.

وخاطبته وأنا أنحني بعض الشيء قائلة:

- هل تعتقد يا سيدي القبطان أن بإمكاننا زيارة أطلال الفيوم التي تهتم بها اهتماماً كبيراً؟

فرد قائلاً:

- إنها غير مدرجة في برنامج الرحلة؛ وعلينا انتظار عدة ساعات؛ لتظهر لنا هذه الأراضي الخصبة بوضوح شديد، بفعل قوة النور وشفافية الهواء.

وكان على حق. فعلى ضفتي النيل الذي اتسع مجراه، ظهرت أمامنا المناظر في تفاصيلها بجلاء تام. من المزروعات إلى الأشجار والمناطق الصحراوية وسلسلة الجبال. وكانت العين تحيط بكل المناظر المترامية على الضفتين والتي لم تتغير رغم اقترابنا منها؛ بسبب الضوء الذي

يغمرها على نحو رائع. ولأنني كنت متيقنة من أنني سأرى المناظر نفسها وتأثيرات الضوء نفسها التي ترسخت في ذاكرتي؛ قررت مغادرة ظهر السفينة. فقد رغبت في الوجود وحدي بمقصورتي؛ بعيدة عن الأصوات اللامبالية أو العدوانية، وعن التناقضات المستفزة والرضا الساخر. فأنا تعودت منذ صغري على وحدة الريف وعلى الخلوة من أجل الدراسة؛ وكنت أشعر خلال أكثر مراحل الشباب حماسة بالحاجة الملحة إلى الانزواء بضع ساعات في اليوم في الصمت والتأمل. إن هذا النظام المريح للروح يعيد لملكاتنا القوة التي أضعفها العالم؛ لذلك أصبح في المراحل المتقدمة من عمري ضرورةً لا غنى عنها. وبفضل وعودي لـ(غايطانو) بمنحه (بقشيشاً) كثيراً، وشروعي في تنفيذ وعدي في الصباح؛ قام هذا الأخير بتنظيف مقصورتي. ولم أرتح كثيراً لتلك النظافة الظاهرة لكن غير الحقيقية؛ والتي لا يمكن أن أنتظر من (غايطانو) إنجاز ما هو أفضل منها. وبعد أن شربت ماء بارداً من القلة، وغسلت وجهي؛ جلست فوق فراشي، وأغمضت عيني. لكن أسراب الذباب والناموس بدأت تطنطن حول أذني؛ وبدا أن هذه الحشرات قد ملأت المقصورة حتى كادت تخنقني. فوضعت الرداء لكي لا أرى ولا أسمع شيئاً. وأدركت أن لا أمل في الحصول على علاج فعال أو في كسب مودة صادقة من رفاقي بسفينة (الجيزة)؛ والذين كان بعضهم مريضاً والبعض الآخر عدوانياً؛ وعلي أن أستمد قوتي المعنوية من ذاتي لدعم قوتي الجسدية. هكذا قررت عدم إنهاك نفسي في الاحتجاجات غير المجدية على كل ما يصدم فكري، ويجرح روحي، واستغلال لحظات اليقظة الذهنية المنفلتة من آلامي لكتابة انطباعاتي حول السفر.

وكنت مشتاقة إلى العمل وأنا أقول لنفسي: إنه لمن المخجل لي أن يتوفر القبطان على معلومات دقيقة حول مصر العليا، أكثر جاذبية من الروايات المتنوعة الناجمة عن مخيلتي. لقد أثار خطاب هذا الرجل الفصيح حول الفيوم اهتمامي دون أن يؤثر في. وأضحكتني هذه الفكرة، فالوصف المنمَّق بلمحة تاريخية و(أركيولوجية) يمكن أن يوجد في أي دليل للسفر؛ ويتلخص فضل القبطان في حفظه عن ظهر قلب.

أحسست باستحالة النوم دون الجرعة التي خصصتها لنفسي في الليل، كما شعرت بالاشمئزاز من التعرض- تحت الضوء- للسعات الحشرات المطنطنة فوق رأسي. وفتحت عيني وأنا عازمة على مقاومة هذه الأخيرة؛ وقلت لنفسي: إنه من الأجدر والأشجع محاربة

الإعياء والإبقاء على العقل في حالة تيقُّظ. وكان ذلك هو سلاحي الهجومي والدفاعي الوحيد في إطار الوضع البئيس الذي أوجد فيه.

وشرعت في تصفُّح «دليل المدعوين» و«المرشد إلى مصر»، لكن هذين الدليلين لم يذكرا إلا الشيء القليل عن الفيوم الخصبة التي تبدو خضراء على خريطة ضفاف النيل، المرسومة بالدليل. وتساءلت في نفسي: أين عثر القبطان على تلك المعلومات الدقيقة الناجمة عن قراءات حديثة العهد؟ وفتحت كتاب «رحلة إلى مصر وسورية» لـ(فولني) الذي كان دقيقاً وصادقاً في وصفه، فوجدت الفيوم تكاد تكون مذكورة. وقرأت في الصفحات المخصصة لفيضانات الدلتا ما يلي: «يصل المنحدر الكبير المسمى زهرة من دون ماء والذي كان هو المجرى القديم للنيل إلى الفيوم». واليوم، فإن هذه الأخيرة توجد على بعد سبعة أميال أو ثمانية من المجرى الجديد للنيل. ورغم أن هذه المعطيات كانت مكملة للمعلومات التاريخية والوصفية للقبطان، فإنها لم تسمح لي بتحديد المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات. وشعرت برغبة عارمة في حك وجهي، فتوقفت عن البحث؛ إذ كيف يمكنني القراءة والتفكير؟ وكيف يمكن مقاومة هذا العذاب الذي لا يتوقف؟ ورميت الكتب بعصبية، ومددت يدي لأخذ إحدى القوارير. فلاحظت أن (غايطانو) وضعها فوق معجم (بويي) (Bouillet) الضخم، الموجود بركن من أركان المقصورة. وأزلت القوارير، ثم بذلت مجهوداً كبيراً لحمل المجلد الثقيل وأنا أكرر في نفسي لفظة: الفيوم! الفيوم!

ولم أستطع كبت بهجتي كامرأة مناهضة لكل من يدعي العلم وكتلميذة فوضوية، وأنا أجد بالمعجم المعلومات الرائعة للقبطان حول الفيوم، مسطرة كلمةً كلمةً. فيا أيها العسكري (البيدق) أو بالأحرى أيها (البيْدق) المزدوج، ها هو ذا علمك المنشور! أنت لست سوى مردِّدٍ لما يحتويه مؤلف كوني! وبلاغتك الأدبية تساوي البلاغة السياسية لصديقك (الدكتور)، وأنا أعرضكما على السيد (سين) المعجب بكما، وأتخلص من جَوِّكما. ذلك أن السخرية هي أفضل درع ضد ضربات البلادة الإنسانية.

وأنا أغادر مقصورتي مبتسمة ومرتاحة؛ التقيت (طاربي) بباب غرفته. فقال لي بنبرة اليائس:

- ملامحك تشهد على أنك نمت رغم تلوث المرحاض.

لكنني أجبته قائلة:

- لم يغمض لي جفن؛ كل ما هنالك هو أنني استمتعت بلحظات من السكينة والعزلة، أنعشت فكري؛ وها أنذا مستعدةٌ لمواجهة الصعاب.

ووجدت كل الركاب على ظهر السفينة. فاخترت مكاناً بعيداً، وجلست على مقعد لأكتب بعض الملاحظات في مذكرتي. وجاء (الدكتور)؛ ليستفسر عن حالتي الصحية، فقلت له:

- إن الحالة الذهنية والمعنوية جيدة، لكن هناك التهاب بحلقي، لذلك قررت التوقف عن الكلام.

- إنه قرار حكيم يدعمه كل الأطباء، إذ لا شيء أنجع لالتهابات البلعوم من الصمت؛ وإذا كنت لم ألح على هذه المسألة بوصفي طبيباً؛ فلأنني أشعر وأنا أستمع إليك يا سيدتي بمتعة أنانية فرضها علي انتمائي إلى الطبقة الراقية.

فقلت له وأنا أتظاهر بالسعال:

- إنه تقريظ همجي رغم لطفه، وستجبرني على الكلام، فابتعد عني أيها الغاوي.

وأبعدته بحركة مستعطفة، فرد علي بإشارة تعني «نامي». لكن ما إن رآني أكتب بسرعة وباهتمام؛ حتى بان عليه القلق، وذهب للتشاور مع القبطان الذي كان يمسك منظاره بيد ودليله باليد الأخرى، وكان هذا الرجل القصير يتحرك بين جانبي السفينة؛ مستعملاً المنظار لرؤية الضفتين، باحثاً في الدليل عن أسماء الجبال والقرى القليلة التي تبدو صوامعها. والحال أن الدليل شحيح على مستوى التفاصيل، فهو يكتفي بالإشارة إلى أهم مدن مصر العليا التي تتوقف بها السفن العابرة للنيل.

وصاح الرجل المتعالم:

- يا له من دليل ناقص! إنني سأخبر جمعية الجغرافيا بثغراته.

وابتسمت لهذه الملاحظة. ولأن القبطان اعتقد أنني متفقة معه؛ ولكي يعرف ما أكتبه دون

اعتماد على دليل، اقترب مني متسائلاً، وقدم لي منظاره مؤكداً أنه يسمح لي بتدقيق ملاحظاتي الطبوغرافية التي سأنشرها من دون شك. فقلت له بصوت خفيض:

– إنني أكتفي الآن بتسجيل بعض رؤوس الأقلام، تخص معطيات (سيكولوجية) ووصفية، سأقوم بتفصيل القول فيها لاحقاً. أما الأولى فتستلهم (لابروييرِ) (La Bruyere)، وأما الثانية فتستعين بمعجم (بويي) المهم.

ورد علي القبطان دون أن يرف له جفن:

– إن تصفح هذا النوع من المعاجم كافٍ لمن لم يقم بدراسات متخصصة.

وأمام هذا الردّ الجريء، نسيت كطفل مشاكس كل قراراتي المتخذة حول الحكمة والصمت؛ وصحت في وجهه قائلة:

– أي نعم! فما قلته كان صحيحاً إلى درجة أنني اضطررت بسبب جهلي بالفيوم إلى الاستعانة بالوصف الجذاب الموجود لدى (بويي) الذي لا يمكن الاعتراض عليه.

فقفز القبطان في مكانه وكأن أفعى لدغته؛ لكنه أخفى مذلَّته بسرعة، وقدم لي منظاره من جديد، كي أرى الجزر العائمة التي نقترب منها، فقلت له:

– أشكرك، فأنا مديدة البصر، وهو ما يمكنني من رؤية الجواميس والجمال التي ترعى من بعيد؛ تحت أشجار النخيل.

وابتعد مُكْرهاً، بعد أن حياني. وندمت على سخريتي غير اللائقة تجاهه؛ فقد سخرت أسلحتي دون جدوى، وخلقت عدواً سينتهز أول فرصة لإزعاجي. وبخصوص هذه الواقعة، سجلت في مذكرتي ما يلي:

«إن الحقيقة حول أخلاقيات هذا الزمن لن تكتب إلا للأجيال اللاحقة. فالويل للكاتب الجريء الذي يصف عيوب هذا المجتمع الذي أفسدته (الإمبراطورية) أو مثالبه، حيث أصبح رخواً وليناً تجاه الشرف ومنطوياً على نفسه كلما مست مصالحه وغروره. ولا يؤدي كشف نذالة شخص معاصر لك أو بلادته إلى التعرض لحقده فقط، بل أيضاً إلى حقد أمثاله الذين ما إن يشعروا بأنك عنيتهم حتى يجعلوك تؤدي الثمن باهظاً.

أنت وحيد، وهم جماعة، كما أنهم يمتلكون القوة الوحشية ووسائل الدعاية وكل ما يدعم مواقفهم. هكذا يطلقون حيواناتهم المفترسة عليك، والمتمثلة في النميمة والاحتقار اللذين يتولد منهما الفقر والتجاهل؛ أي الاحتضار المزدوج للكاتب. وإذا ما كان هذا الأخير امرأة؛ فإنها تمس في أعمق مشاعرها وفي أنفتها. لكن ما العمل إذن؟ أليس من الجبن طأطأة الرأس والضمير وإخصاء الملكات؛ بحيث يصبح المرء شبيهاً بعبد أو خِصْي؟

ومهما يكن؛ عليك أن تكتبي وأن تنشري احتجاجاتك، لكن عليك أن تصمتي أيضاً أمام ما يستفزك! فما الفائدة من الصراعات الشفوية؟ اصمتي، واستحضري دوماً هذا المثال العربي الجميل: «الصمت فضيلة». عليك أن تنمي ذهنك وأن تسمحي له بالعطاء داخل كتبك. وإذا ما أثرت هذه الكتب في القارئ؛ فإن نتائجها بالنسبة إلى الحقيقة ستكون أفضل من نتائج صراعاتك غير المجدية». وبعد تدوين هذه التأملات؛ شعرت بالارتياح، وانزويت داخل صمت هادئ.

الفصل العاشر

لم تسمح لنا مياه النيل بالتوقف بالمحطات الأولى الثلاث المحدّدة بـ«دليل المدعوين»، مناظر عظيمة من الضفتين، أول غروب للشمس على النهر، عشاء بالهواء الطلق، الذباب والناموس، توقف قصير ببني سويف.

كان أسطولنا الصغير يصعد النيل بسرعة، وكانت الفيضانات لا تسمح بزيارة المعابد والمقابر. وبلغ مني التعب حداً إلى درجة أنني ابتهجت لمنظر النهر العظيم الذي أصبح بمنزلة حاجز يجبرنا على تأمل اللوحة المحيطة بنا دون حراك. إن الآثار الفنية نفسها، مثل آثار مصر القديمة الخالدة؛ لا يمكنها أن تولِّد في النفس ذلك الانفعال العظيم والنابض إن صح القول، الناجم عن منظر طبيعي. اتسع النيل، وأصبح مثل بحيرة شاسعة توجد بها جزر عائمة، ترعى فيها الجواميس والجمال، أما الفلاحون الذين تسلقوا النخيل؛ فهم منهمكون في قطع عراجين النخيل الممتلئة بالتمر الأصهب.

ومن جهة الجبال العربية، بدا المنظر أكثر جمالاً، حيث انتصبت صخور عظيمة، مشكلة زوايا قائمة متراصة وكأنها بنيت من قِبل العمالقة لحماية الصحراء الشاسعة الممتدة حتى البحر الأحمر. أما من جهة السلسلة الليبية؛ فإن الجبال تبدو بعيدة والصحراء أقرب إلى الضفة. وهناك منطقة شاسعة مزروعة، يشكل الفيوم بداخلها النقطة الأكثر خصوبة. ومن حولي، كان الركاب يعلقون على هذا المنظر الرائع عادّين أن عيبه في رتابته؛ إذ لا ترى سوى الجبال العارية والنخيل البادي في الأفق والجواميس أو النعاج التي ترعى قرب أكواخ بئيسة مبنية من طين النيل، وترتفع وسطها صومعة مرتفعة نحو سماء صافية. فليس هناك أي تنوع ولا أي مفاجأة في الأفق. وكانت السفن تعبر النهر لساعات دون أن يطرأ أي تغيير على الضفتين.

لكن المعبرين عن هذا الرأي ينسون التأثير السحري للنور المصري. فعندما توشك الشمس على المغيب، وترسل أشعتها الأرجوانية على الضفة الغربية، نعتقد وكأن دماء صفراء ووردية تتدفق فوق تلك المساحة الشاسعة. وتبدو كرتها الملتهبة كحريق وسط السماء الزرقاء الملونة مثل مياه بحيرة (سويسرية). وبقيت مشدوهة أمام أول غروب للشمس بمصر العليا وكأنني أسيرة الإعجاب والحب. وكانت الأرض ترتعش في تلك اللحظة؛ من العشب إلى الجبال الضخمة حيث كان كل شيء ينبض تحت أشعتها.

نعم، الأرض تحيا، فلها روح تتواصل مع أرواحنا، وتستوعبها دون أن تفنيها. ونحن نساهم في إخصابها وإظهار جمالها وولادتها الخالدة. كما نرى عبر ضوئها اللامع واللطيف

الأرواح المحبوبة التي اختفت والتي مازالت أشعتها تدفئنا وتلاطفنا. إنها تدعونا وتنتظرنا في المكان المغري الذي تتعاقب عليه الأجيال؛ ذلك أن الأرواح تنبثق منه، أو تصعد إليه باستمرار.

وانغمست في حلمي؛ بعد أن غطست رأسي- إن صح التعبير- داخل الوهج السائل للغروب الذي يتجمَّع في الأفق ككتلة أرجوانية، في حين تنعكس الصفائح الذهبية على النهر، وتبرز النجوم الأولى في الجهة الشرقية من السماء. ولم أنتبه إلى الحركة الدؤوب عند مؤخرة (الجيزة)، فقد كان (غايطانو) يهيئ السفرة تحت الخيمة وهو يردد لحن (الترافياطا). وفي الآن نفسه، كان ملاحان عربيان قد شرعا في أداء صلاتهما باتجاه الشرق. أخبرني (الفرّاش) بأن العشاء جاهز، لكنني لم أعره اهتماماً؛ بسبب استغراقي في التأمل. وجاء (الدكتور) الظريف، وقدم لي ذراعه قائلاً:

- هيا يا سيدتي، إننا سنتناول طعام العشاء بالهواء الطلق. فأجبته بصوت خفيض:

- يمكننا على الأقل الاستمتاع بهذا المنظر الرائع.

وما إن جلسنا حتى تعرضنا لهجمات أسراب الذباب، التي كانت تتساقط فوق صحون اللحم وداخل وعاء الحساء، وتلتصق بشفاهنا وعيوننا. وازداد الأمر سوءاً عندما وضع مصباحان زيتيان فوق الطاولة، حيث أحاطت بهما أسراب من الناموس؛ واضطررنا إلى حجب وجوهنا باستثناء فتحة للأكل والشرب. ومع ذلك، فإن هذه الفتحة كانت كافية لمعذبينا للاستمرار في مناوشتنا خلال فترة العشاء برمتها. واختصرت هذا الأكل المزعج؛ مكتفية بما حددته كحمية، أما السيدان (بولانجي) و(طاربي) فقد اكتفيا بشرب شيء من نبيذ (البوردو) وبعض جرعات من الحساء؛ ويا له من حساء، فقد كان ممتلئاً بالدهون وفاقداً للونه ومرصعاً بالذباب!

كان السيد (بولانجي) من أول الواقفين، وخاطبني قائلاً:

- لم يعد لي صبر على البقاء هنا، فقد أكد لي الربان أننا سنصل إلى بني سويف في بضع ساعات. وإذا ما كانت سكة الحديد تمر منها؛ فإنني لن أنتظر الوصول إلى المنيا لتوديعكم.

وزفر (أوجين طاربي) معبراً عن الأسف نفسه. وراحا معاً بعد أن غطيا رأسيهما؛ للجلوس بأحد المقاعد.

ومن جانبي، تركت الرفاق الآخرين الأكثر صلابة، وهم يشربون (الشمبانيا) و(الكونياك) والقهوة، ويدخنون (السيجارة)؛ وانزويت لأتابع أحلامي. كانت الأشعة الأخيرة للشمس قد تبددت في الهواء؛ تاركة المكان مباشرة بعد الغروب لتلألؤ الأضواء في السماء. وكانت النجوم قد غمرتها بأضوائها وكأن مجرة تمددت على طول المساحة المرئية. وسمحت هذه الأضواء بتيسير عبور الأسطول الصغير للنهر. ولأنه لم يكن هناك أي تيار خطر، حتى بني سويف؛ فقد تقرر التوقف عند هذا الميناء. وبقيت ساعة أخرى فوق ظهر السفينة وأنا أتابع النجوم اللامعة التي بدت لي ضخمة. وفجأة بدأت أرتعش وكأنني أخذت حماماً مثلجاً؛ إذ إن ملابسي أصبحت مبتلة بفعل الندى. فنهضت مرتعبة من إمكانية إصابتي بالحمى أو بمرض العيون. وحاولت النوم بفراشي المتسخ بعد أن شربت جرعة من الشراب المخصص لهذا الغرض. وعند الفجر؛ استفقت بسبب الوقوف المفاجئ لسفينة (الجيزة) ومناداة الملاحين بعضهم لبعض بالسفن الأخرى. وكنا قد بلغنا بني سويف، فارتديت ملابسي بسرعة، وصعدت إلى ظهر السفينة حيث وجدت الترجمان الذي اقترح علي النزول إلى اليابسة. وعلى عكس ملامح ترجماني بالقاهرة الذي كان لطيفاً؛ فإن ملامح هذا الشخص كانت مريبة.

كان شاباً يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة. عليه ملامح المكر والوقاحة والنذالة. وكان يرتدي سترة سوداء بالية، تركها له أحد (الأوربيين). وكرر انحناءه وتحياته المعبرة عن إخلاصه لي قائلاً:

- إذ ما أرادت سعادتك زيارة بني سويف؛ فلتسمح لي بأن أمد لها ذراعي كي تصل إلى الضفة؛ وسنجد هناك جحشاً وديعاً يمكن لسيدتي أن تركبه دون عناء؛ حتى تصل إلى السوق، حيث يمكن لسعادتك التسوق. ولم يخطر ببالي وجود سوق في هذه القرية المصرية، فبالأحرى التسوُّق بها. وكان فلاحون بؤساء وأطفال عراة يسرعون الخطا على الشاطئ. ولأنني كنت أريد امتحان قوتي ورؤية قرية عربية، فقد اتكأت بيد على مظلتي، ووضعت

الأخرى على كتف الترجمان الذي يمشي أمامي، ومررت فوق اللوحة الخشبية التي تربط ظهر السفينة بالشاطئ. وكان الترجمان يحمل عصا، يستعملها مثل (الكرباج) لتهديد الأطفال المحيطين بنا، والذين كانوا يطلبون (البقشيش) في الوقت ذاته الذي يساعدون فيه الآباء والأمهات على حمل شحنات من الفحم إلى السفن.

منعت الترجمان من معاملة هؤلاء البؤساء بعنف قائلة:

- إنهم مثلك.

فردّ علي بنبرة غاضبة ومغرورة:

- مثلي؟ اعلمي يا سيدتي بأنني مسيحي. فأنا من عرق (فرنسي)! وقد تخرجت في مدرسة الإخوان. وأنا متعلم! فكيف أكون شبيهاً بهؤلاء الحيوانات من أبناء الفلاحين؟ كلا يا سيدتي، إن من حقي ضربهم. وقد تم تعميدي تحت اسم أحد أشهر القسس المسيحيين.

-لا يهمني هذيانك! فأنا أمنعك من ضرب هذه الكائنات البئيسة التي أعدّها أفضل منك.

فردَّ علي وهو يحملق فيَّ بوقاحة:

- ربما كانت السيدة مسلمة.

ولم أجبْه، بل شرعت في توزيع شيء من (البقشيش) على هؤلاء الفلاحين الصغار. وفجأة ظهر الطمع على وجه الترجمان، فمد إلي يده الجشعة، وقال:

- أتمنى ألا تنساني سعادتك، فأنا أعيل أباً وثلاثة إخوة.

فقلت له:

- فيما بعد، ستكافأ على خدماتك عند نهاية السفر.

وتابعت سيري إلى الأمام؛ رافضة الجحش الذي قدمه لي أحد العرب. وكان السوق موجوداً قرب ضفة النيل. كادت الشمس أن تشرق، ونشرت أشعتها الذهبية، فتنفست هواء الصباح المنعش باستمتاع. ولم أشترِ من (البازار) سوى قلتين من الطين الرمادي؛ لأن كل

رغبتي هي الإكثار من الماء داخل مقصورتي؛ بغية تنظيفها وترطيب الجو بداخلها. وبحثت عن قماش موصلي أو عن نسيج قطني لصنع غطاء يقي الوجه من الحشرات، لكن من دون جدوى. ورجعت إلى (الجيزة) أقل إنهاكاً مما توقعت. وعند الساعة التاسعة صباحاً غادرنا بني سويف. وتراءى لنا المنظر الطبيعي من الضفتين، في بهائه كما البارحة؛ وقد ازداد جمالاً بمرور أسراب الطيور. هكذا، شاهدنا مجموعة من البط تسبح بجوانب النهر وأسراباً من الحمام تغادر أبراجها تحط على ضفافه، وطيور السمان [السلوى] التوارتية والأسطورية التي وهبها الله لنبيه موسى لإطعام الإسرائيليين الجائعين الذين قطعوا الصحراء قبل بلوغ النيل. وفي تناغم عظمة المنظر، كانت هناك بجعات بيضاء، جاثمة على صخور ناتئة بجوار النهر، تغطس عنقها الطويل في الماء الذي يتسرب عبر منقارها المفتوح. وحدق فينا عقاب من أعلى صخرة بالجبال العربية، وطار فجأة؛ ناشراً جناحيه كمروحة داكنة. وسمعنا طلقة نارية من بندقية، فظهر عقابان آخران وكأنهما يريدان إنقاذ الابن أو الأخ المهدَّد. وبعد أن دارت الطيور الثلاثة في الهواء نكاية في الصيادين؛ توجهت نحو الجبال الليبية.

وارتفعت الحرارة مع مرور الساعات، كما أن النور ازداد توهجاً، وأصبح يبرز كل الأشياء البعيدة والدقيقة. وكنا أمام لوحات رائعة في مناظرها العامة ومثيرة في تفاصيلها الدقيقة.

كان غروب الشمس أروع من البارحة، بحيث شاهدنا ما يشبه بركة من الدم الفائر الذي تحركه آخر تشنجات ضحايا مذبحة ما؛ وبدا وكأن غيوماً حمراء وبنفسجية تتساقط فوق بعضها، فتجسد من خلال تصادمها هيئات غريبة لتنانين مجنحة بأذيال ملتهبة وعربات متوهجة تحمل أنبياء بلحي نارية تلامس مياه النيل ورؤوس براقة ونماذج من أبي الهول بأجسام من الياقوت، تتحرك وتجري؛ نكاية في ثباتها الأسطوري.

ظلت هذه الأشكال ترتسم وتتوالى بسرعة كبيرة؛ وسط الفضاء الشاسع والهادئ الذي لا يمكن الإحاطة به إلا بالعين المنتشية لشاعر أو لملهم. وما إن تغيب؛ حتى تعود بنا الذاكرة إلى رؤى التوراة، وكيف حصلت. فقد استلهمها موسى لتخويف الشعب اليهودي وإملاء قوانينه المستبدة على هذا الشعب[1]؛ كما أن المسيحية- وهي اليهودية المعدلة من قِبل المسيح-

(1) تصف الكاتبة هنا صورة موسى التي ارتسمت في مخيلتها من جراء قراءة أساطير (العهد القديم)، وهو ـ بلا ريب ـ غير النبي موسى عليه السلام الذي يؤمن به المسلمون!وكذلك حديثها عن المسيحية؛ فهي مسيحية (بولس)، لا

تشددت في مراحلها الأولى، داخل مآثر طيبة، حيث استلهمت ممارسة جلد الجسد الرهيبة التي ظلت مقترنة بالتعذيب الديني إلى حدود عصر النهضة.

وفي وقتنا الحالي الذي تخلّص مما هو غرائبي والذي أصبحت تهيمن فيه المشاعر الإنسانية، توجد مرحلتان متميزتان فقط في حياة الإنسان، ينجذب فيهما إلى السمو البراق لهذه الطبيعة الممتلئة عظمة وقسوة. إنها الفترة التي تقوم فيها بعض النفوس (بعضها فقط للأسف، نفوس متميزة واستثنائية) باختزال حبها الوحيد في احتواء كائن آخر، وكأنها السعادة الوحيدة التي تستحق أن تعاش. وكذا الانزواء معاً داخل معزل يعيش فيه النساك، وينغمسون في تأملات غبية، معتقدين أنهم يمجدون بزهدهم البليد المسيحَ، هذا الإله المتسامح الذي جعلوا منه إلهاً همجياً[1]. ولأن هاتين الروحين استنارتا بسكينة الحب؛ فإنهما ستعرفان إشراقات الحواس والعقل؛ فالحب الكبير ينهل من اللامتناهي. ويتعيّن الكشف معاً عن التاريخ المبهم للأرض ومطالبة العلوم بإعلان ما اكتشفته في العصور السابقة على ظهور الكتابة، حيث ترك الإنسان آثاراً خلدت بعده. ويجب القيام بدراسات عميقة في مجال (الجيولوجيا) والتاريخ و(الأركيولوجيا)، ليس بغرض التَّعالم؛ لكن لكي يقول المرء كل مساء في أثناء لحظة الانبهار أمام هذه الأديان التي مرت وهذه (الإمبراطوريات) التي لا تحصى والتي دفن رمادها في النيل: «لاشيء حقيقي وخالد باستثناء الحب». والمقصود به الحب الكامل والصادق داخل الطبيعة التي ولدته، وأرضعته، وعملت على تجديده؛ فهو ليس أنانية مقسمة على اثنين كما قالت امرأة فصيحة شلت مشاعرها الدنيوية المصطنعة؛ المشاعر اتجاه الطبيعة. إنه الحب الذي تخلص من كل الإكراهات، والذي أصبح حراً وفخوراً وبهياً، حيث ينهل من كل متعة روحية وجسدية كل ما يجعله مخلصاً. إن تعاطفه جماعي، وحنانه منقذ، وحلمه اللطيف الذي لا علاقة له بالأنانية؛ ينتشر في هذه الصحراء المأهولة بروحين سعيدتين تصدُر عنهما أفعال خيرة وعادلة وأخلاقية من أجل سلالة العبيد والمحرومين. وأن يكون المرء سعيداً وذكياً؛ معناه أن يكون طيباً وحنوناً. لنحب، لنحب إذن. ولنلهم الآخرين الذين تشع عليهم أنوار هذا الحب الجميل والعظيم كي يعبدوه! ذلك هو حلم الروح في مرحلة الشباب؛ ويمكنها

مسيحية عيسى عليه السلام. (المحرر).

(1) هذا من وجهة نظر الكاتبة كما هو واضح. (المحرر).

أن تحققه لو دعمتها الروح الأخرى. كما أنها- بتحديها للعناصر- يمكنها أن تتغلب عليها بإرادتها وصبرها؛ لأنها اكتسبت الإيمان، والمقصود به الإيمان الحقيقي والإنساني بالحب الذي يعدّ هدفه أسمى وألطف وأصدق من إيمان المسيحيين المتوحدين. أما المراحل الأخرى التي انغمرت من سمائها الإفريقية الفظائع إلى جانب الأضواء والتي يمكن للروح أن تتلافاها، فهي مراحل الانحطاط التي حدثت عندما كانت هذه الروح المغدورة والمحبطة تسعى إلى الابتعاد عنها والانزواء للمّ جراحها؛ وهو انعزال قاسٍ من أجل تهدئة هذه الروح المكلومة.

لكن خيبات الأمل التي تم الشعور بها في حالة الزهد؛ جعلها صلبة أمام رعب العناصر والوحوش. فماذا تعني عواصف الخماسين التي تمزج بين الأجسام المنهكة ورمال الصحراء لهذه الروح الرمادية؟ وأي خوف سيصدر عنها عند سماع أصوات بنات آوى وهي التي قاومت زئير الأهواء الأكثر قساوة من الحيوانات المفترسة؟ وهل سموم الأفاعي المخفية بحجارة المعابد والمقابر، أكثر فتكاً من السموم التي غمرتها؟ إن كتل (الغرانيت) الحمراء التي تبدو كأنها مكونة من أجساد متراكمة منذ قرون؛ قد تكون مسكناً لهذه الروح، وستنتظر فيها الراحة الخالدة.

كانت تلك هي الأفكار التي راودتني ذلك المساء، وأنا أتأمل كرة الشمس الملتهبة وسط السماء قبل اختفائها. ووددتُ لو أنني انحنيت فوق هذه الكتلة الجهنمية التي انبثقت منها هلوسات الزهاد. وأتذكر أن الشعور نفسه انتابني في إحدى الأمسيات وأنا فوق قمة بركان (فيزوف) (Vesuve) بـ(إيطاليا)، حيث انحنيت فوق فوهته النارية، وبلغت مسامعي انفجاراته الداخلية، فاستسلمت لفكرة الخلاص التي تثيرني، لولا ذراع المرشد القوية التي أبعدتني بعنف عن الهوة.

كانت كل أضواء الغروب متكتّلة، فشعرت بها جاثمة على صدري مثل أحجار (الغرانيت) الدامية التي صنع منها المصريون قبورهم. وأحسست بأنني منسية ومسجونة مثل مومياء داخل قبرها؛ ولكي لا أنساق مع رؤيتي، قررت الانضمام إلى رفاق السفر المتحلقين حول المائدة. وصدرت عن القبطان حركة انزعاج قبل أن ينعتني بصاحبة المزاج العكر. فأجبته بصوت مبحوح بأن فكرته مهمة، لكنني لن أستطيع إجابته تنفيذاً لأوامر (الدكتور).

وكان جو العشاء كئيباً رغم محاولات (كميل بيلتان) إدخال بعض المرح عليه. وظهر السيد (بولانجي) لفترة وجيزة من أجل توديعنا، حيث قرر النزول بالمنيا التي سنصل إليها ليلاً. وقال (أوجين طاربي) الشيء نفسه، لكن من دون عبارات نائحة، مما أكد لي أن قراره كان نهائياً. وحاول (الدكتور) والقبطان ثنيهُما عن هذا القرار بكل ما أوتيا من فصاحة، وأقسما أن (الجيزة) ستنظف تماماً عند الصباح.

وأضاف الدكتور مبرزاً ظرفاً كبيراً مختوماً بالأحمر:

– لقد كتبت قبل قليل طلباً لمقابلة سليمان (بيه)، وكيل الخديوي في الغد؛ وستحمل إليه رسالتي بوساطة (البحيرة)، عند وصولنا إلى المنيا؛ كما طلبت منه تحديد الساعة التي يمكنني أن أقدم له فيها طلباتكم المعقولة.

فعلقت قائلة:

– سنذهب جميعاً إلى هذا الموعد.

واعترض القبطان قائلاً:

– ألا تثقون بنا إذن؟

وأضاف (الدكتور):

– ثقوا بي، من الأفضل الذهاب إلى النوم الآن. عليكم ألا تعرضوا أنفسكم بتهور لندى الصباح؛ سنتكلم مع الوكيل المصري باسم الجميع؛ بصرامة أكبر مما يمكن لامرأة أن تفعله.

وتدخل السيد (سين) المستكين قائلاً:

–هذا هو عين العقل.

وابتسمت إثْر ذلك وأنا مصممة العزم على النهوض في الفجر. عندها ذهبت إلى غرفتي ونمت ساعة أو ساعتين من دون ارتياح؛ ولم آخذ جرعتي المخدرة مخافة أن أنهض متأخرة وألا أحضر المقابلة.

وعند منتصف الليل، أدركت من خلال الوقوف المفاجئ للسفينة أننا وصلنا إلى المنيا.

ومن النافذة شاهدت منازل على ضفة النيل، تكاد تبدو تحت نور النجوم. نهضت من النوم، وارتديت ملابسي، وغطيت جسدي كله بمعطف طويل بقلنسوة؛ وتناهت إلى سمعي أصواتٌ بالممر المضاء؛ وفتحت الباب، فوجدت أمامي السيدين (طاربي) و(بولانجي) اللذين كانا يأمران الخدم بحمل حقائبهما إلى فوق. وناولني السيد (بولانجي) قارورة (الغليسرين)؛ شاكراً إياي على نيتي الطيبة في مساعدته. وحاول (أوجين طاربي) إقناعي للمرة الأخيرة بالعودة إلى القاهرة. وظهر (كميل بيلتان) بغليونه الطويل، وتهكم كعادته من آلامنا بطريقته المرحة. أما السيد (سين)، الشاحب شحوباً، والذي كان يضع قبعة قطنية فوق رأسه؛ فقد فتح باب غرفته، وتساءل بحسرة:

- ماذا؟ هل طلع الفجر أيها السادة؟ للأسف، لقد قضيت ليلة بيضاء مرّة أخرى.

فعقبت عليه قائلة:

- عليك أن تقول ليلة مطلية بالأبيض المنعكس على محياك.

كنت أشعر بقلق كبير، فأردت مقاومته بالسخرية، لكن الرجل الوديع أجابني بالقول:

- أيتها العنيدة! هل عاد إليك صوتك؟

- نعم، مثل بجعة تحتضر؛ فأنا أبدو جريئة، لكنني منهكة. لنتعالج، وعليك أن تساعدني على الصعود على ظهر السفينة.

- لقد وعدت (الدكتور) والقبطان بأن أوقظهما، ويجب ألا أخلف وعدي.

- بل قل التعليمات؛ التعليمات أولاً وقبل كل شيء، حتى الموت.

وغير السيد (سين) قبعته القطنية بقبعة أخرى هائلة مثل قبة، تظلّلُ وجهه بالكامل؛ وارتدى سترة شبيهة بتلك التي كان يضعها بعض متأنقي العهد (الإمبراطوري) الأول، غطّت جسده النحيل. وتوجه وهو يرتعش بانضباطه الأبدي إلى باب (الصالون) حيث ما زال ضابطا (سان سير) (Saint-cyr)، اللذان يمارسان عليه سلطة كبيرة؛ يغطان في نومهما.

وكنا جميعاً على ظهر السفينة عند الخيوط الأولى للفجر؛ وكأن اتفاقاً ضمنياً حصل بيننا.

وكان النيل مغطى بضباب أبيض؛ أما الندى فكان يتساقط فوقنا قطرات باردة.

وظهر القبطان بمشيته المسرحية وقد التفع بمعطف عسكري. أما (الدكتور) الجذاب؛ فكان يرتدي أيضاً معطفه العسكري، ويمشي برشاقة الرجال الغاوين. وكان (كميل بيلتان) يهتز فرحاً، فقلت له:

- إنه لشيء جميل أن تلتحق أيها اللامبالي بمجموعة المحتجّين.

- فكرة الاحتجاج غير واردة لدي، فأنا لا أومن بهذه الأمور الساذجة والطفولية. إنني سأنزل إلى اليابسة لاختيار (غليون) بأحد المتاجر؛ قبل أن يستولي مدخنو السفن الأخرى- وخصوصاً الألمان العارفون- على أفضل الغلايين. ولأن المترجم على ما يبدو لن يكون مفيداً في المقاومة؛ فإنني سآخذه معي للتسوّق.

ونبهته قائلة:

- احذر من نصْبه.

نزلنا إلى الميناء في الوقت ذاته الذي اقترب فيه قارب (البحيرة) من سفينة (الجيزة)؛ فقال (الدكتور):

- هذا الانضباط فأل حسن، فقد كنت أعلم بأنه سيستجيب لطلبي.

كان وكيل الخديوي واقفاً وهو يبتسم، بطربوشه المصري وسترته كوكيل تلَف جسده، وقد وضع بين شفتيه زهرة ياسمين (إسبانية) بدل (السيجار). كانت هيئة هذا المتولّه بـ(بيشيت) في تلك الصبيحة تشي بالنصر والارتياح؛ مما جعلنا نأمل في لقائه خيراً.

- يا له من مظهر ودّي.

هكذا خاطبنا (الدكتور) في الوقت الذي كان فيه الوكيل يجيبنا قائلاً:

- لماذا أتعبتم أنفسكم؟ لقد كنت سأصعد بنفسي على ظهر (الجيزة).

فرد عليه القبطان:

- إنكم تمثلون صاحب السمو الملكي الخديوي.

وأردف السيد (سين) بنبرة موافقة وساخرة:

- وأنتم تعلمون مدى احترامنا لكم.

وبلغ قارب (البحيرة) الشاطئ الذي نزلنا به. وعندما همّ الوكيل بالنزول؛ سبقته، وصعدت إلى القارب، ثم جلست على مقعد مغطى بزربية، وخاطبت رفاقي قائلة:

- اصعدوا أيها السادة! سنكون هنا أفضل للتفاوض، بدل أن تتسخ أرجلنا بطين النيل.

وعقب (الدكتور) بالقول:

- إن السيدة على حق.

وكان قد هيأ خطابه من قبل، وخشي أن يقاطعه الفلاحون الذين كانوا يحملون شحنة الفحم بغدوهم ورواحهم؛ فالتحق بالقارب، وسلم على الوكيل المنزعج برؤية كل ركاب «الجزيرة» متحلقين حوله؛ وقال:

- إن من واجبنا القدوم إليكم. وأريد باسم كل رفاق السفر التماس بعض الطلبات.

وأردف السيد (بولانجي) بجفاء:

- اسمحوا لي سيدي؛ بأن ألتمس منكم إصدار أمر بإيصالي مع أمتعتي إلى محطة القطار والرجوع بحرية إلى القاهرة. وأضاف (طاربي) بالجفاء نفسه:

- وأنا أوجه الملتمس نفسهُ إلى السيد الوكيل.

فصاح الوكيل متعجباً:

-إنني أشعر بخيبة الأمل أيها السادة! فماذا يمكنني فعله؛ لكي تتخلوا عن هذا القرار الذي يجعلني مسؤولاً عن وضعكما بغير حق؟

فعلقت على كلامه ضاحكة:

- بغير حق؟ هل تجرؤ على القول أيها المتملق: إنك لم تقصد وضعنا بداخل هذه السفينة القذرة باعتبارنا معارضين للنظام (الإمبراطوري) الذي تطمعون في الحصول على بعض

امتيازاته؟

احمر وجه الوكيل؛ أما (الدكتور) الذي كان يتلهف لأخذ الكلمة؛ فقد صاح بصوت مرتفع:

- لكنك يا سيدتي، قد حولت مسألة النظافة والصحة إلى قضية دولة.

وأردف القبطان:

- بالله عليكم، اتركوا السياسة جانباً.

وغمغم السيد (سين):

- لنحترم السلطة.

وعندما شعر الوكيل بمساندة هذا الثلاثي له، قال بنبرة ساخرة:

-هل ترغب السيدة في إيصالها إلى القاهرة أيضاً؟

فأجبته:

-أنا؟ كلا ثم كلا! لن أمنحكم هذا الشعور بالرضا. سأواصل رغماً عنكم وعن كل شيء، هذا السفر الممتلئ بالعذابات التي تسببتم فيها.

وعندما أتممت حديثي؛ أصابتني نوبة من السعال الحاد؛ لأنني رفعت صوتي في صبيحة ضبابية. واستغل (الدكتور) الوضع فأخذ الكلمة؛ في حين كان الوكيل المخادع يقدم لي عرق سوس. واستهل الطبيب حديثه قائلاً:

- إن مرض السيدة خطر فعلاً. وتتطلب منها حالتها الاعتدال واللطف، وهما خاصيتان جذابتان مقترنتان بجنسها. ونحن مستعدون- وأنتم في المقام الأول، سيدي الوكيل- للإحاطة بعنايتها، وحتى لا يساورها الشك من الآن فصاعداً؛ فإنني أستسمحكم في توفير مقعد يطوى على ظهر السفينة وغطاء واقٍ من الحشرات فوق فراشها وطعام صحي إن أمكن؛ وبالنسبة إلينا جميعاً التنظيف الفوري للسفينة. إن الخدمات بطيئة على ظهرها؛ وأنا لا أريد انتحال سلطتكم، لكن إذا ما أصدرتم أوامركم الصارمة؛ فستطاعون كما اقتضت

العادة.

وأجابه الوكيل قائلاً:

– سنصدر أوامرنا بعد قليل، أما بصدد سلطتنا؛ فإننا سنفوضها لك كاملة ابتداء من هذا اليوم؛ وباعتباركما أنت والسيد القبطان عسكريين؛ فإن أوامركما ستكون مطاعة من قِبل المستخدمين كلهم. وستحصل السيدة على الغطاء الواقي؛ أما المقعد فأخشى ألا يكون متوافراً في مصر العليا.

وأمام هذا الجواب الفضفاض، رفعت كتفي وأشرت إلى سفينة (بني سويف)، حيث كانت (بيشيت) مستلقية على مقعد وواضعة إحدى رجليها على الأخرى. كما أشرت إلى كل من (الذهبية) و(النسر)، حيث كان ثلاثة أشخاص جالسين على المقعد الذي يطوى.

وتدخل الدكتور الودود قائلاً:

– المرجو أن تعملوا على توفير أحد المقاعد لتلبية رغبتها. فنهضت عائدة إلى الشاطئ، وقلت:

– لكي يسود شيء من المساواة والعدل بين ضيوف الخديوي. وخاطبني الوكيل وهو يمد لي يده مصافحاً:

– هل للسيدة مطالب أخرى؟

فقلت له وقد توتَّرت أعصابي بفعل هذه الثرثرة غير المجدية:

– كفانا خداعاً، إنني متعودة على مواجهة الأوضاع؛ مهما كانت خطورتها بكل صرامة؛ حتى لو كان ذلك على حسابي. فهذان السيدان ينافقان، وهما مرتاحان؛ لأنهما يتنفسان هواء (الصالون) الذي استوليا عليه.

قاطعني الوكيل، في حين كان (الدكتور) والقبطان ينظران إلي شزراً:

– وأنا سأبقيهما فيه.

وأضاف بنبرة ساخرة:

– وكيفما كان الحال، فستختارين الآن بين عدة مقصورات مادام السيدان سيرحلان للأسف.

فأردفت:

– إنه اختيار وسط المزابل!

واستعنت بذراع السيد (بولانجي)، ثم غادرت القارب؛ مهزومة في مثل هذه المعارك المبتذلة، كما العادة.

وتابعت بنظرتي الحزينة لفترة رفيقيَّ بسفينة (الجيزة) اللذين كانا يبتعدان عن الشاطئ؛ مرفوقين بالفلاحين الحاملين لأمتعتهما، وبدا لي أنني فقدت في شخصهما علاقة ودية كانت في طريقها إلى النشوء. ولأنني اقتنعت بضرورة مقاومة مثل هذه الأوضاع؛ فقد قررت المغامرة وحدي داخل سوق المنيا.

والتحق بي الترجمان أمام متجر للأواني الخزفية ذات الأشكال الغريبة والألوان المختلفة. واخترت عدة معروضات، مازلت أحتفظ بها إلى حد الآن، وهي محبرةٌ من الطين الأسود، مزركشة بالياقوت الأحمر مثل المرجان، وهي التي أكتب منها هذه السطور؛ ومشعلان من الطين الأصفر، خفيفان جداً إلى درجة أن الرائي يعتقد أنهما مصنوعان من شجر الليمون؛ وقدح يشبه الأقداح المصرية القديمة وقلة تذكر بالجرات (الإغريقية)، بلون (الغرانيت) الأحمر وعليها نقوش زرقاء داكنة. وتكلف الترجمان بمناقشة الأثمنة والاتفاق حول مقدارها مع التاجر المسكين، وهو عربي بأسمال بالية. فأعطيت لترجماني «المسيحي جداً» قرشين لأداء الثمن؛ لكن بعد أن رد عليه التاجر القطع النقدية والنحاسية؛ لاحظت أنه أخفى بسرعة داخل كمه القطع البيضاء، وناولني (السنتيمات) المتبقية. فقبضت على ذراعه، وعملت على إسقاط ثلاثة (فرنكات) من كمه. وعندما اكتشفت فعلته؛ لم يصدر عنه أي تأثر، بل انحنى فوق الأزبال، وجمع القطع المتناثرة، وأقسم بالقبر المقدس وبالقديسة مريم العذراء أن هاته النقود ملك له، وأنه كسبها من عرق جبينه؛ والحال أنها كانت (بقشيشاً) يناوله أي تاجر لمن يأتيه بزبون. وانتبهت إلى أنه يؤنب العربي، ففهمت أنه يهدده بالانتقام إذا لم يؤكد أقواله؛ فقمت برد المقتنيات التي اخترتها والتي تم تغليفها، وأفهمت التاجر أن عليه أن

يعيد لي قروشي. وعلى الفور، تغيرت ملامحه، وتطاير الشرر من عينيه السوداوين الغاضبين، وطلب بنبرات صوته الحادة من الترجمان إرجاع (الفرنكات) الثلاثة المنتزعة، وإلا سيشكوه للعسكري الذي كان يحرس السوق.

وفجأة أصبح اللص الوقح وديعاً مثل كلب أليف، وحاول تقبيل يدي التي أراد أن يضع بها النقود المسروقة، وهو يستعطفني بألا أفضحه. فدفعته باشمئزاز، وأمرته كعقاب له بأن يعطي تلك القطع النقدية إلى نوبي صغير ومريض، سبق له أن عنَّفه. واضطر إلى تنفيذ أمري، وهو شاحب من الغضب ومن الطمع المكتوم.

وأحسست بتعب شديد وباختناق على مستوى الحنجرة، ولم تقْوَ ساقاي على حملي، وبدأت أترنح عند كل خطوة. ولأنني نفرت من الاتكاء على ذراع الترجمان، فقد وضعت يدي فوق رأس طفل كان يقفز مرحاً أمامي. وعندما رآني الترجمان ممسكة بالشعر المجعد الذي غطاه غبار الصحراء؛ أراد التقرب مني، وصاح قائلاً:

- احترسي يا سيدتي، فإن القمل سيلتصق بيدك.

وأدركت أن ما يقوله صحيح؛ لأنني شعرت بالحكة. ولما رأيت بائع بطيخ أخضر؛ اقتربت منه، وتهاويت فوق بضاعته الخضراء. قدّم لي البائع كرسيه الخشن، وسارع بفتح أجمل بطيخة. فأخذتها من يده مثل حيوان جائع، وشرعت في قضم لبها الأحمر الذي ما زال بارداً بفعل ندى الليل. وكانت شفتاي تمتصان الفاكهة بلذة، وقد غطست عيني وجبهتي ووجهي الساخن بداخلها، ثم سكبت على ذراعي ويدي الماء البارد المنبعث منها، مثل دم متورّد، غير آبهة بالنظرات الساخرة والابتسامات (المتحضرة) لركاب السفن الأخرى الذين اجتازوا السوق، وبدوا مندهشين من هيئتي المتوحشة.

وتذكرت شعوراً مماثلاً كان قد انتابني بـ(فيراري) (Ferrari) في صيف سنة 1860؛ حيث كنت قد قمت بجولة في أثناء ظهيرة حارة بالشوارع الفسيحة للمدينة الممتلئة بالقصور الفارغة. هكذا انتقلت من قصر الدوق الذي عاش فيه (ألفونس ديستي) (Alphonse d'Este) و(إليونور دوطاس) (Eléonore de Tasse) إلى القصر الذي مارست فيه (لوقريسيا بورجيا) [وهي (لوقريسيا) (Lucrèce) التي تحدث عنها (هوجو)] نزواتها

العاطفية وشراستها مثل لبؤة. ونسيت نفسي داخل المعزل الخانق الذي فاجأ فيه (مونتيني) (Montaigne) الذي كان ضيفاً على القصر؛ (دوطاس) وهو ممدد على فراش من القش، فعدّه مجنوناً؛ وقد عبر عن غرور الفيلسوف بملابس البلاط، الذي لم يستسغ عزة نفس شاعر بأسمال بالية.

طبعاً، كل عقل يحلق إلى أعلى، وكل قلب ينبض بقوة يعدّ مجنوناً! وزرت منزل (أريوست) (Arioste)، هذا المعارض الجريء لأمراء زمانه ولعاداتهم الشبقية، ثم جلست في مكان ظليل بساحة (فيراري)، حيث ينتصب تمثال الشاعر مبتسماً وساخراً؛ وكأنه يطلب خلال فصل الشتاء معطفاً من هؤلاء الأمراء الصغار الذين كان يحتقرهم. وبدا لي ذكر معطف في حرارة ذلك اليوم التي بلغت 30 درجة؛ مبالغة شبيهة بالقهوة العربية (موكا) (Moka) الحارقة، التي كانت تقترح علي في كل المقاهي التي دخلتها للاستراحة. وفجأة سمعت ورائي صوتاً رخيماً لبائع البطيخ الملقب بـ(الكورال الخالص). فقلت له قبل أن يشرع في مدح بضاعته:

– أسرعْ في العمل، وناولني قطعة منه (subito besogno taglia gli). ويدرك كل مواطن صالح بـ(فيراري) على الفور معنى فعل (Tagliare)؛ ذلك أن الألسن الخبيثة بـ(إيطاليا) لقبت (فيراري) بمدينة الخصْيان؛ فهناك كان (البابوات) يستقبلون المغنين النائحين بكنيسة القيامة.

كان كل رب عائلة يفتخر بتزويد الكنيسة المقدسة بخصي. وإلى اليوم، هناك بعض الآباء الذين يسعدون بإخصاء أقوى أطفالهم من أجل دعم هذه التجارة المقدسة. وبحسب بعض السفهاء فإن هذه التجارة أفضل وأوفر ربحاً من تجارة الديكة المخصية. هكذا، وبالسرعة نفسها التي يخصى بها الشخص؛ غرس البائع سكينه داخل البطيخة، وقدم لي القطع التي تقطر ماء وهو يصيح: رائع!

فيا روح (طاس) اعذريني! ويا عقل (أريوست) كن متسامحاً معي. وإذا ما قام السيد (سيتاديلا) (Citadella)، عضو (أكاديمية) (فيراري)، هذا العلاّمة الخطيب، الذي لا يكل ومراسل جريدة (لاكروزر) (La cruser)؛ بالجري ورائي في هذه الحرارة البالغة ثلاثين درجة ومطالبتي بإبداع قصيدة من أربعة مقاطع على شرف المدينة التي ولد بها؛ فإنني أعترف

بتواضع بأنني لن أتغنى بكما أيها الشاعران الخالدان! بل بالحرية الطيبة القديمة، المنقذة على الدوام والتي أعادت لي الحياة بعد أن تحولت إلى بطيخة.

هكذا، عادت بي الذاكرة إلى (إيطاليا) وأنا أبتسم داخل سوق المنيا المختنقة بحرارة فرن. ورأيت النوبي الصغير يلتهم بشراهة قشرة البطيخ التي رميتها، فطلبت من البائع أن يقطع أخرى، ويوزعها على الطفل والترجمان، فصاح هذا الأخير على الفور بصوت مستعطف:

– كنت أعلم جيداً بأن السيدة كريمة وبأنها ستسامحني، وستعاملني كخادم مخلص ووفي.

فقالت له:

–إنك سافل؛ ولكنني لن أتركك تموت عطشاً مع ذلك.

ورد علي وقد طأطأ رأسه:

– إن سيدتي طيبة جداً.

وكان الطفل يأكل نصيبه من الفاكهة باستمتاع، دون كلام ولا انحناء غير مجدٍ. وبينما أنا راجعة إلى (الجيزة) يسبقني النوبي الصغير؛ محملاً بثقل مزدوج يتمثل في الأواني الخزفية وفي بطيختين كبيرتين وبجانبه الترجمان الذي كان يمشي منخفض الرأس وذراعاه متدليتان إلى أسفل؛ إذا به يضطرب فجأة، ويمتقع لونه من الرعب. ففي الزقاق المفضي إلى السوق ظهرت فرقة من الرجال المسلحين ذوي السحنات المخيفة. وكانوا يضعون تحت حزامهم المصنوع من الجلد المخطط أو من جلد الماعز؛ مسدسات كبيرة وسيوفاً مقوسة مثل سيوف المماليك القدامى. وكان بعضهم قد أخرج سيفه من غمده، وشرع يلوح هذا السلاح اللامع أمامه. فقلت للترجمان المرتعش رعباً:

– هؤلاء العساكر جاؤوا لاعتقالك.

– كلا يا سيدتي، إنهم (الأرنوط)، وهم أشرار ولصوص؛ وإذا ما أعجبتهم ساعتك؛ فإن بإمكانهم قطع رأسك للاستيلاء عليها.

ضحكت من هذا التهديد الذي بدا لي مجانياً، خصوصاً أنني عندما وقفت أمام أحد هؤلاء

(الشجعان) الرهيبين؛ حياني بطريقة شرقية، وتنحى بجانب منزل؛ ليفسح لي الطريق. وتعني كلمة (أرنوط) بـ(الألبانية) «الشجاع». وقد تم تجنيد (الأرنوط) الذين شكلوا إلى جانب المماليك أشرس (المليشيات) (التركية)، من ضواحي (سكوتاري) (Scutari)[1] وهي مدينة (ألبانية) أسسها الإسكندر.

ويكفيني إذا ما سرت عل هدي القبطان؛ فتح معجم (بويي) هذا المساء لأخذ معلومات موجزة عنهم، وإن ظلت مع ذلك محدودة؛ فإنني تذكرت مقطعاً مهماً ومثيراً لـ(شاطوبريان) حول هؤلاء (الألبانيين) أقدمه لقرائي.

زار (شاطوبريان) مصر في أواخر سنة 1806 عند رجوعه من القدس، وانتقل من (روزيت) (Rosette) إلى القاهرة عبر النيل، وسجل ذلك العبور كما يلي:

«اتفقنا مع صاحب مركب كبير، فتخلى لنا عن القاعة الشرقية، ولكي نحظى بالأمان؛ أشركنا معنا قائداً (ألبانياً). وقد وصف السيد (شوازول) (Choiseul) في مؤلفه «رحلة إلى الشرق»؛ جنود الإسكندر (الألبانيين)؛ ومما جاء في وصفه: لو كان على رأس هؤلاء (الألبانيين) المعتزين بأنفسهم، قائد مثل (سكاندبرغ) (Scandeberg) لظلوا أبطالاً؛ لكنهم أصبحوا قطاع طرق تبين ملامحهم عن وحشيتهم. هم جميعهم طويلو القامة ورشيقون ومتوترون؛ ويتكون زيهم من سراويل واسعة وتنورة قصيرة وصدرية ممتلئة بالصفائح والسلاسل وحبات من الزيتون مصنوعة من الفضة؛ وهم ينتعلون أحذية عالية عسكرية مربوطة بسيور تصل إلى ركبتهم؛ وتشد صفائح مربوطة بربطة الساق؛ لتخفف من تأثير الاحتكاك بالحصان. ولهم معاطف مخططة وذات ألوان عديدة؛ مما يضفي على لباسهم نكهة مميزة جداً. ويضعون على رأسهم طاقية حمراء، يزيلونها في أثناء خوضهم للمعارك.

وفي زوال يوم السادس والعشرين من شهر (دجنبر)؛ صعدنا إلى المركب، حيث وجدنا عدداً كبيراً من الأتراك والعرب. وبدأت رحلتنا على النيل؛ هكذا ظهر على يسارنا مستنقع أخضر يتسع على مدى البحر، وعلى يميننا حقل مزروع بجانب النهر؛ وفيما وراء ذلك كنا نشاهد رمال الصحراء. وكانت أشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك تعلن وجود قرى، كما هو

(1) يجب ألا نخلط بينها وبين (سكوتاري آسيا)، وهو شارع بـ(قسطنطينية) بالضفة اليمنى (للبوسفور)، مقابل (غالاطا) (Galata).

الشأن بالنسبة إلى الأشجار المحيطة بالبيوت في السهول (الفرنسية). وقد بنيت المساكن في هذه القرى بالطين وفوق تلال مصطنعة. وذلك احتياط لا جدوى منه، إذ لا أحد يمكنه أن يقيها من فيضانات النيل. وبدا جزء من الدلتا مهملاً؛ لأن آلاف الفلاحين أبيدوا من قبل (الألبان)؛ أما الباقي فهاجر إلى مصر العليا.

قضينا سبعة أيام متعبة لننتقل من (روزيت) إلى القاهرة حيث واجهنا الرياح العاصفة وسرعة التيار. وكان الملاحون يجبروننا تارة على البقاء بغرفتنا، وتارة يسمحون لنا بالتجول على ظهر السفينة؛ بفضل هواء شمالي يهب لفترة محددة. وغالباً ما كنا نتوقف كي نأخذ معنا بعض (الألبانيين). هكذا، التحق بنا في اليوم الثاني أربعة منهم، واستولوا على غرفتنا؛ وكان علينا تحمل فظاظتهم ووقاحتهم. فللأبسط جلبة؛ كانوا يصعدون على ظهر المركب حاملين بنادقهم، ويبدون كالمجانين وهم يترقّبون عدواً وهمياً. ورأيناهم يصوبون بنادقهم باتجاه أطفال كانوا يطلبون الصدقة بالشاطئ؛ وكان هؤلاء البؤساء الصغار يختفون داخل أكواخهم وكأنهم متعودون على هذه اللعبة الرهيبة.

وفي تلك الأثناء؛ كان التجار الأتراك ينزلون إلى اليابسة، ويقومون وسط الحقل بنوع من الرياضة البدنية. أما الألبان الذين كان نصفهم مسلماً؛ والنصف الآخر مسيحياً؛ فكانوا يصيحون «يا محمد؛ يا مريم العذراء»، ويخرجون مسبحة من جيوبهم، ثم يتلفظون بعبارات بذيئة بـ(الفرنسية)، ويشربون جرعات كبيرة من الخمر بقللهم، ثم يطلقون عيارات نارية في الفضاء، ويمشون فوق بطون المسيحيين والمسلمين. هل من الممكن إذن أن تضع الشرائع كل هذا الاختلاف بين البشر؟ وكيف تمكنت جحافل قطاع الطرق (الألبان) وهؤلاء المسلمون الأغبياء والفلاحون البؤساء من التساكن في الأمكنة نفسها التي عاش فيها شعب ذكي ومسالم وحكيم، شعب وصف (هيرودوت) وخصوصاً (ديودور) (Diodore) عاداته وتقاليده؟ وهل يمكن أن نجد في أي قصيدة مثل هذه اللوحة الرائعة التي جاء فيها: «في الأزمنة الغابرة لم يكن ملوك مصر يتصرفون مثل ملوك الشعوب الأخرى، الذين كانوا يفعلون ما يريدون دون الخضوع لأي قانون ودون مشورة؛ فعلى العكس، كان كل شيء لدى المصريين محدداً بوساطة القوانين، ليس فقط لتدبير شؤون المملكة، بل أيضاً لتنظيم سلوكهم الشخصي. لم يكن باستطاعتهم طلب خدمة عبيد وُلدوا أو تم شراؤهم بمساكنهم. لكنهم

كانوا يتلقوْن شباباً يافعين تقل أعمارهم عن العشرين سنة، يختارون من بين أبرز كهنة المعابد ومن أكثرهم تهذيباً بالبلد، لكي يرى الملك باستمرار أفضل شباب مصر، ولا يقوم بأفعال دنيئة لا تليق بمقامه. وفعلاً، فإن الأمراء لا يرتمون بسهولة في أحضان الرذيلة إلا لأنهم يجدون وزراء يشجعونهم على ذلك. وهناك ساعات في الليل والنهار، لا يكون فيها الملك حراً، ويتعين عليه القيام بالواجبات التي تفرضها القوانين. فعند الفجر، يجب عليه قراءة الرسائل الموجهة إليه من كل مكان، حتى يتعرف حاجيات المملكة وإصلاح كل شيء، وبعد فترة الاستحمام يلبس حلة فاخرة وكل مظاهر الملكية؛ لتقديم القرابين إلى الآلهة. وعندما يتم استقدام الأضحية إلى المعبد، يقف الكاهن الأكبر أمام كل الحاضرين ويطلب من الآلهة بصوت مرتفع أن تحفظ الملك، وتنعم عليه بكل الخيرات؛ لأنه يحكم رعاياه بالعدل. ويدرج في صلاته تفاصيل الخصال المميزة للملك، ويضيف أنه ما دام حكيماً وحليماً وطيباً ورؤوفاً بالآخرين وعدواً للكذب؛ فإن عقابه لا يساوي أخطاءه، ومكافأته تتجاوز خدماته. وبعد قول عدة أشياء من هذا القبيل؛ يقوم بشجب الأفعال القبيحة التي ارتكبها الملك عن جهل. صحيح أنه يبرئ ساحة هذا الأخير، لكنه يستنكر أعمال المتملقين وكل الذين أسدوا له نصائح سيئة. ويستعمل الكاهن الأكبر هذه الوسيلة؛ لأن الأفكار القائمة على الإطراء تعدّ أنجع من المؤاخذات المريرة؛ لجعل الملوك يخافون الآلهة، ويحبون الفضيلة.

بعد ذلك، يقوم الملك بنحر الأضحية وفحص أحشائها، ثم يقرأ عليه المكلف بقراءة الكتب المقدسة بعض الأعمال أو بعض الكلمات المتميزة الصادرة عن رجال عظماء؛ كي يستفيد من هذه المبادئ الرائعة، ويستخدمها عند الحاجة».

إن الانتقال من هذه الأزمنة العظيمة التي حكمت فيها مصر ملوكها القدامى؛ إلى حالة الفوضى الدموية التي أدت إلى ترسيخ الهيمنة (التركية) القائمة في أثناء زيارة (شاطوبريان)، مؤلف «الشهداء» (Martyrs) لها؛ هو انتقال من السكينة التي تنشرها عدالة القادة على شعوبهم واحترامهم للقوانين وحبهم للفنون وممارسة سلطة أخلاقية وإنسانية؛ إلى الرعب والعنف المعتمدين في الاستبداد الهمجي؛ كي يتأسس ويترسخ. وفي سنة 1806 التي وصل فيها (شاطوبريان) إلى القاهرة؛ أعلن محمد علي نفسه (باشا) على مصر؛ مستغلاً تمرد المماليك الأقوياء ضد رؤسائهم. لقد عوض محمد علي هؤلاء، لكن سلطته لم تحظ باعتراف الباب

العالي، ولم تتجاوز أسوار المدينة المقدسة. ولأنه استشعر خطورة المماليك غير المنضبطين الذين يمكنهم أن ينتزعوا منه السلطة التي ساعدوه على أخذها؛ فإنه لم يتردد في استدعاء فرقة (الألبان) الذين كانوا يضاهون المماليك شجاعة ودموية والذين سيعملون على إبادتهم فيما بعد. وعندما كان محمد علي شاباً؛ تدرب على استعمال السلاح على يد (الأرنوط) الشجعان الذين اشتهروا منذ عهد الإسكندر بكونهم من أشجع عساكر الشرق. وقد قاتل في صفوف (الفرنسيين) الذين دخلوا مصر، وتميز في موقعة «أبو خير». وما إن تخلت (تركيا) بوساطة (فرمان) (Firman) عن باشوية مصر؛ حتى لجأ محمد علي إلى مخلصيه (الألبان)، وجعل منهم حراساً شرفيين سيساهمون في ارتكاب المذبحة الرهيبة ضد المماليك بتاريخ فاتح (مارس) 1811.

وما إن اعترفت (أوربا) بقوته المدعمة من قِبل (فرنسا) وبفضل انتصارات ابنه إبراهيم؛ حتى تمكن العقيد سليمان (باشا)- بدعم من جنودنا- من غزو سورية وشبه الجزيرة العربية. هكذا أصبح محمد علي وابنه يتوفران على جيش نظامي منضبط، وفكرا في التخلص من بقايا (الميليشيات) (الألبانية). وفعلاً؛ تم إرسال فرقة (الأرنوط) إلى مصر العليا لضبط عرب المنطقة. لكن المقاتلين القدامى أصبحوا مثل أسد الأسطورة الذي قلمت مخالبه، ولم يعودوا سوى متمردين دمويين لا علاقة لهم بإسماعيل (باشا). فقد أحسن هذا الأخير فعلاً باعتماده على الحضارة لتدعيم عرشه وترسيخ سلطته.

أما من بقي من هذه العصابات (الألبانية)؛ فإنه يتلقى راتباً زهيداً، يجعله مستعداً لخدمة أقل (البايات) شأناً. وقد حتمت عليهم وضعيتهم الجديدة التخفيف من وقاحتهم ومن مظاهر البذخ التي كانت بادية عليهم. ولم يحتفظوا سوى بأسلحتهم القديمة وبهيئتهم الحربية التي تشهد على شجاعتهم الأصيلة. فمصيرهم يشبه مصير (العالمات) الجميلات اللواتي عرضن بالقاهرة بذخهن المستفز خلال فترة شبابهن وأيضاً إغواءهن المنحرف. فقد قام محمد علي وابنه إبراهيم بنفيهن جماعات إلى مصر العليا؛ بذريعة الدفاع عن الأخلاق (أخلاق (الأتراك) طبعاً).

الفصل الحادي عشر

التوقف بقرية «روضة»، قصر الخديوي، معمل السكر، حب وعادات عربية.

تحرك الأسطول الصغير حوالي منتصف النهار بتاريخ 24 (أكتوبر) 1869، ومرّ بالضفة المحاذية لسلسلة الجبال العربية التي كان من الممكن التوقف بها لزيارة مغارة (بنسوسان) المحفورة بسفح الجبل، على بعد ثلاثة كيلومترات من النيل. ولأن الفيضانات لم تكن قد غطت هذا الجانب من الشاطئ؛ فإنني لم أفهم سبب تأجيل زيارة هذه المقبرة التي تعدّ من أقدم مقابر مصر العليا [فهي تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح]؛ إلى حين عودتنا. وكان عشّاق (الهروغليفيات) منزعجين؛ لأنهم منذ مغادرتنا للقاهرة لم يتمكنوا من رؤية المعابد والمقابر. غير أن منظم الرحلة وعدنا بزيارة (أبيدوس) و(دندرة) وطيبة في غضون اليومين المقبلين. وكان اقتراح زيارة هذه الآثار الفخمة كافياً لإشباع فضولي (الأركيولوجي). فانجذابي الأساس ظل متجهاً نحو الانعكاس الهائل للأنوار على قمم الجبال وعلى ضفتي النهر. ولم أكن أشبع من هذه المناظر؛ وبينما كان خدام (الجيزة) يقومون بتنظيف مقصوراتنا؛ كنت أقضي اليوم على ظهر السفينة؛ مستمتعة بالصمت وبالفضاء الفسيح أمامي.

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر وصلنا إلى قرية روضة في الضفة الموازية للجبال الليبية. لم نرَ فيها أعمدة ولا مسلات ولا أبا الهول، بل غابة من النخيل أنعشت عيوننا المنبهرة بالأضواء البراقة واللامحدودة. وكان مسوّغ التوقف بروضة هو زيارة قصر صغير بناه الخديوي مؤخراً قرب مصنع للسكر، يحول قصب السكر المزروع على طول شاطئ طيبة إلى أهرامات صغيرة بيضاء. ولم يكن المعمل مشتغلاً كما أن القصر الذي لم يتم تأثيثه بعد كان فارغاً من السكان؛ اللهم إلا من بعض الحراس العرب. وكان العديد منهم يعتنون بالأشجار المثمرة والأزهار في بستان موجود وراء سلالم من (الغرانيت). وقدموا لنا باقات جميلة من الياسمين عندما رأونا؛ وقد اجتزت قاعة فارغة توجد بها نافورة من الرخام، ووسطها أربع بجعات من الحديد، تتدفق المياه من مناقيرها. اقتربت من الحوض، ووضعت فيه زهرة، ثم استنشقت الزهرة والبرودة باستمتاع كبير. كان الإحساس رائعاً لا ينسى، خصوصاً أن الحرارة كانت تصل إلى 36 درجة. وكان مختلف ركاب الأسطول الصغير قد التقوا بسوق المنيا من قبل، وتبادلوا التحيات وكلمات المجاملة فيما بينهم. أما في روضة؛ فتشكلت عدة مجموعات بحدائق قصر الخديوي وغرفه، وتم تبادل الدعوات للعشاء بين ركاب السفن. وعند حلول المساء؛

وُضعت مائدة على ظهر (الجيزة) كما العادة، حيث استضفنا السيد (دانينو) (Daninos) الملحق السابق بقسم المتاحف (الإمبراطورية) وبوزارة الشؤون الخارجية، وهو ملحق حالياً بمصر التي يعمل على اكتشاف مآثرها القديمة رفقة (مارييت بيه). أثار حديثه العلمي الدقيق اهتمامي فجأة؛ وكان مرفوقاً بالسيدين (أميدي موييرون) (Amédée Moulleron) و(غاستون براون) (Gaston Braun) اللذين نالا شهرة علمية بفضل صورهما الرائعة لكل متاحف (أوربا). وقد عُيِّنا لتصوير آثار مصر، حيث أنجزا عملهما كفنانين نزيهين، بإتقان العمل الوصفي لـ(دانيوس) (Danios) مدير آثار بولاق نفسه. ومنذ اليوم الأول للقائنا؛ عبَّر لي هؤلاء الرجال عن اهتمام لا يفتر؛ فقد قدموا لي معلومات ثمينة، سأتحدث عنها في حينها. وبفضل وجودهم، تميز الحديث بالمرح، على عكس ما كان عليه الأمر سابقاً بسفينة (الجيزة). وعبرنا النيل بسرعة، حيث وصلنا في المساء إلى أسيوط التي تعدّ من أبرز مدن مصر العليا؛ وهي (ليكوبوليس) (Lycopolis) القديمة التي كانت الذئاب تُعبد فيها. ولم نغادر المركب إلا في صبيحة الغد؛ ووجدنا العرب في انتظارنا بحميرهم. وبسرعة امتطى أكثرنا شباباً وحيوية الدواب النشيطة؛ أما أنا فطلبت جحشاً وديعاً، وامتطيته بجرأة مصطنعة مسبوقة بالترجمان ومتبوعة بمالك الدابة. ولم أكن قد مارست هذا التمرين منذ عشر سنوات؛ ولحسن الحظ فإن الحرارة كانت محتملة؛ والطريق المتبعة لبلوغ المقابر الموجودة بمنحدرات الجبل ظليلة. وكانت الفيضانات الأخيرة للنيل قد أضفت على الأراضي المحيطة به نضارة ربيعية؛ كما نقول في (أوربا). وبعد ساعات من هذا التمرين، شعرت بالتعب وعدَلت- مثل العديد من المسافرين- عن زيارة المقابر الموجودة بالمغارات والتي تعدّ في الحقيقة الأقل شهرة بمصر العليا.

وخلال تناول العشاء علمت بأن أحد أغنياء أسيوط سيقيم حفلاً بحديقة منزله على شرف ضيوف الخديوي؛ وسترقص فيه (عالمة) شهيرة؛ وكان مكان الحفل غير بعيد عن الشاطئ. وما إن حل الليل حتى أنيرت المشاعل، وبدأت الآلات الموسيقية العربية تشتغل؛ معلنة بداية الحفل. هكذا، حجَّ إلى المكان المحدَّد أغلب ركاب الأسطول الصغير. وشجعني نائب (برلماني) (إسباني)- سبق أن قرأ أعمالي، وتعرَّف إلي البارحة- على مرافقته؛ فقررت اجتياز هذا الوضع الحرج إلى حدٍّ ما، مثل قروية بـ(باريس) تزور (مابيل) (Mabille). وكان

حضور الرجال من الكثافة بحيث أنني اختفيت وراء ثلاثة صفوف من المشاهدين. ولولا الكرسي الذي قدمه لي بعض رفاقي لما شاهدت أي شيء.

وفجأة، دوت الطبول والدفوف والصنجات وأنغام القانون والناي؛ ورافقتها أصوات الإعجاب الصادرة عن الأوربيين والتي نبهتني على أن (العالمة) قد وصلت. ووقفت؛ لكي أراها فوجدت امرأة قوية البنية، ذات جمال مبتذل، وهي مكتنزة؛ وتفسر غرابة زيها وبريق عينيها الجاذبية الحيوانية التي تمارس على الأجانب.

لقد سبق لي- عندما تحدثت عن الحفل القديم وأنا بقصر النيل- أن وصفت بدقة ملابس (العالمات) المبتذلات المختلفات تماماً عن العالمات القديمات اللواتي كن فعلاً متعلمات ومحتشمات ببلاط (الفراعنة)، وقلت: إن هناك من بين (العالمات) في الوقت الحالي؛ من يحافظن على هذا التقليد القديم. وبدت (عالمة) أسيوط وكأنها مرتاحة لتأثير جسدها المكتنز على المشاهدين ونيل إعجابهم المبتذل. وكانت تضع الخلاخيل حول رجليها العاريتين، وتلبس (سروال)اً وقميصاً من الشاش الوردي، وتضع فوق نهديها عقداً مؤلفاً من قطع ذهبية موضوعة على شكل ثلاثة صفوف. وحول ذراعيها دمالج من القطع نفسها ترن مثل أجراس صينية؛ عند حركات الأرادف والأرجل التي يزداد إيقاعها بموازاة مع إيقاع الصنجات. وبشعرها الطويل والمضفر توجد أيضاً قطع ذهبية، هي أهم حلي هذا النوع من الراقصات اللواتي يكتسبن أهميتهن من كمية هذه الحلي التي يتوفرن عليها. وعلى الرغم من شفتيها الشهوانيتين وعينيها البراقتين وتموجات جسدها؛ فقد بدت لي هذه (العالمة) أقل وقاحة من بعض الراقصات (الأوربيات)؛ لولا ردود الأفعال الغريبة لبعض المتفرجين. والأخطر من ذلك أن (ألمانيين) هادئين من ركاب سفينة (لوفيرو)؛ بقيا بأسيوط بعد أن سحرتهما السلاسل الذهبية (للعالمة) التي لا تقهر.

واعتقدنا أنهما توفيا، لكنهما ظهرا بعد ثلاثة أيام بالأقصر وهما منتشيان بمغامرتهما.

وغادرنا أسيوط عند الفجر؛ وفي ظهيرة الغد (26 أكتوبر) بلغنا سوهاج التي توقفنا بها لشحن السفن بالفحم. وفي المساء رسونا بحرجة؛ حيث قضينا الليل. وبتاريخ 27 (أكتوبر) وصلنا إلى بليانة، حيث كان من المقرر النزول بها لزيارة (أبيدوس) البعيدة بحوالي

تسعة كيلومترات عن الشاطئ؛ لكن فيضانات النيل التي كانت تغمر الأراضي جعلت الرحلة مستحيلة، وتم تأجيلها إلى حين العودة. وسأعمل على وصفها؛ لأن معابد (ستّي) و(رمسيس)و(أوزيريس) ومقبرة (أبيدوس) التي اكتُشفت مؤخراً تعدّ من أروع مآثر مصر القديمة وأقدمها وأجمل ما قدمه الفن المصري الذي جمعت نماذجه المكتشفة مؤخراً أيضاً بمتحف بولاق.

وفي ظهيرة يوم السابع والعشرين، وصلنا إلى قنا بجانب سلسلة الجبال العربية. ويتعلق الأمر بإقامة توجد بها (القنصليتان) (الفرنسية) و(الألمانية)، اللتان يسيرهما عربي لا يعرف أي واحدة من هاتين اللغتين. ويشتغل معه كـ(سكرتير) مترجم من (نابولي)، يدير أيضاً صيدلية. وبفضل هذا الإيطالي تمكنت من اقتناء علكة عربية، أفادت صدري الملتهب كثيراً؛ مقابل ذلك؛ أهديت لهذا (السكرتير) اللطيف دبوساً مذهباً، زين به على الفور ربطة عنقه وهو يردد: «ألف شكر». ولم يكن البريد الذي كنا نأمل في وجوده قد وصل بعد. وأخبرنا (القنصل) العربي بأنه سيحيي مساء الغد حفلاً موسيقياً راقصاً، سنرى فيه أشهر (عالمة) بمصر العليا، كما سنسمع إلى مطرب يمكن نعته بـ(باغا نيني) (Paganini) العرب.

وباستثناء بعض محبي (العالمات) المبتذلات اللواتي تعجّ بهن المنطقة، حيث نفاهن محمد علي وإبراهيم (باشا)، فإن أغلب الركاب عادوا إلى السفن للاستراحة؛ لأن الرحلة إلى معبد (دندرة) بالضفة المقابلة ستبدأ عند الفجر. وأعترف بأن الاستيقاظ على الساعة الرابعة صباحاً وامتطاء حمار حرون جعلني أشعر بانزعاج كبير. ومع ذلك؛ شاركت دوماً في مثل هذه الرحلات المتعبة بهذا القدر أو ذاك. هكذا بقيت في الوراء؛ لأنني من صنف المتأخرين، وليس المتقدمين. وأنا متيقنة أنني سأصل إلى المكان المحدد، يسبقني الترجمان، ويتبعني العربي صاحب الحمار. وكنت أتأمل الطبيعة من حولي، وأسجل بعض الملاحظات على الكراسة المتدلية من حزامي. وفي الحقيقة، فإن الانتقال من مقصورة خانقة إلى فضاء بارد عند الفجر، بحقول مغمورة بالندى والبرك المائية ومظللة بأشجار الصبار والنخيل، يعدّ أمراً متعباً.

قد يبدو الإحساس لذيذاً، مثلما يرشف المصاب بالحمى شراب الليمون المثلج، لكن النتيجة ستكون كارثية على الأرجح. وكان بعض الفلاحين ينظفون الطريق المؤدية إلى المعبد

الذي سيحظى بشرف زيارة (الإمبراطورة) في الأيام المقبلة. ولأن المنطقة ممتلئة بالطرائد؛ فإن العديد من الركاب فضلوا المشي على الأقدام في ذلك الصباح وممارسة القنص. وكنت أمشي بصعوبة فوق أرض متموجة ترشح بالماء، وتتخللها شجيرات هنا وهناك، عندما رأيت قناصاً مجهزاً على نحو جيد وحاملاً معه طريدته. ومن كيسه البحري، كان يبرز ريش نسر أصهب رائع.

وعند رؤيتي ناداني باسمي، فسألته مندهشة:

- كيف؟ هل تعرفني؟

- نعم؛ وإنني أعدّك شجاعة لتجشُّم عناء السفر؛ محبةً في الفن.

كان مخاطبي يتكلم (الفرنسية) بطلاقة، إلى درجة اعتقدت معها أنه (فرنسي) مثلي. فسألته عن اسمه، وأجابني بأنه صهر (مايربير) (Meyer beer) الذي تحدّث له عني، وأنه قرأ كتبي، وهو يضع نفسه رهن إشارتي ليس فقط خلال الرحلة، بل بـ(باريس) و(برلين). وناولني بطاقته المكتوب عليها (البارون كورف) (Korf)، ضابط مرافق لأمير (بروسيا) الملكي. وأخرج من كيسه النسر الذي اصطاده، ثم أهداني أفضل ريشة منه.

من كان سيظن بأن هذا الأجنبي الطيب سيصبح في أقل من سنة أحد ألد أعداء (فرنسا)؟ هكذا، تركت (البارون كورف) مع طرائده، وتابعت بحذر الطريق التي تم شقُّها بالكاد. وكلما اقتربنا من معبد (دندرة)؛ اعترضت طريقنا تلال من الرمل وعليها مساكن خربة؛ لكن عند الباب شعرنا بعظمة المكان. فهذا المعبد يعدّ من أهم معابد مصر وأكثرها متانة. وهو يرتفع- مثل كل المعابد- وسط سياج كبير يبلغ طوله (كيلومتراً) من كل الجهات. وتاريخ هذا المعبد معروف. لذلك سأكتفي بالقول: إنه شرع في بنائه في عهد (بطليموس) الثالث عشر؛ وانتهت أشغال بنائه في عهد (تبيريوس) (Tibère)، وتمت زخرفته خلال حكم (نيرون)، وانتهت الأشغال به عندما كان المسيح يعيش في القدس.

إن المرء لَيَندهش لرؤية الأعداد الهائلة من الرؤوس واللوحات والنقوش الموجودة فيه؛ حيث توجد في السقف وعلى الأبواب والنوافذ والأعمدة والسلالم. ومن بين النقوش؛ توجد صورة لـ(كليوباترا) على حد زعم المؤرخين. وبفضل السيد (دانينو) تمكنتُ من الحصول على

صورة مطبوعة لهذا النقش. وبعد أن دخلنا المعبد، جلسنا فوق الزرابي لتناول طعام الغداء الذي حمله الخدم معهم من السفن. لكن التعب يقطع الشهية وحماسة الحديث (الفرنسي). وكان علماء الآثار يتحدثون بإسهاب، أما بعضنا فقد تاه في الغرف التي لا حصر لها؛ وبعضنا الآخر نزل إلى السراديب. ومن المؤكد الآن أن هذه السراديب المكونة من ممرات سرية، ضيقة وطويلة؛ شُقت وسط كثافة الأسس والجدران، لم تكن مخصوصة للعبادة، بل كانت تشكل مخبأ للكنوز الخاصة والعامة. فقد وضعت بداخلها تماثيل الآلهة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة والخشب من كل الأصناف، حيث كانت تؤخذ في أيام الاحتفالات للطواف بها في المواكب وعبادتها. ولأنها كانت تُستخدم في مثل هذه الطقوس؛ فقد كان يُحتفظ بها في أماكن سرية ومجهولة.

رجعنا إلى الضفة تحت أشعة الشمس الحارقة، وامتطينا الحمير إلى السفينة. وعبرت جميع السفن النيل، ثم توقفت أمام قنا عند منتصف النهار. وتجرأ أغلب الركاب على زيارة المدينة رغم الطقس الحار، حيث احتمى بعضهم داخل السوق، وذهب بعضهم الآخر إلى أسواق الحبوب الموجودة بالعراء تحت نور الشمس المتوهج والمنعكس على جدران المساكن البيضاء فيما تفرق آخرون في الأزقة الظليلة التي تسكنها (العالمات).

مكثتُ بسفينة (الجيزة) في انتظار الحفل المثير الذي سيحييه (القنصل) العربي. وكما فعل في أسيوط؛ ناولني القبطان ذراعه، وقادني إلى المنزل ذي الأسوار العالية المزينة بنقوش عربية قديمة، حمراء وصفراء.

واجتزنا عتبة الدار، ثم صعدنا أدراجاً واسعة تفتقر إلى الأناقة والزخرفة وبلغنا قاعة واسعة، محاطة بالمقاعد وعلى أرضيتها وضعت زربية (تركية) قديمة؛ وفي زاويتها شرفة مطلة على النيل، تسمح بتسلل نسيم رطب. وامتلأت القاعة بكل الركاب وببعض الموظفين (الأتراك) والعرب الذين قدموا للترحيب بنا.

وعلى الفور، دخلت ثلاث (عالمات) غير جميلات، متبوعات بموسيقيين غير أنيقين. وقامت (العالمات) المبتذلات برقصات خليعة، ومن بينها رقصة النحلة التي وصفتها من قبل.

وباستثناء بعض المعجبين بهؤلاء النسوة المنحرفات، فإن أغلبية الحاضرين كانوا غير مهتمين بالعرض المقدم. وفجأة، دخلت راقصة بشموخ ومهابة؛ كانت هي بدويّة (العالمة) الشهيرة في كل مصر العليا. هكذا، قامت بطريقة راقية ونبيلة بأداء الرقصة البطولية بالسيف؛ مبرزة من خلالها عظمة (عالمات) الأزمنة السحيقة.

انبعثت في كل أرجاء القاعة كلمات التشجيع والتقريظ، كما صفق الجميع للموسيقي الذي عزف فواصل موسيقية من دون جوقة على آلة (بوترين) تدعى (الربابة)، استخرج منها أعذب الألحان. وأكدت حيويته ومهارته وإحساسه الفني الرفيع أنه موسيقي فطري عبقري، وبإمكانه أن يثير حسد أعظم العازفين لديْنا.

ظللتُ مفتونة بعرض هذين الفنانين، إلى درجة أنني نسيت زيارة حريم (القنصل). لكن سرعان ما بدأت (عالمات) تافهات رقصةً جديدةً، فاستدرت لكي لا أفسد الانطباع الذي تركته بدوية لدي. وبينما كنت أشم الهواء بالشرفة، وأستمتع بجمال الليل وانعكاس أضواء النجوم على النيل؛ أخبرني (السكرتير) الصيدلي بأن خصيان الحريم ينتظرونني بباب القاعة لمرافقتي إلى الجناح المخصص لنساء (القنصل). اتكأت على ذراعه، وغادرت القاعة الممتلئة بالمتفرجين. واستقبلني نوبيان بوجهين قبيحين، يرتديان أقمصة رمادية قديمة، ودلاني على أولى درجات السلالم. فقال لي (الإيطالي)، المولود بـ(نابولي)؛ ضاحكاً: «هاهم الخصيان»، ثم انسحب بعيداً. لقد سبق لي أن رأيت مجموعة من هؤلاء البؤساء بشوارع القاهرة، لكنها كانت المرة الأولى التي أسمع فيها أصواتهم، وألمس بشرتهم المنفرة. رفضت في البداية الاتكاء على أذرعهم العارية، إلى أن وصلت أسفل السلالم المؤدية إلى الطابق الأرضي لمنزل (القنصل). لكن النساء كن موجودات في قبْو آخر، وكانت الأدراج المؤدية إليهن ممتلئة بمياه النيل. ولكي لا أسقط؛ اضطررت للتشبث بمعصم مرشدي الغريب. وشعرت وكأنني ألمس جلد ثعبان منفرٍ. وكان أحد المخصيين يحمل فانوساً يكاد يضيء السلالم الرطبة والجدران المتآكلة.

وأخيراً وصلنا أمام شارة من الحرير الأحمر، أزاحها الخِصي الآخر، وتم إدخالي إلى غرفة صغيرة ممتلئة بالزرابي القديمة والمخدات العادية التي جلست فوقها ثلاث نساء عليهن حلي ذهبية. نهضن لاستقبالي، وقبلنني، وأشرن إلى أفضل مكان لجلوسي.

كانت أكبرهن سناً هي أم (القنصل)؛ أما الثانية- وهي زوجة (القنصل) (لأن أغلب العرب ليسوا أغنياء؛ كي يستفيدوا من التشريع الإسلامي الذي يسمح بتعدد الزوجات)- فكانت قصيرة، دميمة، تهتز تحت سرواله ا وقميصها من الشف الأزرق.

وقُدمت لي المرأة الثالثة، وهي من سنها نفسها؛ وأفهمتني أنها ابنة (القنصل) من زواج أول. وبعد تناول القهوة، التي قَدَّمَتْهَا لنا بشكل بسيط في فناجين من الخزف خادمة فلاحة ترتدي صدرية زرقاء، شرعت النسوة الثلاث في فحص ثنايا فستاني الحريري وسلسلة ساعتي. وأصدرن أصواتاً حادة معجبة بخرص الأذن وبدبوسي البسيط؛ وجذبن هذه الحلي الرخيصة بأصابعهن ذات الأظافر المحمرة بالحناء. ولاحظت أن الوشاح الأزرق المذهَّب الذي أضعه على عنقي قد أثار اهتمام الزوجة، فأهديته لها؛ فلم تكبت فرحتها العارمة والطفولية، وأغرقتني بالقبلات. وكعربون على حسن الضيافة والمودة؛ ألحت الأم العجوز على أن أدخن (نرجيلتها). لكن نوبة من السعال ساعدتني على رفض طلبها؛ وكانت مسوغاً لأنهي زيارتي.

خرجت وأنا مشمئزة من معاينة أول حريم بمصر، لا يعطي- على ما يبدو- صورة عن الحريم الأميري الذي سأزوره عند رجوعي إلى القاهرة. وعندما رجعت إلى قاعة الاحتفال كانت الرقصات قد انتهت، فتلففت بمعطفي، ورجعت إلى (الجيزة). وكان التهور الوحيد الصادر عني؛ هو البقاء ساعة أخرى تقريباً على ظهر السفينة؛ للتأمل في سماء هذه الليلة الرائعة، المرصّعة بالنجوم.

الفصل الثاني عشر

طيبة، الكرنك والأقصر، خمسمئة نموذج من أبي الهول، تمثال (رمسيس)، مآثر (أبيدوس)، العملاقان، تمثال ممنون، نقوش شعرية، رسالة إلى ابنتي، وصول (الإمبراطورة)، (إسنة) (Esneh)، (إدفو) (Ed fou)، مقالع الجبل، جزيرة الفيلة.

وصلنا بتاريخ 29 (أكتوبر) إلى أشهر جزء بمصر العليا وأهمه، حيث تمتد طيبة القديمة على ضفتي النيل مثلما تمتد (باريس) و(لندن) على ضفتي (السين) (Seine) و(التايمز) (Tamise). وعندما نصعد النيل يتراءى لنا (الكرنك) والأقصر يساراً بجانب سلسلة الجبال العربية، وبالضفة المقابلة تنتصب معابد قرنة والدير البحري والعمالقة ودير المدينة ومدينة (أبو) ومعابد أخرى مهددة تماماً، كانت تشكل جزءاً من طيبة العظيمة، دون أن ننسى المقابر الكبيرة المهدمة التي بُرمجت زيارتها إلى الغد.

وحوالي منتصف النهار؛ وصلنا إلى الأقصر، حيث تنتصب على الشاطئ المسلةُ التوءم لتلك الموجودة بساحة (الكنكورد) (Concorde) بـ(باريس). وكانت هاتان المسلَّتان موجودتين أمام أعمدة المعبد الذي مازالت أهم بناياته قائمة إلى حد الآن. ورغم الحرارة الشديدة؛ لم نقاوم فضولنا في التوجه نحو الأعمدة الضخمة. وكان نموذجان من أبي الهول جاثمين عند مدخل المعبد الممتلئ بالحجارة. ويرجع تاريخ هذه المعلمة إلى الأسرة الثامنة عشرة وإلى حكم (أمينوفيس) (Aménophis) [1600 ق. م]. وقد شيدت الأعمدة المطلة على النهر- قرنين بعد ذلك- مثلها مثل المسلات.

ووراء نموذجي أبي الهول توجد سارية ضخمة؛ أما بالداخل فقد نُقشت أسماء (تاهركاه) (Tahrakah) و(بساميتكوس) (Psammeticus) والإسكندر الذي ساهم في زخرفة جزء من المعبد.

ومنذ بضع سنين، كانت الأقصر مركزاً تجارياً للآثار الأصيلة؛ لكن هذه التجارة فترت بسبب منع التنقيب (الأركيولوجي). ولهذا السبب؛ تجد بعض الورشات السرية التي تصنع الجعل والتماثيل والمسلات المقلدة بمهارة، بحيث تحير أكثر تجار الآثار حنكة.

وعند الساعة الثالثة بعد الزوال؛ امتطينا الحمير، وتوجهنا إلى الكرنك الموجود على بعد (كيلومترين) من الأقصر. وأنساني منظر الممر الشهير الذي يتضمن 500 نموذج لأبي الهول تزين (الكرنك)؛ تعبي وحرارة الشمس. هكذا غطيت رأسي بحجاب، واحتميت بمظلة، وكلفت العربي الذي يتبعني بحمل قلة الماء. وكانت الطريق مقطوعة هنا وهناك ببرك مائية،

هي بقايا فيضانات النيل، كما كنت تجد أشجار النخيل والصبار بكثرة. وعندما وصلنا إلى الطريق المؤدية إلى المعلمة؛ أثارنا تراكم الأطلال. ولإدراك عظمة المكان؛ يتعين تصور 600 نموذج لأبي الهول بقصر (الكريستال) بـ(لندن). فهناك لا تجد سوى الخرائب، وأغلب نماذج أبي الهول كانت مقلوبة، وتعرقل السير. لكن فيما وراء هذه الأطلال، تمكنا من بلوغ قاعات واسعة ومجموعة من المعابد المدهشة والعظيمة.

ومما لا شك فيه؛ أن مآثر الكرنك هي أروع ما أنتجه العالم القديم. ثمّة مسلّتان، تعدّ إحداهما أعلى مسلة في مصر، تطلان على هذه الخرائب. وبينما كنت تائهة وسط الممرات، شاهدت (أميدي مويرون) و(غاستون براون)؛ منهمكين في تصوير النقوش المثيرة داخل المعبد. ولأنهما لاحظا علامات الإعياء بادية علي؛ فقد قدماً لي المقعد المطوي الذي يستعمل كدعامة لإحدى آلات التصوير. وبالمقابل، منحتهما أقراص النعناع المرطبة التي استمتعنا جميعاً بمذاقها اللذيذ. ولن أدعي هنا إعطاء معلومات مفصلة عن أطلال الكرنك الخالدة. وغالباً ما طُرح السؤال عما إذا كان تراكم هذه الأحجار التي تبرز أغرب أطلال مصر القديمة ناجماً عن زلزال، أم أن تدمير (الكرنك) كان نتاجاً لغزو (بطليموس) الرهيب ونهبه الفظيع لمدينة طيبة، بعد حصار دام عدة شهور. وهناك بعض ملاحظات العلماء مؤخراً؛ تفيد بأن انهيار مآثر الكرنك الموجودة بالقرب من النيل راجع إلى تسرب مياهه داخل الكتل الحجرية.

وجدت حماري وصاحبه في انتظاري عند ممر أبي الهول. وكان الترجمان متكئاً باسترخاء قرب تمثال عملاق ممدَّد على الأرض؛ وهو يأكل فاكهة أتيت بها معي للتخفيف من عطشي. وامتطيت الدابة التي تابعت سيرها باتجاه الأقصُر. وفي الطريق؛ رأيت جواميس وجمالاً وقطيعاً من الأغنام، ترعى العشب المحيط بالبرك المائية. وكان العرب بمعاطف الاحتفال يتحركون في كل الأماكن من حولنا. وعند اقترابنا من الأقصر، لاحظت حركة غير عادية؛ فقد كان الفلاحون ينظفون الغرف، وكان بائعو الفواكه والفطائر يحيوننا، ويتودَّدون إلينا. وعندما استفسرت عن الأمر؛ قيل لي: إن (الإمبراطورة) (أوجيني) ستنزل بشاطئ الأقصر غداً أو بعد غد على الأرجح؛ فأسرعت بالرجوع إلى (الجيزة). وفي اليوم التالي (31 أكتوبر)، قمنا برحلة إلى أطلال طيبة، على الضفة الأخرى من النيل؛ وكانت من أصعب الرحلات وأهمها. ففي الساعة الحادية عشرة قطعنا النيل لعدة (كيلومترات)، ووصلنا ساعة بعد ذلك

إلى المكان المحدد للنزول. وكان الشاطئ جميلاً وخصباً، ممتلئاًبحقول الذرة وقصب السكر الشاسعة، التي زاد طمي النيل من خصوبتها. ووجدنا في انتظارنا حميراً نشطة وفلاحين محملين بالمؤن والكراسي المطوية والزرابي. وطبعاً فإن الواصلين الأوائل استحوذوا على أفضل الحمير؛ وسمعت عالماً، عضواً بالمؤسسة؛ يحتج، ويعرض ألقابه قائلاً: «إن لي الحق في دابة جيدة».

قلت له ضاحكة:

- أي نعم! عليهم الاحتفاظ بالحمير الجيدة (للأكاديميين).

وكالعادة، كنت في الصف الأخير ممتطية حماراً صغيراً ووديعاً. ورغم ذلك لم أكن مرتاحة فوق ظهره، فقد جعلتني رحلة البارحة إلى (الكرنك) غير مستعدة لمثل هذه المطايا. واجتزنا الحقول التي كانت نباتاتها- وخصوصاً قصب السكر- تتجاوز قامتنا. وكان الفلاحون يشقون الطريق أمامنا بمناجلهم الصغيرة. وفجأة وجدنا أنفسنا بحقل دائري مثل بستان أتقنته يد الإنسان، قُطع عشبه، ووُضعت فوقه عدة زرابي، كما وُضعت المقاعد تحت شجيرات مزهرة ومزينة بعروش قصب السكر؛ فجلسنا في مكان الاستراحة هذا حيث قدم لنا طعام الغداء.

وعندما بقيت وحيدة؛ ناديت على الترجمان الذي تظاهر بعدم سماعي. ولم يستجب لندائي وهو متذمر؛ إلا عندما ازدرد أفضل المأكولات الموضوعة رهن إشارته.

طلبت منه حمل القلة وامتطاء الحمار والسير وراء الرجال الذين سيحملونني. وفعلاً، فقد ربط أربعة فلاحين أقوياء عصيهم بالمقعد الذي كنت جالسة عليه، ورفعوه فوق أكتافهم. أحسست بالراحة والحيوية وأنا محمولة من قِبل الرجال الذين كانوا يمشون بسرعة على الطريق الظليلة.

وبعد مدة؛ وصلنا إلى أرض جدباء، ومشينا تحت شمس حارقة؛ بمحاذاة قناة تحصر بها مياه النيل. ورغم التعب؛ فإنني أحسست بالانتعاش عند رؤيتي للمناظر العظيمة بمصر العليا. عن يميني كانت توجد تلال الرمال الصحراوية، وبسفوح سلسلة الجبال الليبية كانت هناك أطلال لا حصر لها من سَوارٍ مثلومة وأعمدة ناقصة وأبواب مشرعة، نجتازها

للنزول عبر أدراج عميقة تؤدي إلى المقابر العديدة لطيبة. وكان من الواضح أنني لن أتمكن أبداً من مرافقة المدعوين الآخرين في رحلة الاكتشاف المتعبة والخطرة لهذه المعابد والمقابر التي لم تعد سوى ركام من الأنقاض. فباستثناء فضاء (رمسيس) الذي وجده (شامبوليون) (Champollion) سليماً تقريباً، فإن ما يوجد بداخله وكذلك المعابد والمقابر المحيطة به أصبحت أطلالاً. ويتعلق الأمر بقصر عظيم بناه (رمسيس) الثاني، وأقام فيه؛ وقد نقشت على أعمدته وجدرانه سيرة حياة هذا (الفرعون)، في حين كان تمثاله الضخم المكون من كتلة صخرية من (الغرانيت) والذي يبلغ علوه سبعة عشر متراً ونصفاً، منتصباً عند الباب. وأترك لمن هم أعلم مني وصف اللوحة الفلكية التي ألهمت أعمال (بيو) (Biot).

كان تمثال (رمسيس) ممدداً على ظهره ويبدو وجهه مشوهاً، ويتساءل كل من يتأمل في هذا التمثال الرهيب الذي هدم بضراوة، عما إذا لم يكن صبر من حملوا هذه الكتلة الصخرية من مقالع (أسوان) وقوّتهم قد تراجعا أمام قوة من دمروها. وأنا أتأمل من الكرسي المحمول هذه الأنقاض المثيرة، من تماثيل وأعمدة وبقايا النقوش، تحت الشمس الحارقة؛ فكرت بحزن في تخريب البشر وطمعهم الذين أضافوا نهبهم إلى التخريب الذي تقوم به الطبيعة. فكل واحد من الزوار احتفظ لنفسه بقطعة أو(بمومياء) من القصور أو المقابر. ويقوم العرب الناهبون بتقليد هؤلاء الزوار، حيث يفتشون كل زوايا المقابر والغرف الملكية وأركانها، بحثاً عن الحلي والتحف الفنية. ولا يمكنك اليوم أن تجد قبراً لم يتم انتهاكه. ورغم أن مذكّرة الخديوي جاءت متأخرة جداً؛ فإنه سيتمكن مع ذلك- وهذا ما نتمناه- من حماية مآثر (أبيدوس) وتلك التي ستكتشف لاحقاً على ضفتي النيل.

والرجال الذين يحملونني كانوا يلهثون وهم يجتازون هذه الأنقاض، بل كنت أحس أنا أيضاً- رغم مظلتي والحجاب الموضوع فوق رأسي- بالدوار والعرق يتصبَّب من وجهي. توقفنا عند ركام من الأنقاض تعثر به الحمالون؛ وقد شعرت بالشفقة على هؤلاء الرجال وحاولت السير متكئة على ذراع الترجمان، واقتربت كثيراً من البركة التي تغطي أنقاض معبد كانت ساريته فيما مضى مزينة بعملاقين. وقد اختفت السارية، لكن هذين الأخيرين مازالا قائمين. وينسب هذا المعبد إلى (أمينوفيس) الثالث، مثلما ينسب (الرمسيسيوم) إلى (رمسيس). وكان العملاقان في الأصل مسلّتين، قبل أن تكثر بهما الثقوب. وقد فقد العملاق

الموجود جهة الشمال جزأه العلوي الذي عوض بصخور متراصة بعضها فوق بعض. وكان طول العملاقين تسعة عشر متراً، وهو ما يتجاوز علو مسكن من خمسة طوابق. وكان أحدهما يمثل (أمينوفيس) الثالث، أما الآخر فهو عملاق (ميمنون) (Memnon). وتوجهت وأنا أترنح نحو شجيرة، وبدأت أتأمل تلك التماثيل العظيمة. ولا يمكن للمرء تصور تأثيرهما في الرائي؛ عند انحسار الماء عنهما وانتصابهما في عنان السماء. وتحمست لهذه اللوحة، فحاولت تسجيل بعض الملاحظات بصددها؛ لكن تعب اليوم اجتمع مع الآلام التي كنت أحس بها وأنا أتكئ على الصخور الحارقة التي كنت أضع فوقها رجلي المكدومتين.

وعندما عاين ترجماني شحوبي، بعد إصابتي بنوبة من السعال العنيف؛ تخوف من وقوع الأسوأ وتحميله المسؤولية، فقال لي بصوت متأثر: إن هناك مسكناً لأعرابي عجوز يمكنني أن أرتاح فيه وأن أشرب حليب النوق، وأنه سيخبر الحمالين بحالتي. سمحت له بالذهاب، وبعد برهة عاد مرفوقاً بعجوز تذكر ملامحه بالشيوخ المذكورين في التوراة. وكان يحمل قفصا مربعاً، تصلح شباكه لاحتضان الدجاج، فابتسمت لرؤيته؛ لكن الترجمان قال لي ملاحظاً:

– الأعراب ينامون بداخله في الليل؛ فهم يضعون معطفهم فوقه، فيدخل الهواء عبر الثقوب.

ولأنني تخوفت من أن يكون معطف العجوز الطيب ممتلئاً بكائنات مزعجة؛ فقد أزحته، وجلست بداخل القفص الذي كان صلباً مثل الحجر، لكنه أقل منه احتفاظاً بالحرارة. وعندما لاحظ الأعرابي أن سعالي لم يتوقف؛ ابتعد دون أن ينبس بكلمة، ثم عاد حاملاً معه إناء من الطين الأسود، مملوءاً بحليب الناقة. وبطريقة لا يتقنها سوى العرق الشرقي انحنى علي، ووضع القدح الغريب بين شفتي، فشربت بنهم هذا الحليب، رغم مذاقه المقرف، فأحسست بتأثيره الإيجابي في جسدي. وقضيت عدة ساعات في تأمل العملاقين اللذين كان أحدهما– وهو (ميمنون)، خلال فترة الهيمنة (الرومانية)– معبوداً لدى كل من الرومان والإغريق. وفي مصر القديمة، لم يكن تمثاله سوى تجسيدٍ لـ(أمينوفيس). لكن عندما وقع زلزال بالمنطقة، وأدى إلى تهشم الجزء العلوي من التمثال؛ زالت قيمته الفنية، لكنها عوضت بما يشبه المعجزة. فقد لوحظ أن هناك صوتاً ينبعث من العمود الداخلي؛ شبيهاً بصوت الإنسان. ويرجع العلماء

في وقتنا الحالي هذا الصوت إلى طقْطقة الحجر المبتل بندى الليل والذي تدفئه حرارة الشمس. لكن هذه الظاهرة كانت معجزة في نظر (الإغريق) و(الرومان) الذين زاروا مصر.

وكان العملاق موجوداً بحيٍّ بمدينة طيبة يدعى (الميمنونية). وقد عدّ هؤلاء الوثنيون الغرباء أن (ميمنون) هو مؤسس هذا الجزء من المدينة. أو لم يكن الصوت المسموع هو تشكي (ميمنون) المتضرع إلى أمه ربة الفجر؟

هكذا اشتهر العملاق في كل المناطق الخاضعة للهيمنة (الإغريقية) (الرومانية)، حيث كان الناس يأتون منها لسماع الصوت الرائع. وكل من تمكن من سماعه؛ ينقش على ساق التمثال شهادته المتحمسة بهذا القدر أو ذاك.

بعد مرور قرنين ونصف؛ حاول (سبتيم سفيروس) (Septime Severe) إسكات هذا الصوت المتشكي الغريب، أو على الأقل جعله متناغماً، وذلك بإصلاح التمثال. لكن الشكوى توقفت بفعل كتل الأحجار التي وضعت في الجزء المهدم من هذا الأخير. وترجع أقدم النقوش الموجودة على التمثال إلى فترة حكم (نيرون)؛ أما أحدثها فترجع إلى فترة حكم (سبتيم سيفيروس). وفي عهد (أدريان) (Adrien) تمَّ إحصاء سبعة وعشرين نقشاً دون الإشارة إلى عدد أكبر لم يحدَّد تاريخه.

وغالباً ما تكون هذه النقوش بسيطة ومبتذلة مثل: «لقد سمعت (سابين أوغست) (Sabine Auguste) زوجة (الإمبراطور) (القيصر أوغست)، صوت (ميمنون) مرتين، في الساعات الأولى من الصباح». وهناك أيضاً كتابة منقوشة بالشعر اللاتيني وبأسلوب مفخم، ومما جاء فيها: «أنا (بترونياموس) (Petroniamus) وريث أبي (دويليوس) (Duillius)، (الروماني) المولَّد، أتشرف بإهداء هذه القريظ الشعري إلى الإله الذي يكلمني. الكثيرون يأتون هنا لمعرفة ما إذا كان (ميمنون) المعطوب قد حافظ على صوته. إنه من فوق عرشه ومن دون رأسه، تنهد، واشتكى لأمه من إهانة (قمبيز) (Cambyse) له. وما إن ترسل الشمس أشعتها الحارقة؛ حتى تعلن للبشر الفانين ميلاد النهار».

وإليكم كتابة شعرية منقوشة أيضاً: «إن أمك، ربة الفجر ذات الأنامل الوردية، يا (ميمنون) الشهير قد أسمعتني صوتك الذي كنت أرغب في سماعه ؛ وذلك في السنة الثانية

عشرة من حكم المبجل (أنطونان) (Antonin) في شهر (بوشون) (Pochon). فيا أيها الرب المقدس! إنني سمعت صوتك، عندما ارتفعت الشمس فوق أمواج المحيط العظيم. ففيما مضى، جعلك المشتري بن زحل ملكاً على الشرق؛ لكنك أصبحت الآن مجرد حجر، ومنه ينبعث صوتك.

كتب (غوميلا) (Gomilla) هذه الأبيات، حينما جاء إلى هنا؛ رفقة زوجته العزيزة (روفيّلا) (Rufilla) وأبنائهما».

إن التفاصيل التي قدمتها حول هذا العملاق الشهير موجودة بكثرة، لكنني أعترف بأنها لا تهمني بقدر ما تهمني المناظر المحيطة به. لقد كان النور يتغير بين الفينة والأخرى، من الذهب المتوهّج الذي تكسو به الشمس هذه الأطلال إلى اللمسات الوردية التي تضفي على هذه الوجوه الضخمة مسحة بشرية حية.

واستفقت من تأثير هذا الجو الحار، رغماً عني؛ عندما تذكرت أنه يتعين علي السير أكثر من ساعتين للوصول إلى الشاطئ، حيث ينتظرني القارب الذي سيقلُّني إلى السفينة (الجيزة). ونهضت من القفص الذي كنت مستلقية بداخله لمدة طويلة، في حين كان الأعرابي العجوز الصامت، يحرك فوق رأسي غصن شجرة لإبعاد الذباب عني. أعطيت لهذا الرجل المسكين نصف النقود التي كانت معي كـ(بقشيش)؛ محتفظة بالنصف الآخر للحمالين الذين كانوا قد استسلموا للنوم؛ غير بعيد عني بالقرب من الأنقاض. وتأسفت على هذه المكافأة الهزيلة المخصصة للأعرابي العجوز على حسن ضيافته وللحمالين على تعبهم من أجلي، فهم يستحقون أكثر من ذلك. ونهض الترجمان الذي كان قد استسلم إلى النوم؛ عندما كنت منشغلة بتأملاتي؛ وظهر بعض التوتر على ملامحه عندما رآني متكئة على ذراع الأعرابي الذي كان يساعدني على اجتياز الأماكن الوعرة؛ فخاطبني بغروره البليد قائلاً:

– يا سيدتي، اتكئي على ذراع مسيحي، بدل ذراع ابن الشيطان هذا.

فقلت له ضاحكة:

– ساعدني أنت أيضاً أيها الملَك الماكر، فلكي لا أتعثر في هذا الركام؛ أحتاج إلى دعامتين.

ووصلنا بصعوبة إلى المكان الذي ينتظرني فيه الفلاحون الأربعة؛ غير عابئين بمرور الزمن. وعندما انحنى الأعرابي العجوز، وقبل أسفل فستاني كعلامة على توديعي، رغم الاحتجاج المكتوم للترجمان الورع؛ شددت على يده النحيلة، المكسوة بالتراب، وشكرته على طيبوبته. وشعرت بالمتعة من جديد؛ عند جلوسي على مقعدي، حيث تم حملي إلى ضفة النهر. ركبت القارب الذي كان ينتظرني، ووجدت نفسي بعد برهة، على ظهر (الجيزة). والشيء المؤكد هو أن هذين اليومين الأخيرين (29 و30 أكتوبر) اللذين قضيتهما بين أطلال طيبة، تحت أشعة الشمس الحارقة، قد أثراً في طاقتي المعنوية التي تعدّ هي الدعامة الوحيدة لجسدي المنهك. وخير شهادة على حالتي المنهارة آنذاك؛ هي السطور التالية التي كتبتها إلى ابنتي في المساء نفسه والتي أنقلها كاملة:

«ابنتي الغالية:

ها قد مرت الآن خمسة عشر يوماً ونحن نصعد مجرى النيل، ولم أعد أدرك في الحقيقة كيف نعيش. إنني لم أكتب إليك؛ لأن البريد لا يشتغل هنا. لكنني أُخْبِرت بأن هناك سفينة ستحمل رسائلنا إلى القاهرة غداً؛ وربما توصلنا بالبريد القادم من (فرنسا)، وهو الأمر الذي لم يتحقق بعد للأسف منذ أن غادرنا بلدنا.

إن هذا السفر قاسٍ وخطر؛ وعلى المرء أن يكون قوياً جسدياً ومعنوياً للاستمرار فيه. العديد من رفاقي تخلوا عن الرحلة، وكان علي أيضاً أن أفعل مثلهم، خصوصاً أن السعال يلازمني، لكنني لم أستطع العدول عن هذا السفر المثير الذي حلمت به منذ مدة.

وإلى حدّ الساعة؛ لم تسعفني قوتي للكتابة إلى جريدة «القرن» عن مصر العليا. الأولوية لي هي الخروج سالمة من هذه الرحلة والتقاؤك يا ابنتي العزيزة. ولا يمكنك تصور الحرارة التي تلتهمنا وحالة الخبل التي تنتابنا تحت هذا الطقس، فالذباب يسيطر علينا نهاراً، والناموس يزعجنا ليلاً. وفي هذه اللحظة التي أكاتبك فيها، أشعر بآلام فظيعة. ولحسن الحظ، لم أصب بالتهاب في الأمعاء الغليظة ولا بأمراض العيون التي أصيب بها العديد من المدعوين. أما الجولة على متن الحمير، لزيارة المعابد الموجودة بأراض مغمورة بالمياه أو برمال الصحراء القاحلة؛ فإنها تزعجني. واليوم، قررت في أثناء زيارة مآثر طيبة التخلي عن الحمار، واستأجرت

بعض الأعراب لحملي على أكتافهم. وقد رأيت العملاقين الشهيرين من بعيد؛ ولعلمك، فإن أحدهما هو (ميمنون)؛ لكن قاعدتهما كانت مغمورة بالمياه الناجمة عن فيضانات النيل. وعندما لاحظ أعرابي تعبي؛ سقاني حليب الناقة في قدح متّسخ.

إنني أكتب لك هذه السطور بعد عودتي إلى السفينة مباشرة؛ ولأنك غالية علي وجدت الجرأة على الكتابة. نحن ننتظر قدوم (الإمبراطورة)، وسنغادر الأقصر بعد غد؛ لنصعد النيل باتجاه أولى شلالات النهر.

أقبلكم جميعاً بجسدي المنهك، لكن أيضاً بروحي التي مازالت نشيطة». ل.ك.

لم يساعدني نومي المضطرب والقصير في ليلة محمومة؛ على استرجاع قوتي. وشعرت بالتثاقل عندما أخبرني (الفرّاش) (غايطانو) في الصباح بأن الشاطئ زين بالأعلام احتفالاً بـ(إمبراطورة) (فرنسا) التي يحتمل أن تصل بعد الظهيرة. وذكرني هذا الخبر بواجبي كصحفية، فنهضت مسرعة، وارتديت ملابسي، وأخذت كراستي، ثم توجهت إلى الشاطئ متبوعة بترجماني. وكان ركاب الأسطول الصغير موجودين بكثرة، إلى جانب شيوخ الأعراب الذين جاؤوا من النواحي. وأمام المعبد القديم؛ انهمك الفلاحون في نصب خيمة كبيرة مزينة بالأعلام المصرية؛ وتحتها وضعت طاولة على شكل حدوة فرس. وكان سليمان (بيه) قد فكر في جمع كل مدعوي الخديوي لتناول العشاء بغرض تحقيق الوئام فيما بينهم، على حد تعبيره، وهي مهمة صعبة، إن لم تكن مستحيلة.

وكما كان الشأن في قنا، فإن شؤون (القنصلية) (الفرنسية) وأيضاً (ويا للغرابة!) (البروسية)، كانت يدبرها بالأقصر رجل عربي. وكان سطح منزله المواجه للشاطئ ممتلئاً بأعلام الدولتين اللتين يمثلهما. وقد لوحظ وجود (الفرنسيين) و(البروسيين) فوقه. هكذا رأيت السيد (تاغليوني) (Taglioni) الملحق بالسفارة (البروسية) بـ(باريس) و(البارون كورف) القناص الماهر الذي التقيته (بدندرة)، فسلما علي، وأفسحا لي مكاناً للجلوس. واستقبلني (القنصل) العربي، وهو رجل ذكي ومثقف، بلطف كبير. وقد أخبره ابنه الذي كان يتكلم (الإيطالية) بعض الشيء؛ عن أعمالي، وترجم له رغبتي في قضاء ما تبقى من اليوم- إن أمكن- داخل غرفة بمنزله حتى أتمكن من الكتابة بعيداً عن حرارة الشمس وعن

إزعاج الذباب.

وعلى الفور، هيأ لي العربي الطيب غرفة صغيرة على السطح، ذات جدران عارية، وبها أريكة قديمة ومتينة. وتنفيذاً لطلبي؛ وُضعت طاولة صغيرة أمام الأريكة، فبادرت بترتيب أوراقي وكل ما أحتاج إليه للكتابة فوقها.

كنت أحصل في كل ساعة على قلة من الماء البارد وفنجان من القهوة الساخنة. وبعد تأكدي من أن هذا المكان أصبح مخصوصاً لي- إلى حين مغادرة (الجيزة) للميناء في فجر اليوم التالي- خرجت إلى السطح للتأمل. وفي الساعة الرابعة بعد الظهر وصل الأمير حسين، الابن الثاني للخديوي، وهو شاب في السادسة عشرة من عمره، مهتم على ما يقال (بالأركيولوجيا) المصرية؛ وهذه هي رحلته الرابعة إلى مصر العليا حيث يجد متعة في متابعة التنقيب والاكتشاف. لكن من الواضح اليوم، أن مجيئه كان بغرض استقبال (الإمبراطورة) (أوجيني) التي تم الإعلان عن وصولها عند الخامسة بعد الظهر. وشوهدت على متن سفينة بخارية رائعة يمتلكها الخديوي واسمها (النسر)؛ ومعها أفراد حاشيتها. كانت السفينة متبوعةً بسبعة مراكب محملة بالمؤن من كل الأنواع، ومن بينها أربع بقرات لتزويد السفينة بالحليب والزبدة الطريين في كل ساعة وحين، وأيضاً للسهر على راحة جلالتها.

وفي الخامسة صباحاً؛ تمكنت (الجيزة) من مغادرة شاطئ الأقصر المزدحم بالسفن البخارية والقوارب. وحوالي منتصف النهار وصلنا إلى إسنة، وهي مدينة صغيرة ممتلئة بالمناطق الخضراء. وعلى ضفاف النيل؛ تنتصب أشجار النخيل، وهنا وهناك ترى حدائق ظليلة ممتلئة بالأزهار. كان رصيف الميناء الذي ستمر منه (الإمبراطورة) مغطى بالزرابي وممتلئاً بالأعلام؛ أما الأزقة والساحات؛ فكانت مزينة بالجداريات وبأقمشة ذات ألوان صارخة، كما هو الشأن في (إيطاليا) جنوبي (فرنسا)، في أثناء مرور موكب الاحتفال بأعياد الكنيسة. وعلى ضفة إسنة، ينتصب معبد قديم، يرجع إلى عهد الحكام الذين توارثوا اسم (بطليموس)، وهو عهد انحطاط كما يقول علماء الآثار؛ وخلاله شيّد معبد دنْدرة أيضاً. وكان الجانب الذي أزيل منه الردم بمعبد إسنة جذاباً، حيث بدت أعمدته أرق من تلك الموجودة بأشهر المعابد المصرية.

ورغم الإعياء الشديد الذي يستلزم بقائي في مقصورتي؛ فإنني قررت زيارة هذه المعلمة

والتجول بسوق المدينة، التي ستنهكني حرارتها تمام الإنهاك. ففي هذا اليوم، الذي هو عيد جميع القديسين، حيث البرد والأمطار بـ(باريس)، تصل الحرارة هنا إلى 32 درجة وخمسة أعشار في الظل. وكنت من الأوائل الذين رجعوا إلى السفينة، وسقطت منهكة على ظهرها. وكانت أسراب من الذباب تطنّ فوق رأسي، وتهاجمني بشراسة.

بعد ذلك، بلغنا (إدفو) الموجودة بالقرب من الضفة، وينتصب فيها معبد مشهور تمَّ تنظيف جانب منه فقط؛ أما الجوانب الأخرى فلم تحظَ بأي اهتمام. وكانت الواجهة وكل أعمدة الغرفة الوحيدة بهذا المعبد ترجع إلى العهد (الروماني). ويمكننا أن نقرأ بها كتابات (كلود)، و(دوميتيان) (Domitien)، و(كومود) (Commode)، و(سبتيم سيفروس)، و(كركالا) (Caracalla)، و(غوطا) (Goeta). أما آخر الغرف؛ فتعود إلى الفترة (الإغريقية). وكانت النقوش منفّرة، وتتخلل النصوص المكتوبة تلاعبات جناسية بالألفاظ وتلاعب بالكلمات والأحرف.

وأنبه قرائي أنني استقيت هذه المعلومات المفصلة من «الدليل» الذي وزع على المدعوين لزيارة مصر العليا؛ لأن رغبتي في النزول إلى (إدفو)؛ أحبطت بسبب ضعفي الشديد. وأضيف هذه المعلومة المهمة، وهي أن الهندسة المعمارية ستدخل عهداً جديداً، متقدماً إن صح التعبير؛ مقابل تراجع النحت منذ عهد الملوك الذين توارثوا اسم (بطليموس). هكذا، أصبحت الأعمدة أكثر إتقاناً؛ ودعامات السقوف أكثر متانة، وهي تذكر بتيجان الأعمدة (الكورنثية). وطبعاً، فإن هذا المعبد شيد على شاكلة معبد (دندرة). وبأعلى ساريته التي يمكن بلوغها بوساطة أدراج واسعة، نقشت بالسكين بعض أسماء جنودنا المشاركين في الحملة على مصر. وكان رفع الردم بأكمله من معبد (إدفو)، هو أكبر عمل (أركيولوجي) تم إنجازه بأمر من الخديوي الحالي.

وبينما كان رفاقي بسفينة (الجيزة) يزورون هذا المعبد يوم 2 (نونبر) 1869؛ كنت أقضي الساعات في تأمل ضفاف النيل الذي يبدو أعظم، من جهة سلسلة الجبال العربية.

وعند رجوع الركاب؛ صعدت السفينة النهر بمحاذاة مقالع «جبل السلسلة»، حيث كان من المقرر أن نقضي الليلة هناك. وكانت هذه المقالع التي قدها الإنسان؛ هي التي استخدمت

لبناء (الكرنك) وآثار طيبة بكاملها. وغالباً ما توجد أحجارها بالعراء وقد تراصت على علو خمسة عشر إلى عشرين متراً؛ وهناك أحجار وُضعت على شكل طوابق كبيرة. ويمكن للمرء أن يلاحظ كيف كانت هذه المقالع تستغل في الماضي؛ فقد كان الجبل محفوراً بمستويات متماثلة؛ إن صح التعبير.

وتبدو المقالع الآن أشبه بقلاع ذات أسوار مذهبة. أما بالضفة المقابلة، فعددها قليل، لكنك تجد على ضفة النهر مغارات كثيرة، استخدمها المصريون القدامى كمقابر. وغابت المزروعات عن الضفتين؛ في حين كانت أشعة الشمس من جهة الغرب تملأ المكان بنورها، فتبدو سلسلة الجبال الليبية بلون غامق؛ تحت هذا الضوء الوهّاج.

وصلنا إلى (جبل السلسلة) عند المساء، لنغادره مع طلوع الفجر. وكان الأصحاء من بيننا قد غادروا السفن لزيارة بعض المقالع ومعبد صغير توجد به نقوش جميلة؛ حيث كان المصريون القدامى يقيمون مذابح صغيرة، يقدمون فيها قرابينهم. ووصلنا إلى (قمبيز) (من جهة السلاسل الجبلية العربية) في الساعة الثالثة بعد الظهر. ويوجد به معبد، ستغمره مياه النيل؛ آجلاً أم عاجلاً، وقد بناه الملوك (الإغريق)؛ خلفاء الإسكندر. وبينما كان السادة الركاب يستمتعون بزياراته؛ بقيت على ظهر السفينة؛ لأسترد قوتي، وأقاوم آلامي. واستفقت من تأملاتي إثر مرور (يخت) الأمير حسين و(الإمبراطورة) والمراكب التي تتبعهما. حيث تم تجاوز أسطولنا الصغير باتجاه أسوان.

لم تكن الرحلة من (قمبيز) إلى أسوان طويلة؛ فبعد ثلاث ساعات أو أربع من المشي؛ شاهدنا من ناحية الجنوب جبالاً محاطة بقلاع. ويضيق النهر عند جزيرة خضراء تقسمه إلى قسمين متساويين تقريباً. وبجوانب هذه الجزيرة تجد منازل بيضاء ممتلئة بأشجار النخيل. وهي تدعى جزيرة الفيلة التي تحجب نباتاتها الوفيرة رؤية مياه النيل.

إن ما يثيرك عند الوصول إلى أسوان؛ هو منظر النيل الذي يبدو وكأنه توقف عن الجريان هناك، بحيث إن الناظر يبحث من دون جدوى عن مخرج لمياهه. وتثير أسوان فضول كل رحالة (أوربي)؛ إذ يجد المرء نفسه في عالم جديد، وكأن مصر قد انمحت، وحلت محلها منطقة أخرى، يختلط فيها العرب بـ(الأتراك) وبـ(الزنوج) من أصول مختلفة. ويتميز سكان السودان

هنا، بقاماتهم الفارعة وبشرتهم السوداء اللامعة وملامحهم الدقيقة مثل (الأوربيين). وعلى الشاطئ وبـ(البازارات)؛ تعرض شتى المنتوجات، بدءاً بالعلكة، التي سارعت باقتنائها، مروراً بأنياب الفيلة وجلود الحيوانات المتوحشة والحصائر المصنوعة بإتقان والمآزر المزينة بأهداب من الجلد وبالأحجار الكريمة والقواقع، والتي ترتديها فتيات الجزيرة، وانتهاء بريش النعام كأهم تجارة بأسوان. ويتجول التجار وسط الزوار، عارضين الرماح والمطارق المصنوعة من خشب (الأبنوس) والنبال التي يقال: إن رؤوسها الحديدية مسممة وخناجر السودان ذات الغمد المصنوع من جلود التماسيح.

ولأنني تعافيت بعض الشيء عند وصولي إلى أسوان يوم 4 (نوفمبر)، فقد قررت النزول إلى الشاطئ؛ مرفوقة بترجماني للتسوّق. وكان مجرى النيل قد أصبح ضيقاً عند جانب المدينة، بحيث غطته سفن أسطولنا وأيضاً سفينة (الإمبراطورة)؛ المزينة بالأعلام. وعند دخولي إلى (البازار)؛ اكتشفت عند كل خطوة، (زنوجاً) وعرباً ونوبيين و(أتراكاً)؛ جالسين فوق الكراسي، وهم يلعبون النرد أو الشطرنج أو ألعاباً أخرى أجهل طبيعتها. وشاهدت زنجياً خسر في اللعب على ما يبدو، يزيل من أصبعه بتحسر خاتماً فضياً مرصعاً بحجرة كريمة قديمة؛ وقد اقترح علي شراءه، فساومه ترجماني الثمن؛ وفي الأخير اقتنيته من هذا المتوحش؛ لأقدمه هدية لصهري. ومن بين النساء اللواتي التقيتهن؛ قليلات كن محجبات، وأغلبهن كن يضعن- كزينة- خرصة بالأنف أو بالشفة العليا التي تم ثقبها قبل البلوغ.

توجهت تحت الشمس الحارقة إلى سوق الحبوب الموجود بساحة واسعة مطلة على منحدر. وهناك التقيت (الكونت مونمور) (Mont-Mort) الذي منحني ذراعه، وطلب مني بأدب جمّ الرجوع سريعاً إلى السفينة؛ لأن شحوبي والعرق البارد بيدي؛ يمكنهما أن يؤديا إلى هلاكي في هذا الجو الحامي. اتَّبعت نصيحة هذا الرجل الطيب، وعدت إلى (الجيزة)، وقد انتابني شعور الإنسان الحزين الذي أدرك أن الجسد لم يعد يطاوع إرادة الفكر. وبقيت وحيدة على ظهر السفينة رفقة تأملاتي الحزينة؛ إلى أن حان موعد العشاء.

وكانت دقائق معدودة تفصلنا عن جزيرة الفيلة، فقلت لنفسي وأنا أتأمل انعكاس نور الشمس المائلة إلى الغروب على جوانب هذه الجزيرة: كم سيشعر المرء بالراحة وسط هذه

النباتات وتحت ظلال هذه الأشجار الخضراء.

ومنذ سبعين سنة وجد مؤلف العمل الضخم «المتمون للجنة مصر» بهذه الجزيرة معبداً نصف مهدم، أطلقوا عليه اسم معبد الشمال. كما اكتشفوا معبداً ثانياً ذا هندسة بديعة سموه معبد الجنوب؛ وأيضاً باباً كبيرة ومرفأ وآلة قديمة لقياس مياه النيل. وفي سنة 1822، اختفى المعبدان وآلة القياس. وقد استخدمت مواد هذه المآثر (الرومانية) للقيام ببناءات حديثة ومن ضمنها تمثال بشع لـ(أوزيريس). وتتلخص المآثر الوحيدة الموجودة بهذه الجزيرة في هذا التمثال وفي بعض الصخور المنقوشة. تركت أصدقائي المهتمين بالأمور التاريخية، وتوغلت وسط النباتات العالية وغابة النخيل التي تغطي أكواخ سكان الجزيرة.

كان السير متعِباً بهذه الطريق المتموجة. وما إن رآنا سكانها حتى تعالى هتافهم: «(بقشيش)! (بقشيش)!»، وتحلق حولنا الأطفال والنساء؛ عارضين علينا القلائد والمآزر. وكانت كل الفتيات يضعن خاتماً باليد اليمنى، وهن يشبهن فتيات الجزر المتوحشة ببحر الجنوب. وتذكرنا بشرتهن السمراء واللامعة بالتماثيل (البرونزية) المكتشفة بمدينة (بومبي)، أما ملامحهن فمتناسقة، وشكلهن جذاب.

وجزيرة الفيلة مأهولة حصراً بعائلات نوبية تزاوجت مع العرقين العربي و(الأوربي).

بلغتُ غابة النخيل الرائعة؛ متبوعةً بالأطفال والنساء. جلست على تلة رملية تحت نخلة عظيمة، وتأملت في الصخور الداكنة التي تفصل مجرى النيل، فيغيب النهر وراءها. وكان منظرها أرجوانياً في لحظة المغيب، في حين كانت النجوم تظهر متلألئة في سماء أسوان وعلى شاطئ الجزيرة. ولولا صراخ هؤلاء المتوحشين من حولي؛ لكنت قضيت الساعات الطوال مستمتعة بالتأمل. ورغم أنني وزعت عليهم نقودي، ورجوتهم عن طريق ترجماني أن يتركوني وحدي، فإنهم أصروا على التحلق حولي وعلى طرد الذباب من فوق رأسي؛ بوساطة سعف النخيل وقصب السكر. وتوجد جزيرة الفيلة على بعد مئتي ميل من القاهرة، لكن المرء يعتقد أنه على بعد آلاف الأميال من الحضارة الإسلامية. وتربط هؤلاء السكان نصف العراة ألفة غريبة بـ(الأوربيين).

في كل أسبوع، ترسو سفينة بخارية بالشاطئ وعلى متنها (إنكليز) و(ألمان) و(روس)

و(فرنسيون) و(إيطاليون) يَسْتَهْوِيْهِم الجمال الأخاذ لنساء المنطقة.

ومن المفارقات العجيبة مرور أسلاك (تليغرافية) فوق الأكواخ المبنية من طين النيئ وفوق غابة النيل المحيطة بها.

واستغرقت في تأملاتي إلى أن سقط الظلام، عندئذٍ أدركت أن رفاقي رجعوا إلى السفينة، فعدت مسرعة؛ متبوعة بموكبي الصاخب.

ومن ظهر (الجيزة)؛ تراءى لنا أسطول (الإمبراطورة) وهو يشع نوراً. وبدأ الندى يتساقط مثل مطر خفيف. فأحسست بالرعشة تحت معطفي، وأصابتني نوبة جديدة من السعال، ذكرتني بمتطلبات جسدي. وقبل أن أستسلم للنوم؛ سجلت في هذه الأبيات الشعرية انطباعاتي عن جزيرة الفيلة.

جزيرة الفيلة

أشعة الشمس الأرجوانية غمرت الأفق

وتحت أنظار أشجار النخيل بجزيرة الفيلة

نساء النوبة بقامتهن الطفولية

وبخرصة الأنف مثل الجواميس

يحركن بأذرعهن رضَّعاً هزيلين

يحوم الذباب فوق صدورهن ورؤوسهن.

جمال متوحش، وشعر مجعد متناثر

عيون كالماس الأسود وحدقات واسعة

تطلقُ أشعة ساخنة ونيراناً مجهولة

وأسنان أشد بياضاً من الحليب السائل من أثدائهن

تتلألأ، وتنفخ ثغورهن ذات الشفاه الممتلئة
أجسادهن القوية العارية تبدو مثل قطعة (برونزية).
أجملهُن كانت فتاة صغيرة
بملامح رقيقة وعيون وديعة تشع حيوية
لم يفسد جمالها بعد
بثقب الشفة أو الأنف بإبرة
محماة بالنار،
تلك العادة الهمجية
التي تسم العذراء عند البلوغ.
ومن حولي؛ خرج من الأكواخ والجحور
شيوخ بشعون وعجائز دميمات
تآكلت عيونهم بأشعة الشمس الحارقة
فأضحت كثقوب دامية؛ مفتوحة تحت الجفون
ووسط الرمال والأحجار،
مجموعةٌ من المحتضرين الصغار
آتون من كل مكان يتعثرون في مشيتهم.
تأملت الشيوخ والأطفال والأمهات بحزن
وهم يتبعونني بملامحهم الكئيبة.
فيا رفاق اللحظة الذين التقيتهم مصادفة
لقد نقشتم بقلبي صوراً مريرة

فما الفائدة من اللقاء؛ إذا كنا لن نلتقي مرّة أخرى؟
وماذا يمكنني أن أفعله من أجلهم؛ سوى البكاء بصمت؟
آه! لكم يحس الشاعر بعجزه
عن مواساتهم والتخفيف عنهم
فما قيمة الشفقة المنبعثة من قلب مكلوم؟
السيادةُ وليس فقط الذكاء
والذهب وإرادة مستبدٍّ ملهم
تستطيع وحدها النهوض بهذا الشعب المعذب.
فأن تنفخ الروح في الغرائز
ذلك هو العمل البطولي النبيل.
لو كنت ملكاً لقمت بذلك
ولتخلَّيت عن القصور والحليّ والمآدب
فطموحي هو أن يخلد اسمي
بتخليص شعبي من وضعه المنحط
عبر إلغاء كل تعذيب جسدي
وإصدار مراسيم من أجل خير الشعب وعافيته.
وباهتمامي بالأجساد؛ سأستمتع
بانبثاق عمل الفكر والاعتزاز بالنفس
مثلما تفتح شجرة غير مثمرة جذورها
عندما يُعاد غرسها في أرض خصبة

كلا ثمَّ كلا! لا يمكن أن يكون عرق بأكمله
خاضعاً للمادة القذرة
ومضطراً للسلوك مثل الحيوان
فالخير المحرر من كل الويلات
بنوره سيطرد الليل؛
لأن العدالة والحق ليسا كلمتين باطلتين.
وبينما أنا أتأمل في هذا السرّ الرهيب؛
كان الأهالي يحيطون بي مثل سرب أسود من الطيور
يمصّون قصب السكر بنهم
ويحركون هذا القصب فوق رأسي
والنيل الأزرق الذي انعكست فوقه أشعة أرجوانية
كان يعكس الجزيرة كلها بمرآة مياهه.
مصر العليا، (نوفمبر) 1869.

المحتويات

بلاد الشمس الساطعة

يرصد هذا الكتاب زيارة الأديبة الفرنسية (لويز كولي) إلى مصر سنة 1869 لحضور حفل تدشين قناة السويس، وهو الحدث العظيم الذي دعا إليه الخديوي إسماعيل أبرز الوجوه الفكرية والسياسية الأوربية عامة والفرنسية خاصة.

رسمت الكاتبة ـ بأسلوب تمتزج فيه الشاعرية بالسخرية ـ في رحلتها المثيرة التي زارت فيها الإسكندرية والقاهرة ومصر العليا لوحات رائعة للطبيعة المصرية، بنيلها ونخيلها ونور شمسها الوهاج، ولآثار مصر الغنية، من أهرام ومسلات ومساجد ومعابد فرعونية، ولتاريخها العريق الذي انصهرت فيه ثقافات متنوعة، فرعونية ويونانية ورومانية وعربية إسلامية وقبطية، فضلاً عن الثقافة الفرنسية والانكليزية والإيطالية.

وقد اتسمت رواية كولي للأحداث بالامتاع والتشويق، وامتزج فيها الوصف (الاثنوغرافي) بالروايات المتخيلة وبالأحكام المستندة على العادات والتقاليد والأعراف العربية والتركية.

وحمل حديث هذه الأديبة عن مصر القرن التاسع عشر في طياته نوعاً من التعاطف مع الإنسان المصري البسيط والمضطهد، ولاسيما الفلاح، وخير دليل على ذلك قصيدتها التي اختتمت بها سردها لهذه الرحلة المثيرة إلى أرض الكنانة.

السعر 65 درهم



